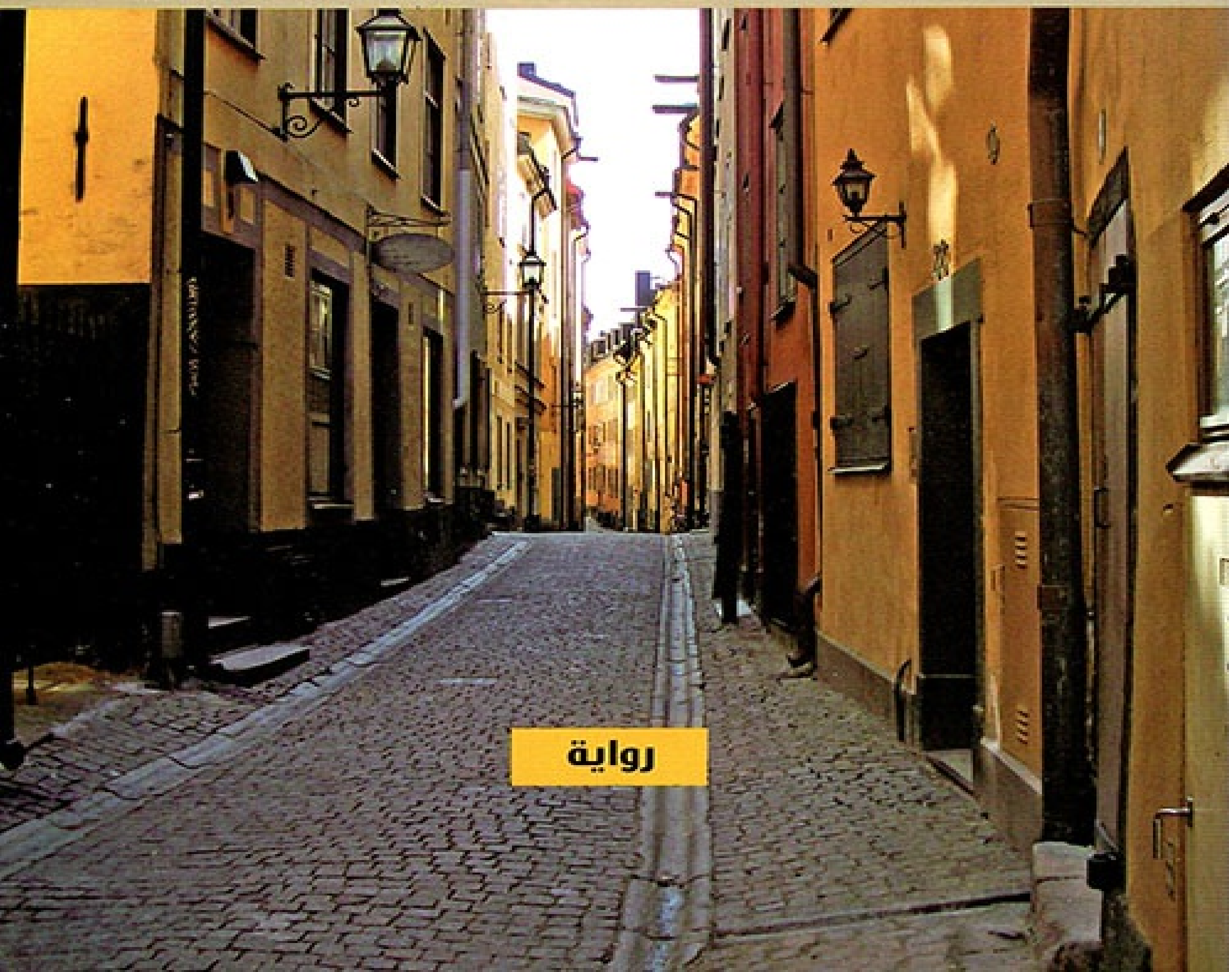
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أمين الزاوي

شارع إبليس



رواية

شارع إبليس

رواية

أمين الزاوي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



ISBN 978-614-421-610-1

الطبعة الأولى

1430هـ . 2009 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 1 00961
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 +213
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

من الناشر.

الإهداء

إلى ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري
شاعراً، فارساً ومتصوفاً

أمين الزاوي

في البدء

قال جَلَّ جَلالُه:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}

سورة الحجر (15)، الآيات: 28 – 35

الفصل الأول

قلب غيمة

أنا، اسمي زبيدة.

هو، اسمه الحقيقي عبدالله بن كرامة ولكن حين ضاق به هذا الاسم وأصبح لا يتسع لأسفاره وهذيانه وأحلامه ونسائه وموته اتخذ له اسما آخر فكان: إسحاق.

لماذا اختار لنفسه هذا الاسم؟ لا أحد سواه يعلم.

لم يترك لي إسحاق هذا حكاية مرتبة ومنظمة أرويها لكم عن موته الغريب والمفاجئ لذا سأحكي لكم حكاية ما، أية حكاية، لم يقلها ولم يورثني إياها، ولكنها كانت له أو عنه، دون أن يتفوه لسانه بها.

هي حكايتي له أو عنه، حكاية لم أسمعها منه ولم يسمعها مني لأنه لم يترك لي الوقت الكافي كي أدلق لساني في حضرته حتى النهاية. وأنا التي انتظرت عودته طويلا. عن أية نهاية أتحدث؟ الحكايات لا تنتهي، جميع الحكايات تبتدئ كالأسفار تماما.

هي حكايتنا التي لم يترك الموت لنا فسحة كي نعيشها معا حتى آخر محطة.

مؤكد أني أحببته لذا سوف أكذب في كل شيء حتى أثبت للجميع أنه هو الآخركان يحبني ويبادلني بمثل ما كنت أعطيه وأكثر.

ما أجمل أن يموت الواحد فيكون الحي بعده حرا طليقا، دون

رقيب، كي يكذب كما يشاء عنه وله. كي يشعر بالحرية التي هي توأم الكذب دون مقابل. كي يصنع له المرآة والوجه الذي يريد. وعلاقتي بإسحاق من هذا القبيل.

ها أنذا إذن بعد الوداع، وداع مشوش وغير أكيد، حرة في جنة الكذب، أرفرف عاليا بجناحين أو أكثر. الكذب يجعل لنا أجنحة وألسنة وقصورا ومراكب ولغات وأوطان ورجال.

اسمي الحقيقي زبيدة وكان أبي، رحمه الله وهو واحد من المليون ونصف المليون من شهداء الثورة التحريرية الجزائرية المباركة، يفضل أن يدعوني باسم فاطمة أو فاطمة الزهراء. عرفت فيما بعد بأن فاطمة هي بنت الرسول عليه الصلوات والسلام وأنها أنجبت الحسن والحسين من جنبها وليس من المكان الذي خرجنا منه جميعا.

أمي لم يكن يهمها كل هذا التقديس الذي يعشعش في رأس والدي، لذا كانت مصرة على مناداتي باسم غريب هو «مولاة السالف الطويل». لم يستطع أحد أن يفهم لماذا كانت أمي مصرة على هذا الاسم الطويل الذي لا معنى له. الحقيقة أنه لم يكن لي سالف طويل بل كان لي لسان طويل.

لم تكن تهمني كثيرا هذه الأسماء أو التسميات.

أمي طول حياتها كانت مصرة ومستعجلة على زواجي من أول طارق يدق باب بيتنا ولو كان قاطع طرق، لذا زوجتني مباشرة بالقائد بعد أول دم أخافني، نزل مني، وأنا لم أتجاوز الثالثة عشرة سنة.

كل ما يهمني الآن هو قصة إسحاق أو عبدالله بن كرامة والتي روى لي جزءا منها متقطعا ما بين الوسادة وقبو تخزين النبيذ الذي ورثناه من المستعمر في هذه الفيللا الكولونيالية وأما الجزء الآخر فقد صنعته كما تصنع نهايات للحب أو لمن نحب:

أنا عبد الله بن كرامة ولدت قبل انطلاق زئير الثورة بثلاث سنوات ونصف السنة بالحساب الإسلامي والغريغوري–اليوناني وكأنما كنت أترقب الرصاص الملعلع من داخل رحم أمي كي أخرج مبكرا قليلا. ولدتني أمي كجرو الذئبة سريعا في قريتنا أربوز عند قدم جبل عظيم اسمه زندل. وجبل زندل هذا مكان يحج إليه سنويا أهل الشمال والجنوب، يوجد على الحدود الغربية لبلاد الجزائر.

أمي كانت تعشق أبي وتزوجته وهي التي تعلمت مهنة التمريض عند الفرنسيس من الراهبات المسيحيات الطيبات. أما أبي فكان نقابيا لا يخرج من سجن حتى يعود إلى آخر. لم يكن الزواج ليعمر رأسه، أفكار الثورة والتغيير والجزائر هي التي كانت تسكنه.

كان أول من التحق بالثورة في منطقتنا ولم يكن ذلك بغريب عن ناس المنطقة فرأسه ساخنة وقلبه مع العدالة ودماغه في الكتب.

ولأن أمي كانت تحبه فقد سحبتني من يدي ذات يوم وتبعته كالكلبة الطارد حتى رأس الجبل، لم تكن الثورة تهمها ولم يكن يهمها سوى والدي ولون عينيه الزرقاوين. أبي بسحره وفحولته هو الذي سرقها من البيت والهدوء لتلتحق به في الصعاب والشعاب وعواء الذئاب.

بمجرد أن وصلت أمي الجبل وأنا ملتصق بها كالجعران، وهي الجميلة الرقيقة والمتعلمة قليلا، وضع الكثيرون من المجاهدين

عيونهم عليها. كانت مثيرة، جذابة ومثقفة أيضا. تعرف الكتابة والقراءة باللغتين العربية والفرنسية وتتكلم الإسبانية جيدا وتعرف أسماء الممثلين السينمائيين الفرنسيين وبعض المصريين أيضا.

كان على أبي الذي يقضي جل وقت نهاراته بين قراءة الصحف وبعض الكتب والمخطوطات التي أكلت ضوء عينيه وانتظار تنفيذ عمليات عسكرية، كان عليه أن يحسم الموقف أمام رفاق السلاح جميعا، أمام هذه العشرات من العيون الجائعة التي تريد أن تأكل لحم أمي حيا، كان عليه أن يفصح عن حبه لها كي يغلق الطريق أمام الجميع. كانت أمي جميلة كأنما صنعت لبلاطوهات السينما لا للثورة على رؤوس الجبال. كانت قادرة أن تثير انتباه الجميع. لا تمر بصمت أو لا مبالاة، أينما تمر إلا وتترك خلفها العاصفة والزوبعة.

قائد الكتيبة السي مولود أو نويل، كما كان يسميه الجميع، رمى صنارته عليها، منذ الساعات الأولى التي وصلت فيها أمي إلى الجبل بصحبة أحد المسبلين محملة بكمية كبيرة من الأوراق والمئونة والأدوية التي سرقتها من مستوصف الراهبات وبتواطئ من بعضهن حيث كانت تشتغل وجهاز راديو من نوع بلغاري جيد، بقوة إلتقاط جيدة،، من لحظتها سكنته الغيرة وقفز إلى رأسه الوسواس الخناس وشرع على الفور في ترتيب فصول مؤامرة لإبعاد والدي من موقع الجبهة هذا ومحاولة الاستفراد بها.

كان والدي جامعيا، قضى سنتين في الكلية قبل أن يترك المدرج والمظاهرات الطلابية التي كا يقودها ويلتحق بالجبل. كان طالب طب ولكن قلبه كان للأدب والسياسة والاقتصاد. يحب سارتر ويكره

كامو، كان يحفظ عن ظهر قلب كثيرا من قصائد بول إلوار ولوي أراغون، لم ينه سنوات الجامعة ولم يكن يرغب في ذلك إذ أمره التنظيم الطلابي التابع للجبهة بمغادرة المدينة بعد أن وصله خبر مفاده أن سلطات الاحتلال تبحث عن سبب، أي سبب، لاعتقاله.

كان أبي، كما تحكي جدتي التي ماتت، وهي على قطيعة مع أمي، يوم إطلاق اسمه على الشارع الرئيسي في مدينة وهران، سبق ذلك ببعض الوقت على الانقلاب الذي أطاح بالرئيس أحمد بن بلة والذي قاده رئيس أركان جيشه ووزير الدفاع العقيد هواري بومدين.

كان والدي معجبا بجد له اسمه محمود الأطرش هاجر ذات زمن إلى القدس مع من هاجروا هروبا من الجوع والجور ليؤسس هناك لاحقا الحزب الشيوعي الفلسطيني ويكون أحد أكبر المناضلين من أجل استقلال فلسطين. كان أبي قد شرع في كتابة مؤلف عن محمود الأطرش. كان يقول عنه إنه يشبه أب الوطنية الجزائرية مصالي الحاج. كان والدي يشبه دائما مصالي الحاج في طلعته المدهشة بلحية ولباسه التقليدي وثقته في نفسه وإيمانه بالعدالة بالرسول (ص)، كان يقول: لا يكون مصالي الحاج بهذا السحر وهذه الجاذبية إلا على صورة الرسول (ص):

وهذه صورته



كان أبي سعيدا وقلقا بوصول أمي بكل جمالها وعطرها وخوفها ووفائها إلى الجبل ولكنه كان حزينا ومرتبكا في الوقت نفسه إذ قرأ منذ اللحظات الأولى علامات الزوبعة بادية على عيون القائد الذي لم يكن يعرف إلا قليلا من كتاب الله حفظا ولم يكن يقرأ باللغة الأجنبية حيث كان في كل مرة يعود فيها إلى والدي لمساعدته في قراءة الجرائد وترجمة الأخبار الواردة من إذاعة العدو التي تبث بالفرنسية وكتابة الرسائل والتقارير إلى القيادات العليا في تنظيم الثورة. كان والدي يقضي نهاره في قراءة كتب التاريخ والاقتصاد والشعر وروايات «الحرب والسلم» لتولستوي و«الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي و«الأم» لغوركي، مع أنه كان يقرأ العربية بشهية لم يكن يحب المتنبي كان يرى فيه شاعر ومثقف السلطان والولاء والنفاق والعتبة.

كانت أمي معجبة بوالدي حد العبادة. وكان الآخرون من أفراد الكتيبة يكنون له الاحترام والتقدير.

وكنت أغار، إذ بمجرد وجود والدي تهملني أمي وتتساني كمتاع غير صالح.

بدأت الغيرة تنخر قلب القائد الذي كان يعاني من حساسية الإكزيما في يديه، فيقضي ليله في فرك يديه وإليته ودهنها بزيت الزيتون وشحم الجمال وغسلها بالصابون العربي الذي يقال إنه يأتيه من قرية بني يني ببلاد القبائل أو من حلب الشام.

لم يطل الأمر بالقائد وقد غشيته الغيرة فأعمت بصره حتى أمر بنقل والدي للعمل بإذاعة الثورة في مدينة الناظور الحدودية. والناظور هذه مدينة على الحدود الجزائرية المغربية كانت الثورة قد

أقامت بها محطة إرسال إذاعية متنقلة تتابع وقائع يوميات الجبهة على الحدود وفي القواعد الخلفية وأخبار الثوار من الشهداء، ما كان على والدي أن يرفض أو يتردد فالثورة فوق الجميع وأوامرها لا تناقش. أوامر الثورة تنفذ وفقط. في تلك الليلة وقبل بزوغ أول شعاع الفجر بكى والدي بكاء الطفل قبل أن يتركنا أمي وأنا على رأس جبل زندل بين هذه المجموعة من المفترسين.

هكذا وجدت أمي نفسها وحيدة، محاطة بعيون كثيرة نهمة وبعيون أخرى رحيمة.

بعد شهر من نقل والدي، بدأنا نستمع إلى صوته يجيئنا على أمواج إذاعة الثورة وكانت تبكي إذ تسمع بحة الصوت تلك، ولكنها كانت تقاوم ضعفها ووحدتها وخوفها وتؤدي نداء الثورة.

ككل مساء كان الجميع يتحلق حول جهاز الراديو للاستماع إلى تفاصيل بطولات الثوار. كانوا يستمعون إلى أخبار تتحدث عن معارك خاضوها وأخرى ما خاضوها، عن بطولات خارقة على رؤوس الجبال وفي السهول والمدن والجميع يقضي ضوء النهار تحت شجر البلوط يشوي لحم القنافذ تارة والأرانب البرية تارة أخرى ويتقاسم انتظار اليوم الموالي.

كانت الإذاعة هي الوسيلة الوحيدة التي تفتح العالم أمام الجميع، وكانت أمي ترحل بعيدا بعيدا وهي تسمع صوت والدي على أمواج إذاعة الثورة متحدثا تارة بالعربية وتارة أخرى بالفرنسية، كانت تعرف جيدا أن صوته هو رسالته إليها هي أولا، لأن الثورة امرأة يحبها الثوار ويعشقونها. كانت تخفي أحاسيسها وتنتظر بفارغ الصبر ساعة البث، ساعة الموعد، الجميع،ها هنا،يتلصص على جمالها

وفتنتها وانضباطها وهي تقوم بما يطلب منها في إسعاف المدنيين أو الثوار من الجرحى أو توصيل الرسائل إلى القرى المجاورة بالتنسيق مع بعض الراهبات اللواتي اخترن الأنحياز للعدل والإنسان. كان بعضهم ينظر إليها ويمصمص جسدها الرقيق ويشتهيها وكان الآخر يقدرها ويضعها في مرتبة الأمهات.

بعد ثلاثة أسابيع من نقل والدي، فاجأتها رغبة القيء ذاك الصباح، جاءها الغثيان على حين غرة وشعرت ببطنها يتحرك، والدنيا في عينيها تحركت، لحظتها أدركت أن أبي قد زرع في أحشائها قبل أن ينقل وفي تلك الليلة الأخيرة شيئا ما.

لقد كان ذاك الزرع هو أخي الأصغرالذي لم تعطه الحياة عمرا أكثر من بضعة أيام بعد ولادته، فقدر لي أن أعيش وحيدا.

رئيس الكتيبة يقرأ رسائل مسئوليه الكبار ويتلصص على حركات أمي. لم تكن أمي لتنتبه إلى ذلك القائد الذي يخشاه الجميع. كان قاسيا غير رحيم بأفراد كتيبته، كانت تدرك أن في عينيه نهم وأنه يريد أن يأكل جسدها في أية لحظة.

كان القائد يراقب بطن أمي وهو يكبر ويكبر في قلبه حقد ضد ذاك الذي زرع في أحشائها ما زرع، وحين أدرك أن أمي كانت تنتظر بشغف موعد صوت والدي على أمواج إذاعة الثورة كي تسمعه. كانت وهي تستمع إليه تقبض على بطنها كأنما تمارس معه جنونها العالي، صوت والدي ذو البحة الخاصة وهو يقرأ أخبار بطولات حقيقية وأخرى وهمية بغرض تشجيع الثوار، يثير في القائد غيرة كبيرة.

وكان عليه أن يدبر مكيدة له.

لم يطل الأمر بقائد الكتيبة إذ بعث إلى مسئول الإذاعة بالناظور يطلب منه إرسال صحفي لتغطية عملية يحضر لها المجاهدون ضد مزرعة لمعمر إسباني عميل، وفي رسالته، أبدى رغبته في أن يكون المرسل إليهم هو أبي وقد برر ذلك بأنها فرصة لزيارة زوجته وابنه، وهذا موقف إنساني وثوري.

وحين عرف قائد الكتيبة بموافقة القيادة على تعيين أبي لتغطية الحدث البطولي أخبر أمي بذلك، كانت في شهرها السادس، طارت فرحا وتجملت وظلت تنتظر حبيبها، اليوم إثر اليوم والأسبوع بعد الآخر، من سقوط أول شعاع شمس إلى ظهور أول ضوء فجر.

وبعد أيام نزل والدي على رفاقه في جبل زندل، كان فرحا وفي الوقت نفسه كان يخفي قلقا معينا.

احتفلوا به كثيرا وكانوا صادقين.

ولكن المؤامرة كانت قد حيكت خيوطها باتقان.

كانت أوامر القائد واضحة هو تصفية المعمر ولكن قبل ذلك وفي غمرة الهجوم يجب تصفية أبي وقد قرر أن يتولى العملية بنفسه حتى لا يفتضح أمره ويكتشف سره.

وفي اليوم التالي وقد حضر الهجوم بشكل دقيق وتمت العملية كما كان مخططا لها. إذ تم اغتيال المعمر الإسباني وحرق مزرعته بالكامل وفي الوقت نفسه تمت تصفية والدي ويلقى بجسده في أتون النار التي كانت تلتهم بيادر التبن وحطب الوقود ومخازن المازوت.

عادوا فجرا من العملية ولم يعد والدي وانتظرت أمي ولكنها أدركت أن الأمر قد قضي.

انزوت أمي في ركن ولم تنبس بكلمة. صامت عن الكلام. وقاطعت الجميع.

وفي المساء التالي أعلنت إذاعة الجبهة من الناظور أن العملية التي دبرتها كتيبة زندل قد نجحت وأن الثوار قضوا على المعمر الذي تجبر والذي جعل من بيته مقرا عسكريا لجنود الاحتلال وأن الثوار غنموا أسلحة وعتادا ولكنهم في الوقت نفسه فقدوا شهيدا تركوه خلفهم في المعركة.

كان الشهيد والدي.

حزنت أمي كثيرا وجمعت ما تبقى من والدي: بعض أوراق وكتب ونظارة وجرائد قديمة.

في اليوم التالي صلوا عليه صلاة الغائب، وساروا بعيدا عن مقر الكتيبة وحفروا له قبرا ودفنوا فيه بعض أغراضه وسموه قبر الشهيد.

خلا الجو لقائد الكتيبة، فبدا يراوغ أمي تارة ويهددها تارة أخرى ولم يطل به الوقت إذ أفصح لها بأنه أولى الجميع بها.

ولم يطل الوقت، خوفا أو حبا، استجابت إليه، فساقها إلى فراشه. وقرئت فاتحة الكتاب الكريم، وتم طي صفحة والدي.

وأصبحت أنا جرو الجبل أو الغابة.

الفصل الثاني

جرو الجبل

ورفعت الحرب أوزارها.

ونزل المجاهدون من رؤوس الجبال فرحين بانتصار الثورة. وعادت أمي مع العائدين تسحبني من يدي سحبا. كنت أبلغ من العمر سبع سنوات تقريبا.

كانت أمي فرحة بالانتصار وكأنما الناس جميعا في حفل أو عيد. كنت حزينا لأنني ما كنت أعرف أين سنذهب وقد ضاع أبي. لكن أمي قد نسيت والدي وهي الآن بين يدي هذا القائد الذي مال قلبها له فسلمت نفسها إليه بعد ممانعة لم تدم سوى بعض الوقت.

كانت تريد أن تقنعني بأن هذا القائد هو والدي. ولم أكن أصدق. كنت أرفض ذلك وأعتبر الرجل قد سرق مني والدي ثم أمي لاحقا.

ونزلنا من الجبل ودخلنا مدينة وهران على متن شاحنات عسكرية، كانت المدينة جميلة ونظيفة وغامضة. غالبية الأوروبيين غادروا المدينة تاركين بيوتهم وفيلاتهم وأشياءهم، هربوا بما خف حمله من جحيم عناصر اليد الحمراء.

لم يطل بنا البحث عن مسكن إذ وجدنا فيلا جميلة في حي فيكتور هيغو الراقي، لم يبق فيه من الأوروبيين أحد. كانت الفيلا التي دخلناها مجهزة بكل شيء، ترك كل شيء في مكانه وكأنما أهلها خرجوا منها ليعودوا بعد ساعة أو أقل. حتى السيارة تركوها في المرآب بمفاتيحها.

كنت سعيدا أو كنت حزينا لست أدري؟
كانت الغرفة التي اتخذتها لي أمي مقاما، واسعة مطلة على حديقة مرتبة بشكل هائل.
دهشت، أناجرو الجبل، ومثلي اندهشت أمي لهذا البيت الجميل.
بالبيت وجدنا مكتبة عامرة تغطي جدران غرفة كاملة وتملأ البهو الرئيسي أيضا. آلاف الكتب والمجلات باللغة الفرنسية وبعضها قليل بالعربية مما يؤكد بأن صاحب المسكن كان مثقفا أو سياسيا وأنه كان إلى جانب اللغة الفرنسية يقرأ بالعربية.
كنت أقضي الساعات أمام هذه الصفوف من الكتب، أدقق في عناوينها وأمسح ما سقط عليها من غبار. أناجرو الجبل.
في البداية باسم محاربة فضلات الإستعمار قرر القائد حرق هذه الكتب على آخرها لكنه وفي غمرة الأحداث المتواترة والصراع على السلطة سنوات الاستقلال الأولى فقد نسيها أو عدل عن ذلك ولم تصبح المكتبة هما يشغله.
ثلاثة أشياء أحببتها في هذا البيت المكتبة والقبو المخصص لحفظ وتعتيق الأنبذة والحديقة.
في الشارع الناس لا تتحدث سوى عن الشهداء والمختفين والصراعات الجهوية والعرقية التي بدأت تظهر هنا وهناك ومؤامرات السياسيين بعضهم ضد بعض والصراع بين العسكر من جهة وأهل السياسة من جهة ثانية.
ما أن سكت الرصاص ضد فرنسا الاستعمارية حتى دخلت البلاد في حرب أخرى مع جيراننا المغاربة. حرب الحدود وتقاتل

الإخوة وسفك مزيد من الدماء.

العالم يتحالف مع ثورة الجزائرية المضفرة ضد المغرب الذي أراد استغلال الفرصة لفرض أمر واقع في الحدود. جمال عبد الناصر يندد بتآمر الأخ على الأخ.

حرب الحدود الغربية لم تطل، بتحالف عربي ودولي تم إسكاتها.

القائد الذي خطف أمي من حضن والدي ذات حرب، والحرب حربان، انتظر طويلا لكي يرزقه الله ذرية ولكن السماء لم تستجب. لذا قرر أن يتزوج من امرأة ثانية علها تمنحه بهجة الأطفال ونعمة الخلف الصالح فيمتلئ بيته بالبنين والبنات وتلك زينة الدنيا.

كانت أمي حزينة مطفأة يوم جيء بتلك المرأة الغريبة التي أصبحت بين عشية وضحاها الحاكمة بأمرها في البيت. كانت إحدى قريباته التي لم يتجاوز عمرها العشرين سنة والتي فقدت خطيبها شهيدا في معركة جبل عصفور وهي واحدة من أكبر المعارك في الغرب الجزائري.

أغلقت أمي على نفسها الغرفة وحيدة مدة سنة ونصف، لم تكلم فيها القائد، ولم تتقابل مع ضرتها ولم تبادلها التحية.

أما أنا جرو الجبل فقد كنت فرحا لمجيء هذه المرأة لأن بتخطيها عتبة باب دارنا استرجعت أمي كاملة.

صامت أمي عن الكلام إلا معي. بعد سجنها الإفرادي الطوعي الذي دام ثمانية عشر شهرا انتقلت لتقاسمني غرفتي. كنا ننام على سرير واحد وكانت تقضي الليل باكية وهي تهذي هذيان عن والدي وعن مشاركتها القائد في الاغتيال بل إنها كانت هي صاحبة فكرة

الإتيان به إلى جبل زندل بحجة تغطية الهجوم ومن ثمة الإجهاز عليه.

كنت آخذها بين ذراعي وأقبلها وأقول لها «أنت أمي»، أنت لا تقتلين. الأم لا تسفح دما ولا تؤذي ذبابة.

بعد شهورمن عسل قضاها القائد في حضن زوجته الثانية جاءت أيام الحنظل.

انتظر القائد السي مولود أو نويل أن تمنحه زوجته الجديدة ذرية لكن اللأمل تلاشى.

وانتظرت المرأة أيضا أن ينتفخ بطنها ذات يوم فلم ينتفخ وزارت أضرحة الأولياء الصالحين والأطباء والسحرة وأكلت ما لا يخطر على بال: لحم القنفذ والذباب الهندي الأزرق والضب الصحراوي الذي عمره سبع ليال وشربت بول الحمارة ودم الثعلب وحليب التيس واستحمت في حمامات كثيرة ونامت تحت قبة أضرحة كثيرة في الشتاء وفي الصيف والربيع أيضا ولكن السماء لم تستجب ولم تمطر أطفالا ولا بنات. وبعد أن تبدد حلمها في الأمومة قررت أن تنسحب في هدوء وهزيمة دون أن تخبر أحدا بما في ذلك زوجها السي مولود أونويل. على حين غرة جاء أحد أفراد عائلتها، في غياب القائد، وأخذ كل ما وقعت يده عليه من أثاث وأغراض وألبسة وصحب المرأة ورحل. لم ترد أمي أن تتدخل. كانت تحتضنني وتقبلني وتقول هزمت الكلبة ها هي ترحل وذيلها بين فخذيها.

لم يحزن السي مولود على ذهابها. عاد ذاك المساء دار الغرف التي فرغتها من كل أثاث ثم ابتسم قائلا: كله يعوض.

أقسمت أمي ألا تكلمه وأن تظل على موقفها مقاطعة له وسعيدة بسريرنا المشترك.

حاول السي مولود الاعتذار وطلب الصلح إلا أن أمي أقسمت برأسي وبرأس أبيها الذي توفي على أعتاب قبر النبي في حجته السادسة، لم يتحقق حلمه في حجة سابعة لكنه تحقق في موت بالأرض المباركة التي مشى عليه الرسول عليه السلام، أقسمت بالسبع ألا تنام في سريره لقد خانها وخدعها مع مراهقة عينها على المال والأثاث.

في هزيمته أمام أمي كان سي مولود يقضي لياليه عند عتبة غرفتي التي أتقاسمها مع أمي، باكيا مكررا طلب السماح والعفو مذكرا أمي بأيام الجبل وما كان فيها من هول وموت وأحلام.

كانت أمي حنونة، غير قادرة على الإيذاء، لقد أثار فيها وضع السي مولود الحزن والألم فاستجابت لبكائه. وهكذا لم يمض أسبوعان على رحيل الزوجة الثانية حتى عادت أمي إلى سريرها الزوجي.

وعدت أنا إلى فراشي وحيدا كالفأر الصغير. في غياب أمي عن سريري شعرت بالغرفة دون رائحة جسدها وكأنها محيط أو صحراء واسعة ومخيفة. كانت الغرفة كالربع الخالي.

في وحدتي القاتلة بدأت تسكنني غيرة غريبة. أن يخطف هذا الرجل أمي من بين أحضاني بعد أن سرقها من حضن والدي. إن أمي ملك لي وحدي بعد أن استشهد والدي وخانها هذا الرجل بأن تزوج عليها. كنت أريدها لي ولي وحدي. وكم مرة سكنتني فكرة اغتيال هذا الزوج الخائن.

الأمهات لا تخن ولا تخن. وها هي أمي تخان من قبل هذا الزوج وهاهي تخونني مع هذا القائد الخائن.

حين شعر القائد بغرابة تصرفي تجاهه وتجاه أمي اتخذ على الفور قرارا دون أن يستشيرني أو يستشير في الأمر أمي. إذ نقلني إلى القسم الداخلي في المدرسة، وهكذا أصبحت أقضي أيام الأسبوع باستثناء يوم السبت مساء ويوم الأحد في المدرسة.

على الرغم من أن هذه المدرسة بنظامها الداخلي كانت سجنا حقيقيا إلا أنني شعرت فيها بتحرر من حالة الخيانة التي كنت أعيشها. كان النظام الصارم المطبق فيها يشبه النظام العسكري وكنت سعيدا إذ تخلصت من هذا الوضع الكابوسي الذي بدأ يخنقني.

في الليلة الأولى التي قضيتها في سريري بالقسم الداخلي مارست ولأول مرة العادة السرية ونمت مستريحا كالملائكة. ومن يومها كلما شعرت بضيق أو برغبة الانتقام من أمي ولها أمارس العملية السرية وأنام.

في القسم الداخلي تعرفت على مجموعة من الفتيان القادمين من الضواحي، أغلبهم كانوا أبناء الشهداء، بسرعة بنينا علاقة متينة وشكلنا عصابة في المدرسة.

كنت أنا جرو الجبل رئيس هذه العصابة، دون نقاش سلم لي الشياطين بالإجماع مقاليد الرياسة.

كنا نقفز ليلا من على الحائط–السياج الذي يحوط المدرسة لننزل إلى المدينة ندخل صالات السينما نغازل النساء الجميلات

المكلفات بإجلاس الجمهور كل في مكانه حسب ترقيم التذاكر، كنا نسميهن les placeuses ونتفرج على الأفلام الهندية المثيرة والأفلام المصرية الغنائية التي كانت تملأ أفيشاتها الواجهات بصوركبيرة لعبد الحليم حافظ وشادية وفاتن حمام ومحمود المليجي وكانت السينما الفرنسية تغرينا بأفلام أجمل ما يثيرنا فيها حرارة تبادل القبل بين الممثلين والممثلات من أمثال ألان دولون وبلموندو وإيرين باباس وكاترين دونوف وغيرهم.

وكنا بعد خروجنا من قاعة السينما نذهب مباشرة للتفرج على العاهرات في ماخور المدينة لنستمتع بليالي حفلات الفلكلور التي تقام كل يوم حتى آخر الليل، كان الزبائن والمقيمات من النساء الجميلات بكل الأعمار والموسيقيون يجتمعون في باحة الماخورالشهير «اللاك دوك» غير بعيد من البناية العتيقة لأوبرا المدينة بسرب حوريات من مرمر مجنحات منصوبات على واجهتها الفنية الرائعة.

كانت المدرسة الداخلية هي عالمي الحقيقي الذي منه بدأت أكتشف الآخر وأتخلص شيئا فشيئا من رائحة جسد أمي.

وهكذا ما عدت أستعجل أو حتى أفكر في العودة إلى الدارفي عطلة نهاية الأسبوع، كنت أجد في عصابة أصدقاء الداخلية عالما جميلا. وهكذا ساعدتني الأفلام والتفرج على نساء الماخور على مقاطعة الأسرة والتخلص منها.

أنا جرو الجبل.

أصبحت لا أعود إلى البيت إلا مرة واحدة في الشهر أو الشهرين وقد يزيد، لا يهم، هذه المرة فوجئت إذ وجدت حركة غير عادية في

الفيللا التي بدأت تظهر عليها علامة الإهمال والتهاوي، فالحديقة التي كانت جنة أصبحت خرابا ويباسا ولم تقلم أشجارها ولم تعشب نباتاتها المتوحشة فأضحت في فوضى بادية. دخلت وإذا بأمي وقد بدا على وجهها تعب وافترستها الشيخوخة المبكرة وقد بدأ ظهرها يتقوس قليلا قليلا، قبلتني بحرارة وكأنما أرادت أن تعتذر عن ذنب اقترفته إذ وافقت على إلقائي في مدرسة بنظام داخلي. لكني تجاهلت الأمر وحاولت أن أبين لها بأنني سعيد حيث أنا، ثم دخلت غرفتي التي وجدتها كما تركتها منذ ثلاثة أشهر تقريبا. لا شيء تغير. لحقت بي أمي في الغرفة وهي تسألني إذا ما كنت أريد قهوة أو شايا. لم أرد عليها وقد شعرت بأن شيئا ما تغير في هذا البيت. إن أمرا جديدا حصل. سمعت حديثا وأصواتا كثيرة تشبه الجلبة تأتي من الحديقة ومن غرفة القائد، أصوات نساء وأطفال.

قالت أمي دون أن أسألها:

«إن القائد قد تزوج مرة أخرى، قال يجرب حظه مرة أخرى في طلب السماء ذرية نافعة».

وسكتت.

أنا جرو الجبل.

انطفأت.

رماد.

لم يكن في حديثها ما يوحي بالحزن أو الرفض أوالاستنكار. استدرت كدت أن أصرخ فيها لكنني تراجعت إذ وجدتها هادئة بملامح غير نافرة ولا غاضبة.

وشعرت بسرور في داخلي لأنها لم تكن حزينة على فعلته هذه. إنها تمكنت أخيرا من أن تضع مسافة يبنها وبينه.

«خرف الشيوخ». قالت مبتسمة.

دخلت الحمام تقيأت ما كان ببطني، أحسست براحة عميقة. شربت القهوة المفلفلة وأمي تقابلني صامتة. لم تسألني كعادتها عن دراستي ولا عن أصدقائي. كانت قهوتها هي هي. أمي سلطانة صناع القهوة.

وإذ أنا أحتسي قهوتي صامتا وإذا بفتاة في عمري أو أكبر بقليل تقطع فناء الدار. رفعت أمي رأسها نحوي ثم قالت:

«هذه هي القادمة، الزوجة الجديدة».

دخلت علينا دون استئذان، سلمت علي بحرارة زائدة وابتسامة عريضة. وطلبت من أمي أن تصب لها فنجان قهوة واتخذت لها مكانا بيني وبين أمي. وأخذت تتحدث عن أنها هي الأخرى دخلت المدرسة وأنها حتى وإن قاطعتها للزواج إلا أنها تعرف القراءة والكتابة وتحب أغاني عبد الحليم حافظ وأم كلثوم وجاك بريل وشارل أزنفور، وأن

معلمها العراقي كات يحبها وأنه وعدها بالزواج.

كانت المرأة الشابة مبتسمة قادمة إلى الحياة بعنف تقضم تفاحة الدنيا بقوة. لم أتكلم، كنت أنظر إلى حركات شفتيها وهي تتكلم وقد راودني في الحين ذئب الانتقام.

لماذا ذكرتني هذه الزوجة الجديدة بحركاتها وعفويتها وجرأتها وضحكتها بفتيات ماخور اللاك دوك الجميلات والوديعات؟

لست أدري.
كانت أمي تراقب نظراتي التي لم تنزل من على جسد القادمة الجديدة وكأنما كانت تشجع الذئب في على الهيجان أكثر فأكثر.
عرفت من أمي أن اسمها زبيدة. وأن القائد أراد أن يجرب حظه للمرة الثالثة بحثا عن ذرية.
منذ أن جاء بها إلى البيت زوجة لم يغادر القائد غرفة النوم، كان لا يتناول حسب شهادة أمي سوى عسل ملكة النحل والحليب الرائب واللوز وخبز فتير بزيت الزيتون.
حين صادفته، في اليوم التالي، خارجا من الحمام شعرت بأن جسده تهاوى وأنه قد بدأ يخونه الخيانة الكبرى، سلمت عليه ولم أستطع أن أرفع رأسي تجاهه، ثم تحاشيت الحديث معه.
في تلك اللحظة قررت أن أنتقم لأمي.
هذه المرة لن أتأخر في المدرسة الداخلية، قلت في نفسي.
على غير عادتي استعجلت عطلة نهاية الأسبوع، وهو ما أثار حيرة واستغراب عناصر العصابة، وجاءت العطلة وأسرعت الخطو إلى الدار. كنت متلهفا أن ألتقي القادمة الجديدة التي تشبه عاهرات ماخور الاك دوك الشهير وتحب معلمها العراقي.
تشممت رائحتي قبل أن أتشمم رائحتها. وإذ تيقنت من أن القائد غادر البيت، بدأت الصيد. كنت أنصب لها وأتحين اللحظة كي ألقاها عاري الصدر وهي داخلة من الحديقة. أنتظر دخولها المطبخ فأتبعها كي أحضر كوب ماء. منذ اللحظات الأولى شعرت زبيدة بأن الذئب مستيقظ في. وكأنما هي الأخرى كانت تتحين حركاتي

كي تقابلني في هذا الركن أو ذاك، ومنذ اليوم الأول أدركت أنا الآخر أن ذئبها قد استيقظ أو على وشك من ذلك. أما أمي فقد بدأت تستشعر عطر الخطيئة يعبق من غرفتي تارة ومن غرفة القائد تارة أخرى. كانت فرحة ومهللة لهذا العطر.

كانت أمي ترغب في أن تورطنا أكثر في مغامرة مفتوحة، كان ذلك عشية بداية أيام شهر رمضان المبارك.

في مثل هذا الشهرالكريم تتغير حركة الشارع وتتقلب عادات الناس رأسا على عقب. يتغير مزاج الأفراد وتعظم اللهفة والجري وراء الاستهلاك.

هذا اليوم هو الأول من أيام رمضان المعظم. استيقظت متأخرا، تكاسلت درت في السرير وما استطعت أن أغادره. كان الراديو يرسل نشرة أخبار ثم أغنية دينية رتيبة. ثم حصة عن تحضير أكلة رمضانية سخيفة.

من على سريري تنائى إلي صوت أمي وهي تتحدث إلى زبيدة حديثا فيه كثير من المودة والارتياح، وكأنهما ليستا ضرتين. كانتا تضحكان ضحكات طفولة مفعمة بالعفوية وكأنهما تتآمران على شيء ما. شعرت هكذا وكأنهما تتآمران على جرو الجبل. وأنا أتقلب في السرير تحت الشرشف الوردي تعبق منه رائحة صابون معطر فتهيجني، قبلت المؤامرة وذهبت فيها.

كعادته في رمضان، كان القائد بعد الإفطار يخرج لأداء صلاة التراويح ولا يعود إلا ساعة السحور.

أنا لا أحب جو رمضان. في هذا الشهر أختلي بنفسي أقرأ

الروايات الجريئة لألبرتو مورافيا وأستمع إلى الموسيقى الأندلسية التي تعيدنا إلى ذكريات عرب غاربة كانت في أندلس مشهية.

أشرب القهوة خفية في النهار وأقرأ الروايات الوقحة وأنتظر بداية الفصل الأول من المؤامرة الرائعة.

كعادتها، بعد ساعة العشاء، دخلت علي أمي حاملة صينية عليها ثلاثة فناجين قهوة من قهوتها المفلفلة المغلية على نار هادئة غير غادرة ولا غدارة. لم تتأخر زبيدة حتى التحقت بها، كانت طفلة صغيرة مشهية وحارة. طويت كتاب ألبيرتو مورافيا ونظرت إليه بين يدي فوجدته باردا أمام نار فتنة الغواية التي تصليني بها زبيدة تحت نظرات أمي المليئة بالتوريط.

اتخذت زبيدة مكانا لها وقد أحضرت بين يديها صحن حلوى الشامية مرشوش بكثير من الفستق الهروش دفعت به إلي قائلة:

تفضل حتى تقرأ جيدا وتحفظ الدرس، الفستق يزيد من الذكاء.

ابتسمت لها وتناولت منها صحن الحلوى بالفستق. لكني كنت غارقا في عطرها الذي غمر الغرفة، عطر لا يشبهه عطر. وأمي قبالتي تراقبني بعين فيها ثعلب التوريط.

مكبرات الصوت على منارات مساجد الحي والأنحاء ترسل ترتيل كتاب الله المجيد في قراءات مغاربية أو شرقية. والناس خشوع في شهر كريم، وأنا أقابل الغريبة على حافة الخطيئة انتقاما لوالدي.

لم أكن أتتبع ولا حتى أسمع ما كانت تقوله أمي وهي تسرد لست أدري بأية مناسبة قصة أمها التي كانت ترغب أن تموت في شهر رمضان، في ليلة القدر وعند قبر النبي العربي فكان لها ما أرادت.

مع أن أمي كانت تشكك في حكاية موت جدتي، أي أمها، في الحج، بل كانت دائما تعتقد أنها وجدت رجلا وهي التي ترملت في عمر الثلاثين، وجدته فغامرت معه نحو جبال طورا بورا بأفغانستان. وأنها ماتت عند قدمي أيقونة بوذية ولكنها كانت سعيدة لأن الرسول العربي هو الذي منحها فرصة التعرف على هذا الذي خطفها إلى آخر الدنيا أو بدئها.

أعرف أن أمي كانت تقول أي شيء، كانت تكذب كي توقظ في زبيدة شجاعة الوقاحة. لم ترفع زبيدة عينيها من علي، ولم أرفع عيني من على سالفها المسدول خلف ظهرها وخصلتها النازلة بغواية فوق جبينها الناصع.

شعرت بأن أمي تريد أن تنسحب لتتركنا لبعضنا البعض. العين في العين. اللذة تسيل كما العسل البري، عسل نحل السدرة، الليل لايزال في أوله والقائد لا يعود قبل صلاة الفجر. وهو الذي مع كل شهر رمضان يتوقف عن شرب الخمرة المعتقة التي تركها المعمر في القبو الفني المجهز لذلك منتظرا ثالث يوم عيد حيث يستعيد بهجة الشرب.

لم أنتبه كيف انسحبت أمي بعد أن جهزت لنا السرير كما يجب. نظرت إلى زبيدة، قلت في نفسي هذه هي فرصتك أيها الحقير يا جرو الجبل كي تنتقم لأبيك من هذا الذي سرق أمك واغتال حلمك.

حين شعرت بأن مصباح الرواق انطفأ بشكل آلي غادرت الأريكة التي كنت أجلس عليها، وتمددت على السرير، مثلي فعلت زبيدة، ها هي بجواري كالقطة تبدو أصغر مني بكثير. لا تزال تعبق منها رائحة الطفولة وغبار الملاعب المتربة وانتظار معلمها

العراقي البصري يجيء ليخطفها ويرحل بها فيغسل رجليها بماء دجلة والفرات.

عانقتها، كان جسدها فائرا. الليل لا يزال بأوله وليل رمضان من أطول الليالي، ومكبرات الصوت المنصوبة على منارات الجوامع لا تزال ترسل من علوها آيات الذكر الحكيم.

لكم أحب قراءة القرآن الكريم. كلما استمعت إلى هذه القراءات يتشوك لحمي وتتصاعد من جسدي نار غريبة حارقة.

وهذا جسد زبيدة يرسل عطرا ويفوح غواية.

أعرف أن أمي جالسة عند عتبة الغرفة المقابلة تنتظر صعود الآهات كي تقول في نفسها: ذاك الشبل من ذاك الأسد.

إنها، دون شك، تريدني أن أنتقم لوالدي الذي خانته مع هذا القائد العنين.

أعرف أنها ستكون سعيدة لو أنني أجهزت عليه وعليها، ستزغرد في موتها عاليا كما يزغرد في العرس.

أحب تهاليل الفجر وتسابيح السحور وصوت أم كلثوم وهي تغني رباعيات عمر الخيام.

كانت الليلة الأولى كافية لفتح الليالي.

كانت زبيدة امرأة تحترم صيامها. إذ يستحيل أن أمس جسدها الصائم نهارا. كان محرما علي أن أفعل شيئا مما يفسد عليها صيامها الذي تؤديه بإيمان. وفي المساء ومع الإعلان عن ساعة الافطار ننتظر مغادرة القائد البيت كي نخلو لبعضنا البعض. في الأيام الأولى لم نكن لنجرأ على شرب شيء آخر غير قهوة أمي

المفلفلة. لكني تماديت هذا اليوم وقد أوشك رمضان أن ينتهي بأن نزلت إلى المخزن وسحبت قنينة نبيذ معتق، نبيذ من زمن الفرنسيين المعمرين. فتحت القنينة، كانت المرة الأولى التي أشرب فيها نبيذا. لم تشرب زبيدة معي كأسا ليلتها. كانت تنظر إلى الكأس وتنظر في عيني. جرعت من الكأس نصفه دفعة واحدة، كنت أريد أن أسكر، أن أرتكب المنكر، أن أرى أبي فرحا من سماء الشهداء، شعرت الأرض تدور من تحت أرجل الطاولة والسقف أيضا يدور أو يتهادى كموج عجيب. انتبهت فإذا وجه زبيدة يتحول رويدا رويدا من لحم ودم إلى ابتسامة ثم نور.

هزم النبيذ المعتق سلطتي على نفسي. انهارت المقاومة. سحبت برفق زبيدة إلى أحضاني، استجابت، شممت عطرها وسحبت من على جسدها، جسد خطافة، ما كان يسترها، ثم دخلنا تحت الشرشف الوردي. لا أذكر من ليلتنا تلك إلا تأوهاتها وهي تصرخ وأمي في الخارج ترفع من صوت الراديو حيث مقرئ القرآن يتلو آيات الذكر الحكيم حتى تغطي على صوتها وتأوهاتها الوحشية.

تلك كانت أول مرة في حياتي أشرب فيها نبيذا وأنام فيها مع امرأة وتلك كانت أول مرة أمارس فيها الجنس مع امرأة.

بعد العملية شعرت بعطش شديد في حلقي الذي جف دون أن أفهم لماذا يجف الحلق هكذا وبهذه السرعة العجيبة وبهذه الطريقة المبهمة. وإذا بأمي تدخل الغرفة بعد أن هدأ صوت زبيدة من الصراخ والتأوهات الوحشية، تأخذها بين ذراعيها وهي في شبه سكرة لتنقلها إلى سريرها في غرفة القائد.

ساد الظلام، اختفت أيضا أمي، سكت الراديو ونام الجميع في

انتظار السحور وعودة القائد من المقهى الرمضاني.

بعد تلك الليلة كنا زبيدة وأنا وأمي، كل على طريقته الخاصة، يستعجل خروج القائد لصلاة التراويح، كي نخلو إلى بعضنا البعض نشرب القهوة المفلفلة ثم نسحب قنينة نبيذ أشرب منها ما أستطيع، ما كانت زبيدة لتجرأ على تناول الخمر ولا أمي. كنت أصب ثلاثة كؤوس لأشربها وحدي تباعا.

وأنا أعتصر جسد زبيدة كنت أشعر أنني أنتقم لوالدي ضد ثورة خانته، ونسيته وضد أصدقاء صادروا منه زوجته التي غامرت والتحقت به في الجبال تسحبني معها كجرو الغابة.

وككل ليلة تهيئ لنا أمي السرير الناعم والغطاء الحريري وتحضر لنا النبيذ الكولونيالي المعتق والمأكول المعسل ثم تنسحب قبالة الباب تراقب القائد خائفة من أن يعود على حين غرة فيفاجئنا في هذا الوضع.

بهذا التصرف كنت أشعر أن أمي تريد أن تعتذر لروح والدي على ذنبها وخديعتها الكبرى له.

علمتني زبيدة برعاية أمي وخبرتها كيف أذوق جسد المرأة. كانت الرغبة الجسدية مرتبطة بنوع من الثأر النائم في. كنت أريد أن أثأر لوالدي، الذي اختطفت منه أمي ورمي به في النار.

... وقيل عنه شهيدا.

الفصل الثالث

مرض أسطورة

كان الدخول المدرسي ثقيلا وحزينا على قلبي وفيه.

السماء تغيمت قبل موعدها. هكذا انسحب الصيف بقيضه فجأة دون سابق إنذار. مبكرا، هطلت الأمطار الأولى التي تسميها العامة عندنا ب. «غسالة النوادر»، مطر بلون التراب الأحمر. شعرت بحزن عميق وأنا أغادر المنزل لألتحق بالقسم الداخلي. منذ الليلة الأولى بدت لي الداخلية جحيما كبيرا. لقد تعودت على النوم في أحضان زبيدة وعلى عطر الحناء في شعرها، وتعودت على قيلولة يوليو وأوت رأسي ورأسها على وسادة واحدة، في حلم واحد. الآن ها أنذا في هذا المرقد الكبير وحيدا باردا كقطعة لحم رميت لكلب فتعفف عن أكلها. لليل هنا شكل آخر، سواده سواد آخر. أصدقائي يغطون في شخير طويل. أنهض من سريري لأذهب إلى الحمام أنظرني في المرآة فأجد سحنة وجهي متعبة أبحث في عمق عيوني الغائرتين عن وجه زبيدة الملائكي فلا أجد سوى الحارس الليلي صارخا في يأمرني بالعودة سريعا إلى سريري. هرب النوم مني. صورة أبي تلاحقني وهو يتفحم في النار صارخا طالبا نجدة أمي التي خانته وارتمت في أحضان عشيقها القائد.

أليست هذه أضغاث أحلام وكوابيس؟

في الثانوية تسير الأمور بروتين ثقيل. لست أدري كيف وجدت نفسي أغرق في قراءة الكتب، كتب الفلسفة والروايات. كنت ألتهم كل

ما أجده أمامي من كتب بالعربية والفرنسية هروبا من أربعة وجوه تلتصق بذاكرتي فتعذبني: القائد وأمي وزبيدة وأبي. كانت الكتب منقذي ومفتاح الفرج.

في غمرة قراءاتي أعجبت بكتاب يحكي مغامرات السيرة الذاتية الشيطانية لرامبو، دوختني أسفاره العجيبة في اليمن السعيد والحبشة وجيبوتي والسودان والصومال أو الدومان وأدغال إفريقيا وأثارتني في شخصيته تلك الجرأة على المزاوجة ما بين كتابة الشعر وتهريب السلاح والمتاجرة في الرقيق الأبيض والأسود والبن اليمني الممتاز الذي يسمى «موكا». كنت أرغب أن أكون أنا الآخر ذات يوم مثل رامبو، أختفي فجأة عن الأنظار وأتخلص من أمي والقائد وألتحق بمجموعة دينية متطرفة أشتغل معها في تهريب السلاح ما بين الجزائر ومالي وإسرائيل. بدأت أقرأ كل ما يتصل بحياة رامبو وفي كل مرة أقول: لا يمكن لتاجر السلاح والرقيق أن يكون ناجحا إلا إذا كان شاعرا أو فنانا تشكيليا موهوبا وعالميا.

كانت حياة الشاعر رامبو هي التي أوصلتني إلى إدمان قراءة الروايات البوليسية، هكذا كنت أجهد نفسي كي أتقمص شخصية كولمبو تارة وتارة أخرى أرسين لوبين، كنت أحاول أن أرتدي ألبسة مثل ألبستهم وأقلد مشيتهم، ثم ما فتئت أن شكلت جماعة أشرار أخرى داخل القسم الداخلي، كنا،كل ليلة، حين يأوي جميع الطلبة إلى أسرتهم نقفز سور الثانوية ونذهب لمشاهدة أفلام بوليسية في قاعات سينما «المغرب» أو «الكوليزي». ذات ليلة إذ غادرنا قاعة العرض بعد أن شاهدنا فيلما بوليسيا سخيفا ومثيرا في الوقت نفسه اتفقنا على أن نطبق ما شاهدناه في الشريط، وبالفعل كسرنا قفل

باب متجر «ساعاتي» معروف في المدينة وصاحب أجمل واجهة في شارع أرزيو الرئيسي وأخذنا معنا عشرات الساعات من كل شكل ونوع. وحين شرعنا في بيعها لتلاميذ الثانوية بأسعار زهيدة اكتشف أمرنا وجاءت الشرطة وأخذتنا لنقضي يومين في الحجز، ثم أطلق سراحنا بعد أن جاء صاحب المحل الذي كان طيبا فسامحنا إذ اكتشف بأننا صبية وتم إخلاء سبيلنا، وتحت تهديد عناصر جماعتي «جماعة الأشرار» اضطر غالبية التلاميذ الذين كانوا قد اقتنوا منا مسروقاتنا إرجاعها وبالتالي جمعنا الساعات وأرجعناها له.

ثم ما لبثت أن مللت من قراءة الروايات وسير العظماء والخارجين عن القانون لأنتقل إلى الكتب والمجلات المتخصصة في صناعة أنواع مختلفة من الأسلحة النارية والبيضاء وطرق تفكيكها وتركيبها وكيفية استعمالها. لقد شغلني أمرهذه الأسلحة كثيرا إذ كنت أقضي الساعات في رسمها مركبة ومفككة وأحفظ أسماء القطع واحدة واحدة بالفرنسية والإنجليزية.

هذه الليلة أستعيد صورة الرئيس بن بلة الذي أطيح به وهو في مدينتنا وهران التي جاءها ليحضر مباراة لكرة القدم بين الجزائر والبرازيل. كان فرحا باستقبال نجم الكرة بيليه. كان آخر من استقبله قبل أن يزاح من على رأس السلطة.

نزلنا إلى الشارع لاستقبال الرئيس. جاؤوا بكثير من تلاميذ المدارس والثانويات والفلاحين في شاحنات وحافلات، كانت أمي تسحبني من يدي وتقرصني من فخذي خفية أن تفقدني بين هذا الزحام.

كانت عينها لا تنزل من علي.

آلاف الجماهير تنزل شوارع وهران، من كل جهة جاءوا.

جاء بن بلة لوهران لحضور مقابلة رياضية وهو الرئيس الرياضي الذي كان أيام سنوات الاستعمار يلعب في فريق كرة قدم مشهور.

رئيس يشبه الرياضيين أو نجوم السينما، هكذا كان يبدو الرئيس بن بلة في بذلته الصينية الماوية.

أنا جرو الجبل أشاهد الرئيس؟؟؟ كنت أصفق كما يصفق الآخرون، وأهتف باسم الرئيس والثورة والشهداء.

كانت مدينة وهران في هذا الصيف مدينة وهران جميلة ومتزينة. الترامواي يسير فيها على سكته وكأنه يرقص رقصا فنيا على الجليد.

منذ نزلنا من الجبل، لأول مرة أشعر بأن أمي فرحة مبتهجة.

وكان القائد أيضا فرحا استعاد جزءا من قوته ومن هيبته. كنت أتحاشى النظر إليه، أزعجني فرحه.

سرنا جميعا لاستقبال الرئيس الذي قيل إنه بدأ زيارته بمدينة سيدي بلعباس، المدينة التي كان الفرنسيون يطلقون عليها اسم باريس الصغيرة le petit Paris.

كان الرئيس مبتهجا في قامته وفي ابتسامته التي تشبه ابتسامة نجوم السينما الإيطالية.

كنت سعيدا في الزحام. تشدني أمي من يدي المعرقة تارة وتارة أخرى أنزلق.

كان بن بلة وجميلة بوحيرد بالنسبة إلينا صورة النقاء، صورة

المثالية عن الثورة الجزائرية المظفرة.

كنت أرى المحتشدين على الأرصفة الضيقة يملأهم فرح الثورة وحلم الديمقراطية والعدالة والتغيير.

الآن وأنا أستعيد هذا اليوم الذي تم فيه تدبير الانقلاب على أول رئيس شرعي في الجزائر المستقلة يعجبني في مسيرة بن بلة النضالية كلها ما قرأته عن تفاصيل قصة سرقته لأموال البريد المركزي بوهران وفي وضح النهار. لن يكون الواحد سياسيا كبيرا أو شاعرا كبيرا إلا إذا كان سارقا ذكيا، سارقا يعرف مهمته جيدا، في جانبها الشريف لا المبتذل.

إني أحب السراق وقطاع الطرق والخارجين على القانون. هؤلاء هم المبدعون في الحياة.

لست أدري كيف لصق الشعر بي إذ وجدتني أكتب أشعارا كثيرة في زبيدة وفي مدينة وهران التي لم أستطع أن أحبها رغم جمالها المتميز. كنت أجمع أفراد عصابتي وأقرأ عليهم قصائد طويلة تارة بالفرنسية وتارة أخرى بالعربية. في الواقع كنت أسرق أغلبها من كتب سان جون بيرس وبودلير ورامبو ونزار قباني وسعيد عقل وأقحم فيها اسم زبيدة تارة واسم وهران تارة أخرى.

أتصور أن القائد السي مولود مرتاح البال الآن إذ رمى بي في هذه الداخلية. لقد بدأ يشتم رائحة الخطيئة في البيت. ربما؟؟؟ وكنت كلما شعرت بأنه يشتبه في أمر علاقتي بزبيدة أقول لها:

«إنه قادر على أن يقتلنا في السرير وأن يشعل النار في جسدينا ويجلس يتفرج حتى تنطفئ النار ويتيقن من أن جسدينا أصبحا

رمادا».

لم تكن زبيدة تهتم لذلك، بل كانت تضحك من خوفي وتغرق في الضحك وتقول:

«من أين أتيت له بهذه الشجاعة والإقدام إنه يبول في سرواله وفي سريره». ثم تغير حديثها فتقص علي قصة حبها لمعلمها العراقي الذي كان يلبس معاطف بألوان زاهية ومتنافرة. وأنها كانت تحبه في هذا الكرنفال من الألوان.

حين عرفت بعجز القائد وهو الذي كان القادر على هز الأرض وإتيان الشمس من مغربها، حين عرفت بذلك حزنت كثيرا. ثم فجأة شعرت براحة عميقة وأنا أتذكر مشهد النار الخائنة التي أكلت والدي دون رحمة. وكلما تذكرت ذلك ازدادت رغبتي في زبيدة فأمارس معها الجنس مرة فوق مرة دون توقف. حتى تصرخ في ضاحكة:

«ألا تشبع؟»

أعرف أنني لا أحب زبيدة ولكني كنت أريدها كي أنتقم لوالدي. تيقنت من أني لا أحبها حين أدركت أن قصة حبها لمعلمها العراقي والتي حكتها لي عشرات المرات بصيغ مختلفة لم تحرك في شيئا من الغيرة أو ما يشبه ذلك، كنت أسمع حكايتها كما أسمع أي كلام لا علاقة له بي.

في الداخلية تعلمت كل شيء ممارسة العادة السرية والسرقة والتفرج على نساء الماخورو التدخين وقراءة الروايات، وكنت حين أعود نهاية الأسبوع إلى المنزل تسرق زبيدة من القائد أوراقا نقدية كثيرة وتعطيني إياها كي أشتري ما أحتاج إلية من سجائر. كانت

تجلس قبالتي معجبة بي وأنا كالرجال أدخن السيجارة تلو السيجارة. كانت تقرب وجهها من فمي وتقول لي: «أنفث دخانك في وجهي، إني أحب رائحة الدخان»..

كان الدخان يجعلها كثيرة الشهوة للجنس. حين تريد أن تمارس معي تشعل لي سيجارة وتضعها بين أسناني وتقابلني كالقطة التي تتابع مقلة السردين فيحمر وجهها وتبدأ في الارتجاف.

الواقع أنني لم أكن أحب السجائر ولكنها كانت تجعلني أشعر بأنني أصبحت كبيرا وقادرا على المضي في مغامرة الحياة دون تردد.

استغربت إذ جاءني أحد الحراس بعد نهاية آخر درس قائلا:

«هناك زائر بمكتب الحارس العام يريد رؤيتك».

منذ أن رمي بي في هذه الثانوية الداخلية لم يزرني أحد. فأسرتي لأمي يقاطعونها لأنها تزوجت من دون استشارة أحد، وأسرتي لأبي يقاطعونني لأنهم يعتقدون بأنني ابن غير شرعي.

وأنا أقاطع القائد وأمي لأنني جرو الجبل.

فوجئت إذ وجدت القائد، نعم القائد السي مولود أونويل بلحمه ودمه، جالس في انتظاري بمكتب الحارس العام. سلم علي بحرارة زائدة، لأول مرة يقبلني بهذه الطريقة، انتابني خوف ما وقلت في نفسي إن سرنا انكشف. وأنه جاء ليأخذني كي يحرق جسدي مع جسد زبيدة. نظرت إليه وجدته قد شاخ فجأة. كان هادئا وكأنما يخفي سرا فيه قدره. لم أكن قد انتبهت قبل هذه الساعة إلى أن الهرم نخر جسده بسرعة فقوس كتفيه وأكل شعر رأسه وبدا وجهه أصفر

بتجاعيد غائرة. شعرت بيده اليمنى ترتجف بقوة وهو يحاول إخفاء اهتزازها المكشوف عني وعن عيون الحارس العام.

قال لي وقد بدت أسنانه مهترئة في صفارها المقزز:

«جئت لأصطحبك معي لحضور مراسيم تسمية أحد الشوارع الكبرى باسم والدك. المراسيم ستشرف عليها شخصية حزبية كبيرة تجيء من العاصمة خصيصا لهذا الحدث. سيكون الاحتفال غدا الساعة العاشرة صباحا».

كان يتكلم عن والدي وكأنما ندم أصابه أو شيء يشبه وخزات الضمير تقض مضجعه. تكلم كثيرا ولم أسمع من كلامه شيئا. كنت أفكر في زبيدة وأستعجل لقاءها وقد بدأت أعجب بحكايتها مع عشيقها معلم الجغرافيا العراقي وأحب الاستماع إليها.

طلبت منه أن ينتظرني بعض الدقائق كي أحضر بعض كتبي وأغراضي من المرقد.

خرجنا معا، كان يريد أن يشعرني بالمودة. لأول مرة أشعر به رقيقا ومنهزما أمامي، أنا جرو الجبل، وربما أمام العمر الذي تقدم وأمام الذاكرة التي لا تشيخ.

لم يكن ليهمني حضور مراسيم تسمية الشارع باسم والدي الشهيد. فهذا كلام سلطة تريد أن تخفي تناقضاتها وفضائحها وانقلاباتها. كنت أرغب أن أشم عطر زبيدة وأعتصر جسدها الصغير الذي ينتظرني محروسا من قبل هذا العجوز.

حين دخلت الدار وجدت أمي خارجة لتوها من الحمام أما زبيدة فيبدو أنها في الخارج أو عند أهلها. سلمت علي أمي بحرارة ولأن

مجيئي سببه الاحتفال بتسمية شارع باسم والدي فقد كانت منزعجة أو محرجة قليلا، أو هكذا بدا لي الأمر.

دخلت غرفتي، سحبت سيجارة، ولعتها. شعرت بعصبية وبضيق في التنفس إذ لم أسمع صوت زبيدة. بدا لي البيت على وسعه كخرم الإبرة، خاليا ومهجورا وحزينا. لم أرد أن أسأل أمي عن زبيدة. وكأنما أدركت أمي ما في الخاطر فقالت لي دون أن أسألها:

«أتريد فنجان قهوة؟»

لم أرد، وكنت أرغب في فنجان قهوة من قهوتها المفلفلة الرائعة. لكنها دون أن تنتظر جوابا إيجابيا مني، عبق عطر القهوة. جاءتني بإبريقها مع فنجانين عليهما رسوم طواويس وطيور خرافية من جنات عدن أو من حكايات الشهنامة.

سحبت نفسا طويلا من سيجارتي. قابلتني أمي سائلة عن دروسي وعن تحضيرات امتحان شهادة الباكالوريا الذي لم يبق عليه إلا بضع أسابيع. أجبتها بأن كل شيء جيد وأننا في التحضيرات الأخيرة. كانت سعيدة ومطمئنة إذ سمعت ردي جادا وعميقا ومسئولا.

حين كح القائد كحته اليابسة التي كاد أن يفقد من جراها تنفسه، أسرعت أمي لمساعدته. أنا لم أتحرك. لحظات وقد هدأت سكرات السعال، حتى سمعتها تحدثه:

«لن تتأخر، هذا موعد عودتها».

أدركت أن المعنية في حديثهما هي «زبيدة». شعرت بمزاجي تغير. وقلت في نفسي ربما خرجت للقاء عشيقها العراقي عند مدخل

الثانوية، زبيدة قادرة على كل شيء.

غادرت الغرفة لأستفسر عن صحة القائد.

قالت أمي:

«هذا حال مريض الربو والسكر واللاإيزايمر»

نظرت إلى القائد، كان منهزما، مستسلما، أخفض عينيه إذ رآني أسأل عن صحته. وكأنه كان يدرك بأنني أشعر بالسعادة للحال التي آل إليها. كنت أبالغ في تأمل وضعه المنهار كي أهزمه أكثر، كي أنتقم لوالدي أكثر وأكثر. حين تيقنت أنه في أمتاره الأخيرة من الحياة، بدأت أتشمم كالكلب رائحة زبيدة. شعرت بها قادمة. لا بد وأنها ستأتي، وإلا سأذهب للمجيء بها ولو كانت في بطن الحوت أو على شاطئ نهر دجلة أو الفرات.

كانت أمي تتحاشى الحديث عن مراسيم تسمية شارع باسم والدي الشهيد. كنت أشعر بأنها جريحة وشاعرة بالندم والذنب وتأنيب الضمير، أو هكذا بدا لي الأمر.

فجأة انتبهت وإذا الليل من حولنا قد سقط وزبيدة معه تسقط من سماء رحيمة بين ذراعي شهية ومشتهاة.

القائد يسعل وأمي تسرع كي تسعفه ببخاخ الربو. زبيدة لا تحرك ساكنا وكأنها لم تسمع سعاله اليابس. وأنا أتلذذ عذابه وأعصر نهدي زبيدة عصرا. وهي تشحط في قائلة بين المزح والغواية: «يا شيطان الناس ما زالوا صحاة والعيون براقة».

ثم تسحب من علبتي سيجارة تضعها كالعادة بين أسناني وتولعها وهي تنظر إلي كأنما هي النار التي في رأس السيجارة.

أسحب نفسا طويلا ثم أرسل سحابته نحو وجهها المدور الملائكي فتضحك وتستنشق الدخان بعمق وتقهقه كمراهقة.

لأول مرة فكرت أن أسألها عن عمرها. إنها تبدو أصغر مني، فقد كبرت أنا كما تكبر الجراء الضالة ما بين جبل ثائر ودسائس أم خائنة وقائد غدار وأسرار يقفل عليها في القبر كما يقفل على المحكوم عليهم بالإعدام.

عادت أمي وهي تعلق:

«لأول مرة يتعبه الربو بهذه الطريقة».

نظرت إلى سحابة سيجارتي المرسلة في اتجاه زبيدة ثم قلت في نفسي، لم أكن أريد إزعاج أمي:

«إن روح والدي الذي ستسمي باسمه الدولة الانقلابية غدا شارعا رئيسيا تعذبه. إن الشهداء يا أمي لا يموتون. إنهم يراقبوننا في كل لحظة. ويحاسبوننا على كل فعلة وعلى كل أمر سلبي أو إيجابي».

لم تنزعج أمي لمثل هذا الكلام «الكبير» ولكنها كانت سعيدة لأنها ربما شعرت أنني أصبحت «كبيرا» ككلامي، كبر الإنسان يقاس من لسانه قبل عمره أو طول قامته.

امتلأت الغرفة بدخان السجائر. وهو ما هيج زبيدة وجعلها تقوم خمس مرات متتالية إلى الحمام. كانت تعود في كل مرة وقد وضعت حمرة جديدة على شفتيها وغشاوة غير بادية على وجنتيها.

لقد استيقظت الشهوة في زبيدة.

وقد أدركت أمي ذلك، لذا فهي تريد أن تتأكد من نوم القائد وتريد

في الوقت نفسه أن تعد السرير لنا، سرير الليلة التي تسبق المراسيم.

شعرت بجوع في بطني فجأة.

أرغب في شرب قنينة نبيذ كولونيالي معتق بيد سلالة المعمرين الجهلة والمتعنتين.

وأنا أحتسي قنينة نبيذ معتق كان قد أعدها معمر جاهل لأصدقائه الأقدام السود أشعر بمتعة الاستقلال. إن شرب نبيذ هذا المخزن المئوي يجعلني أشعر فعلا بأنني في بلد مستقل. المتعة رديف الاستقلال. المتعة كالحرية.

مرات كنت أنزل إلى قبو المخزن النبيذيla cave وأقضي بعض الساعات فأدرك بأن والدي الذي ذهب في أتون الغيرة والدسائس كان يحب المتعة التي لا تشبهها سوى متعة الجزائر.

أنزل سلالم القبو لإحضار قنينة نبيذ معتقة، أسمع القائد يسعل، أتمنى له مزيدا من العذاب ولا أتمنى له الموت، لأن الموت استراحة الخائنين والأذال.

أنزل السلالم درجة درجة وأكتشف بأن زبيدة تتبعني نحو الهاوية نحو الأسفل. أنظر خلفي فأجدها مبتهجة وراقصة، كلما خطوت نحو الأسفل يغيب ويتغبش ضوء الرواق، بعض مصابيح القبو محترقة، دون ضوء، ولكني كالذئب، جرو الجبل، أعرف فريستي من النبيذ الكولونيالي الجيد. زبيدة تمسك بذراعي تقرصني وتقهقه، وإذ أدركنا نهاية القبو حيث مئات القنينات المصطفة يسارا ويمينا في وضعية مائلة قليلا كأنما هي في وضعية استعداد، رائحة الرطوبة والصمت الصلواتي يجيء من كل الجهات، وزبيدة تلتصق

بي وتقبلني وتقول ما لا أسمعه وأسمعه. سعال القائد لم يعد يسمع. هجمت علي وهجمت عليها، كنا في هذا القبو بين هذه القناني المصطفة بخشوع نمارس الرغبة داخل الرغبة. كنت أرى النبيذ نائما، عفوا النبيذ لا ينام، في القناني وأنا مستيقظ فوق جسد زبيدة الناعم الرائع.

من تحتي تكلمت زبيدة قائلة: «أريد منك طفلا يشبهك، أريده قبل أن يرحل القائد».

سعال القائد لم يعد يسمع. وآهات زبيدة تسكن أطراف هذا القبو، وأرى أمي تراقب نوم المريض ومصعد سلالم القبو ومدخل الغرفة.

أمي تقوم بكل هذا لأنها تريد التخفيف عن ذنبها وتواطئها مع هذا القائد في اغتيال والدي الشهيد، أو ربما هذا هذيان جرو ضائع. سأنتقم.

كان جسد زبيدة من تحتي يصرخ رغبة وربما مثلي يصرخ انتقاما، لكل منا انتقامه.

كانت زبيدة تريد أن تتزوج أستاذها العراقي لكنهم فصلوها عن المدرسة وجاؤوا بها إلى فراش القائد. إنها تريد أن تنتقم. الآن تسكنني الظنون من أن زبيدة لا تزال على علاقة مع معلمها وعشيقها العراقي وأنها سترحل عن هذا البيت بمجرد رحيلي عنه أو رحيل العراقي عن وهران. دون شك ستتبعه حتى البصرة.

تمددنا على أرضية القبو الرطبة إلى جانب قناني النبيذ التي تنام منذ أزيد من نصف قرن هنا، لا أحد يزعجها.

النبيذ لا ينام، إنه يقيل وقيلولته كقيلولات ملوك الأندلس.

كنت أتمنى لو أني أفرغت على جسد زبيدة جميع هذه القناني وأشعلت فيها النار واسترحت.

كانت تضحك. لم أكن قادرا على تمييز ملامح وجهها في هذا الظلام الذي يشبه الغبش.

فجأة وإذ شعرت بأني أحاول أن أتهرب من سعال القائد الذي يهجم علينا حتى نهاية هذا القبو قالت لي وهي تقبل قدمي وترضع أصابع القدمين واحدا واحدا:

«إن والدتك...»..

شعرت بنوع من الخجل والإهانة أن تكون أمي غسالة أقدام امرأة مراهقة تنام تحتي الآن في هذا السرداب المليء بالرطوبة وألاف قناني النبيذية الكولونيالية.

صحوت متأخرا. وجدتني نائما ممددا بين صفوف القناني المنظمة بإحكام داخل أكياس من لوح مغبر وقد نبتت على أطرافها بعض الفطريات. كانت القناني مصطفة بنظام وبميلان أو انحناءة كانحناءة الجنود المؤدبين جدا. كان النهار قد طلع قليلا. شعرت بتعب وبدوار في الرأس، لا هواء في القبو ولا ضوء إلا بعض الأشعة القليلة تتسرب من كوة لست أدري أهي موجودة في السقف أم في رأسي.

فهمت من نظرات أمي القلقة أنها تستعجلني كي نلحق بالقائد في الشارع لحضور مراسيم التسمية تسمية أحد الشوارع الرئيسية باسم والدي الشهيد.

لم تظهر زبيدة. يبدو أنها لا تزال تنام في القبو مع قناني النبيذ

الكولونيالي.

عبق أريج قهوة أمي. أريج لا يشبهه أريج. وأنا أحتسي فنجان القهوة كانت الستارة السميكة التي خلفها شرب نبيذ البارحة في رأسي ترفع قليلا قليلا.

نزلنا الشارع، أمي وأنا. كنت أرتجف، قلبي يدق، يخفق يريد أم يتوقف. فكرت للمرة الألف في قتل أمي وقتل القائد زوجها وأنا أخطو أول خطوة في الشارع كي نلتحق بالمحتفين. لم تستطع مغامرتي الجنسية مع زبيدة أن تلئم الجرح العميق في داخلي، أن تطفئ نار الانتقام من هذا القائد ومن هذه الأم. أمشي في الشارع جنب أمي وأرتجف. الرصيف الذي نمشي عليه يتحرك يميد تحت قدمي. الناس اصطفت أمواجا أمواجا على الأرصفة لاستقبال الشخصية المهمة القادمة من العاصمة للإشراف على مراسيم إطلاق اسم والدي على هذا الشارع الكبير الذي وصلنا زاويته عند المدخل حيث حضرت الرخامة بنصها المفتتح بآية من القرآن الكريم تكرم الشهداء: (باسم الله الرحمن الرحيم «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون») وأسفل كلام الله الذي لا كلام فوقه يذكر اسم والدي واسم وتاريخ المعركة التي استشهد فيها (معركة الاستيلاء على مزرعة المعمر الإسباني).

لم أستطع، من كثرة الحشود، أن أرى هذا المهم الذي قدم من العاصمة للإشراف على هذا الحفل، بل إنني وجدت نفسي أنسحب من وسط المارة إلى الخلف تاركا أمي وحدها في المقدمة تنظر إلى الرخامة وإلى عشيقها القائد الذي أبلى بلاء حسنا أيام الثورة.

فكرة قتل أمي والقائد تلح علي كثيرا. الناس تصفق للزعيم الذي

أزاح الستارة عن الرخامة وأنا أفكر كيف أستطيع أن أورط زبيدة وأغريها كي تشاركني خطة القتل.

أشعر الآن بأن رغبة القتل تشبه كثيرا رغبة ممارسة الجنس.

لم أدر كيف انسحبت، إذ وجدتني في الصفوف الأخيرة بعد أن دفعت بي بعيدا أمواج المصطفين الذين تسابقوا وتزاحموا ليحيوا الزعيم رافعين شعارات الثورة والحرية والاشتراكية والدعوة وأخرى ضد الإمبريالية الأمريكية بالسقوط.

مئات التلاميذ سحبوا من مدارسهم ليصفقوا وليرددوا نشيد قسما وأناشيد ثورية أخرى. والقائد القادم من العاصمة يبتسم.

سنتقاسم المهمة: زبيدة تقتل أمي وأنا أقضي على القائد الهرم ثم بعد ذلك نهرب إلى مدينة بعيدة وهناك يلتحق بها أستاذها العراقي كي يتزوجها.

شعرت بالاختناق وقد امتلأ رأسي بأفكار سوداء فأسرعت عائدا إلى البيت هروبا من هذه الحشود التي ترغي وتزبد محيية الزعيم بعبارات الولاء والنصر والشهادة.

حين دققت الباب تكاسلت زبيدة كثيرا حتى فتحته. وإذ وجدتني أقابلها قبلتني على فمي وهي ما تزال بين النوم والصحو. ثم سحبتني إلى سرير القائد. كانت دافئة ومرتخية. تعجبني ممارسة الجنس مع زبيدة حين تكون على هذه الحال من دوخة النوم أو حين تكون متأثرة بسحائب دخان السجائر.

ثم فجأة قفزت إلى دورة المياه، سمعتها تتقيأ. عادت إلى السرير مارسنا الجنس مرة أخرى، ثم قفزت ثانية إلى دورة المياه وهي

تعصر بطنها محاولة أن تفرغ ما فيه.

تفرغ ما فيه؟؟؟

دخلت أمي، سألت عني وقد كنت انسحبت إلى غرفتي لأحضر حقيبتي إذ علي أن أعود إلى القسم الداخلي لأتابع تحضير امتحان شهادة الباكالوريا الذي لا يفصلنا عنه سوى أسبوعان. ثم تلقف سمعي جملة لأمي موجهة إلى زبيدة وهي ترد عليها عن سبب هذا القيء المتكرر:

«مبروك إنك حامل».

من فعلها: أجرو الغابة أم المعلم البصري؟

وقفت أمام رفوف المكتبة، اخترت رزمة من الكتب، حملت حقيبتي على ظهري ثم غادرت المكان.

خرجت وقد قررت ألا أعود إلى هذا البيت مطلقا.

الفصل الرابع

الممحاة

قال النبي (ص) «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

نزلت بمدينة دمشق. كان ذلك في نهاية شهر سبتمبر. الخريف أحب الفصول إلى قلبي ربما لأنني من برج القوس. لست على يقين أنني من مواليد برج القوس، ولادتي كانت لعنة على والدي الشهيد ولعنتين على أمي وعلى عشيقها القائد.

لا تاريخ ولادة لجرو الغابة.

آخر مرة رأيت فيها القائد، كانت حالته الصحية قد تدهورت كثيرا، إضافة إلى الربو فقد فقد جزءا كبيرا من قوة السمع، وهو ما جعله يميل إلى العزلة والانعزال أكثر فأكثر. ولأن القائد، بحكم تاريخه الثوري، يملك علاقة متينة ومباشرة مع العديد من المسئولين السامين في وزارة التعليم العالي فقد حصل لي وبكل بساطة على منحة دراسية في الخارج. كان مصرا، من موقعه الثوري التاريخي، ألا أذهب للدراسة في فرنسا الاستعمارية، هو الذي اختار لي دمشق. لم أعترض على ذلك.

فرحت لنجاحي في امتحان شهادة الباكالوريا لا لشيء سوى لأنني أستطيع الآن أن أدخل الجامعة وأعيش كالكبار. وحدها شهادة الباكالوريا ومدرجات الجامعة قادرة على أن تزيد في العمر عشرين سنة دفعة واحدة. كنت أريد أن أكون أكبر من عمري.

لم يكن يهمني البلد الذي أرحل إليه، كل ما كنت أرغب فيه هو أن أرحل عن هذه المدينة التي بدأت تضيق وتخنقني يوما ما بعد آخر، شعور حاد يصر علي لمغادرة مدينة وهران والهروب من نوبات القيء التي فاجأت زبيدة.

نزلت بدمشق ليلا، وحيدا كنت. كنت حزينا إذ تركت خلفي زبيدة لمعلمها العراقي الذي تعجبه الألبسة ذات الألوان الفاتحة. لم يكن من السهل علي قص خيط العسل الذي سال بيني وبينها طويلا. الوقت يقارب منتصف الليل، رميت بنفسي في سيارة أجرة. في اتجاه وسط المدينة. ما أن تحركت السيارة حتى انطلق صوت صباح فخري في موشحات يرف لإيقاعها القلب ويهتز لها الجسد.

– من أي بلد يا أستاذ؟ قال سائق الطاكسي.

لأول مرة أسمع أحدا يناديني «أستاذ». وجدت هذا اللقب أكبر مني بكثير. ولكنه أشعرني بأنني أصبحت كبيرا ومسئولا عن نفسي.

– من الجزائر.

– مرحبا ببلد المليون ونصف المليون شهيد.

ثم انطلق في رواية قصة زوج خالة له اشتغل مدة أربع سنوات أستاذا للغة العربية بالجزائر. وبدأ في مديح الجزائر قائلا:

– أكد لنا زوج خالتي بأن الجزائر تشبه فرنسا تماما. وأن ناسها طيبون جدا، ولا يعرفون التحدث بالعربية لأن فرنسا منعت عليهم تعلم اللغة العربية. وأنهم لا يتكلمون إلا الفرنسية حين يخاطبون بعضهم بعضا.

ثم انتقل للحديث عن خالته التي أنجبت ولدا وبنتا في الجزائر

أطلقت على الولد اسم بومدين على اسم الرئيس هواري بومدين وأطلقت على البنت اسم «جميلة» تيمنا بشجاعة «الشهيدة» جميلة بوحيرد.

قلت له إن جميلة بوحيرد لا تزال حية وإنها كانت سجينة أيام الاستعمار وقد عذبت ولكنها لم تمت. استدار ونظر إلي باندهاش وقال:

– أكد لي زوج خالتي بعظم لسانه أنها استشهدت بعد أن قادت عملية عسكرية كبيرة قضت فيها على أزيد من ألف عسكري فرنسي مستعمر.

حاولت أن أهرب من هذا الحديث، لكن السائق أصر بأن جميلة بوحيرد «شهيدة» وأن خالته زارت قبرها في الأسبوع الأول لوصولها الجزائر، وزارته مودعة في الأسبوع الأخير لإقامتهما التي دامت أربع سنوات.

كنت أرى من حولي ونحن ندخل المدينة مخترقين حيا شعبيا مكتظا حتى في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فلا أرى سوى صور رئيس الجمهورية معلقة في كل مكان وبأحجام مختلفة وفي أعمار مختلفة.

أنزلني سائق الطاكسي عند فندق وسط المدينة، بساحة اسمها ساحة المرجة. قال لي هذا فندق المغاربيين. لن تشعر فيه بالغربة، كل من يجيء من الجزائر أو تونس أو المغرب يقيم فيه إلى أن يجد له مستقرا آخر. من خلال حديث السائق مع صاحب الفندق عرفت بأنهما على معرفة قديمة. حين هممت أن أدفع له رفض أن يأخذ حق أجرة السيارة لكن إصراري جعله يتراجع فيأخذ ضعف ثمن

تسعيرة العداد الذي كنت أراقب رقصات عقربيه منذ أن انطلقنا من المطار.

لا يهم. حين غادرت سيارة الأجرة المكان وسكت صوت السائق شعرت بنوع من الحرية والراحة.

سلمني الريسبسيونيست أي القائم على الفندق مفتاح الغرفة وسلمته جواز سفري ورافقني حتى باب المصعد قائلا:

– تصبح على خير، الغرفة بالطابق الثاني.

كانت الغرفة ضيقة بسرير عتيق وأغطية بالية وغير نظيفة أو هكذا بدت لي. رائحة صابون محلي رخيص تصعد من الحمام. قاومت تعبي ونزعت عني ثيابي ونمت. لأول مرة لم أحلم بزبيدة وهي التي كانت تنام في رأسي كل ليلة.

وفي الصباح استيقظت على صراخ الباعة والحمالة والدجالين وصرافي العملات، تقلبت في سريري، تكاسلت قليلا ثم انسحبت إلى الحمام، أدرت الحنفية، سال ماء المرشاش فاترا فوق رأسي ثم ساخنا، بدأت أستعيد استفاقتي قليلا قليلا.

تذكرت أن علي أن أنزل كي أصرف بعضا من العملة التي أعطتني إياها أمي كي أدفع لصاحب الفندق أجرة أسبوع مسبق. رائحة صابون رخيص مخلوطة برائحة المازوت تعبق من مناشف قديمة مهترئة. تزداد الضوضاء في الشارع والميدان كلما صعد النهار نحو انتصافه.

هذا هو يومي الأول بدمشق، أزحت ستارة خشنة مغبرة من على زجاج النافذة كي يدخل النور قليلا، أطلت على الساحة فإذا بجثة

مشنوقة وسط الميدان. جثة رجل ثلاثيني معلقة في العامود المركزي. والناس أسفلها تبيع وتشتري، دون أن تتعب نفسها بالتفاتة إلى هذا المنظر، لا أحد اثاره الجسد المدلى في المشنقة. ارتجفت. أسرعت إلى المرحاض للتقيؤ. تذكرت نوبات قيء زبيدة ومعلمها البصري. تقيأت ما كان بأمعائي. دارت الأرض من تحت أقدامي. رددت الستارة بسحبة عنيفة كي أخفي المنظر المروع. وأغلقت النافذة بإحكام. وبمجرد أن سقطت الغرفة مرة أخرى في ظلام مريح وهادئ، تمددت على السرير فغفوت، كم دامت الغفوة لست أدري. أيقظتني دقات رقيقة لمنظفة الغرف. لم تطلب إذنا مني وما انتظرت بل اقتحمت علي الغرفة وأنا لا أزال شبه عار ملفوف في الشرشف كريه الرائحة. ابتسمت لي، لاحظت أن أنيابها كلها مغلفة بالذهب الأصفر اللامع. لم أرد على ابتسامتها. انسحبت إلى الرواق وكأنما خرجت لتتأكد من أن لا أحد يراقبها. لم تتأخر ها هي تعود وكما في المرة الأولى ودون استئذان تدخل الغرفة التي أنتبه الآن أنها تحمل رقم 279 كان ذلك منقوشا على صفيحة نحاسية كبيرة مربوطة إلى مفتاح خشن. دخلت الخادمة إلى الحمام سمعت صوت جريان ماء الحنفية، عرفت أنها تنشف أرضية الحمام، لففت جسدي جيدا في الشراشف، سترت ما كان مكشوفا منه، حاولت أن أطارد صورة الرجل المشنوق التي استوطنت رأسي من خلال التركيز على صورة زبيدة وهي تصارع نوبات القيء الحادة، أحاول أن أستعيد تفاصيل لقائنا الأخير حيث مارسنا الجنس على سرير الزوجية. صورة الرجل الثلاثيني المشنوق تطغى على صورة زبيدة. انتبهت وإذا بي أفاجأ بالمرأة صاحبة الأنياب المغلفة بالذهب الأصفر

جالسة على طرف السرير. دون حرج أو تردد أخذت تدلك لي أصابع قدمي. شعرت بمضايقة فحاولت أن أبين لها بأن لا رغبة لي في أي شيء مما تبيت له. حين أحست بنفور مني عادت إلى الحمام تتسلى بترتيب ما فيه من أشياء حقيرة. اجتاحتني رغبة جسدية عابرة، هي ليست رغبة جنسية لجسد هذه المرأة القبيحة الشكل بقدر ما هي محاولة التركيز على شيء، أي شيء، يكون قادرا على أن ينسيني صورة جسد الرجل الثلاثيني المعلق في عمود الميدان. وحين عزمت على أن أناوشها وأحدثها في أي شيء علني أجرها إلى هذا السرير المقرف، سمعتها ترد على صوت ما كان يناديها من آخر بهو الفندق. فخرجت. كان صوتها ناعما وكأنه ليس لها، كأنما سرقته من أنثى أخرى.

بسرعة ارتديت ثيابي، وجدتني أنيقا على الرغم من التعب الواضح في العينين، لحيتي بشعرها الزغبي بدأت تملأ وجهي قليلا قليلا فتجعلني أشعر بأنني أدخل مرحلة جديدة من العمر. نزلت إلى بهو الفندق، وجدته مليئا بالحجاج والحاجات الإيرانيين والإيرانيات من كل الأعمار الذين يجيئون دمشق للحج إلى مقام السيدة زينب. عرفت ذلك فيما بعد.

من خلال الأصوات المرتفعة واللهجات المتقاطعة المتبادلة في البهو الواسع لهذا الفندق الذي تعود جماليات عمارته إلى بداية القرن العشرين ميزت من نزيلات الفندق كثيرا من النساء الجزائريات والمغربيات. من ماكياجهن وطريقة لبسهن شعرت أنهن من بائعات الهوى، فتيات ليل، أو هكذا بدا لي حالهن. كن يدخن نرجيلات وسجائر ويقهقهن عاليا.

سمعت صاحب الفندق أو القيم على إدارته يتحدث بصوت خافت وهو يشرب نرجيلته قائلا لمجالسه:

«إنه شيوعي ركبت له قضية تهريب مخدرات».

فهمت من حديثه الخافت المشوب بالحذر والخوف أنه كان يقصد جثة الرجل الثلاثيني المشنوق.

اتخذت لي مكانا إلى طاولة صغيرة في ركن من البهو بعيدا عن ضوضاء النساء المغاربيات وعن الحوارات العالية النبرة للحاجات الإيرانيات، طلبت قهوة علني أطارد بها شبح جثة الرجل المعلق في العمود.

لم يتأخر النادل إذ جاءني بقهوة تعبق منها رائحة الهيل. تذكرت قهوة أمي المفلفلة وأنا أحتسيها على طرق الملوك والأمراء في حضرة غنج زبيدة التي لا تنزل عينها عني. لقهوة أمي أريج خاص. لم أستسغ القهوة بالهيل وطلبت منه فنجانا آخر دونه.

أقلقني هذا الفندق فقررت أن أغيره على الفور هروبا من رعب هذه الساحة وهذا المنظرالمفزع الذي استقبلتني به دمشق في أول يوم أقضيه فيها. وإذ سمعتني واحدة من الزبونات الجزائريات أكلم القيم على الفندق طالبا منه رغبتي في تحرير الغرفة، كلمتني بالفرنسية، وقد عرفتني من لهجتي:

«هذا أأمن فندق لك، أنت هنا بين أهلك le meilleur hôtel, ici tu es chez toi ».

سكت، نظرت إليها، شكرتها، وفي الحين لست أدري لماذا، عدلت عن فكرة تغيير الفندق. فكرت بشكل سريع وعابر بالمرأة

منظفة الغرفة، صاحبة الأسنان الذهبية الصفراء. أردت أن أصعد ثانية إلى الغرفة علها تأتيني، لكني غرقت في فنجان القهوة.

ثم لماذا أغير فندقا وأنا لا أعرف شيئا عن المدينة ولا عن فنادقها.

غادرت الفندق، خرجت للتجول قليلا، تحررت من ضوضائه المشكلة من لغات لهجات العرب والبربر والفرس. أنتبه الآن إلى اسم الفندق: «فندق قرطاجنة». لكم هو جميل هذا الاسم.

أحب التيهان في الأماكن التي لا أعرفها. أحب الضياع. للضياع في الشوارع طعم الشعر.

وأنا أغادر الفندق لأمشي لأول مرة في شوارع مدينة الأمويين، تفاديت المرور أمام عمود ساحة المرجة. لم أرفع رأسي خوفا من الأشياء المعلقة. خوفا من أن أجد جثة أخرى معلقة، ربما تكون جثتي أو جثة المعلم العراقي عشيق زبيدة. سرت في شارع ضيق سلمني بدوره إلى شارع أضيق. شعرت بالراحة وأنا أبتعد عن ساحة المرجة. عبرت شوارع دون مقصد أو هدف. كان الجو خريفيا ومطر نفناف خفيف بدأ يسقط، مطر مليء بالغبار ورائحة المازوت. شعرت بسعادة وأنا أمشي دون هدف في مدينة لا أعرفها ولا تعرفني.

المدن كالنساء الجميلات، غموض، إغراء وتعب وضياع.

حين تعبت سألت أحد المارة عن بار، أي بار أو مقهى. لم يفهم لهجتي. ثم كلمته بالفصيح، ضحك مني ثم دلني على محل غير بعيد وفي إشارته نوع من الترحيب إذ أدرك أنني ابن بلد المليون

ونصف المليون شهيد. وأنني جئت لأتعلم العربية والإسلام.

حين تخطيت عتبة البار، كان الزبائن جميعهم في صمت يشبه صمت المقابر. احترت لأمرهم هذا. لم أشاهد في حياتي بارا ولا زبائن بار مؤدبين إلى هذه الدرجة. لم يكن أحد منهم يشرب. لم يرفع أحد كأسه إلى فمه، الكؤوس ملئ على الطاولات.الجميع ينتظر، لست أدري ماذا ينتظرون. في هذا الصمت الغريب خطوت داخل البار بتردد بحثت عن طاولة شاغرة ذهبت إلى أقصى الصالة ثم عدت والجميع ينظر إلي أو هكذا بدا لي المشهد. الطاولات كلها محجوزة، والزبائن دون كلام، ولا أحد يحرك كأسه أو رأسه أو كرسيه. لم يطل الحال وفجأة ضج البار وصرخ الجميع وارتفعت الأصوات فوق الأصوات وما عاد الأحد يسمع الأحد. طلبت الإذن من شخص كان يجلس وحيدا السماح لي بمقاسمته الطاولة. نظر إلي قليلا، وإذ أدرك بأنني غريب الديار رحب بي، كانت حفاوته صادقة وعميقة. ابتسم لي ثم عاد إلى صمته بعد أن قدم لي كأسه وأشار للنادل لإحضار كأس أخرى. ولم يتكلم طوال الجلسة، وأنا أيضا لم أتكلم، كنت أتابع حوارا سياسيا ساخنة لمجموعة من شباب الطاولة المجاورة، كان الحديث حول الصراع بين الفصائل الفلسطينية.

الرجل الخمسيني الذي هتكت عليه عزلته، كان يشرب وينظر من حين إلى آخر إلى ساعة كبيرة في معصمه. سألته بعد أن ترددت طويلا:

– لماذا كان جميع الزبائن قبل قليل صامتين دون شراب؟

أجابني دون أن يرفع عينيه عن عقربي ساعته، كأنما هو على

موعد مهم:

- إنه وقت صلاة الجمعة. ففي هذه اللحظات نتوقف عن الشرب وعن الكلام حتى تنتهي ساعة الصلاة. هذا تقليد البار منذ أن فتح قبل ستة وستين سنة، كان افتتاحه يوم جمعة.

إذن اليوم هو يوم جمعة.

بحنين زائد، بدأ الجار الصامت يتحدث عن تاريخ هذا البار الذي اسمه (ألفريدي).

في هذا البار جلس كبار الشخصيات الدمشقية والشامية وسهر زوار المدينة القادمين إليها من كل أنحاء العالم، هنا كان يجلس زكي الأرسوزي والشهبندر وصدام حسين. وأشار لي إلى صورة لصاحب المحل الأصلي والذي هو سوري من أصل أرمني حيث يبدو في الصورة واقفا إلى جانب صدام حسين.

طلبت بيرة.

- الشرق أم بردى؟ قال النادل.

قلت:

- بردى. قلتها دون أن يكون لي سابق معرفة لا بهذه ولا بتلك.

صاحبي على الطاولة كان يشرب مشروبا أبيض، عرفت فيما بعد أنه «العرق».

فجأة تذكرت زبيدة وقد بدأ مفعول البيرة يصعد للرأس. أردت أن أنسحب لكن جاري نطق أخيرا سائلا:

- أنت من شمال إفريقيا؟

قلت:

– من الجزائر.

نهض وقبلني ثلاث قبلات على وجهي ونسي لثوان ساعته التي ظل يراقب عقربيها منذ هتكت عليه عزلته.

نادى على النادل باسم، اسمه موريس. جاء النادل وقف باحترام أمامه:

– طلباتك معالي الوزير؟

– عشاء لضيفنا وبيرة أخرى.

انتبهت فإذا الليل قد سقط. شعرت بأن ليل دمشق ينزل سريعا وكأنما الله يريد بذلك أن يسمح للدمشقيين بالحياة أكثر، لأن حياة المدينة هنا ليلها.

شعرت بأن صاحبي معالي الوزير قد نسي نهائيا ساعته ثم بدأ يحدثني عن جده لأبيه الذي كان متطوعا في صفوف الثورة الجزائرية، وعن عمته التي اشترطت على زوجها أن يهدي مهرها للثورة الجزائرية. أما أنا فأردت أن أحدثه عن القائد الذي اغتال والدي كي يسرق منه أمي. ولكني خجلت وربما أدركت أنه لن يصدق ما أقوله له. فالثورة الجزائرية بالنسبة إليه ثورة نبوية لا خطأ فيها وأن الثوار الذين قادوها ملائكة معصومون.

حين جاء الشواء، قطع لحم الخروف والدجاج سالت شهيتي فانتبهت بأني جائع وأنني لم آكل شيئا منذ البارحة، مكتفيا بوجبة الطائرة الباردة.

غير موريس الشريط في فم جهاز المسجل، وحين يغير موريس الشريط ويسمع الزبائن صعود صوت كريم محمود فهذا يعني بأن

السهرة قاربت على نهايتها.

تحركت بعض الكراسي وبدأ بعض الزبائن يغادرون المكان.

أما جاري الذي تأكد لي الآن بأن لم يكن له أي موعد مهم أو غير مهم على الرغم من انشغاله المفرط بمراقبة عقاربي ساعته، جاري هذا بدأ يحدثني وقد بدا عليه التعب من الشرب والتدخين عن جزائري يرتاد البار يومين في الأسبوع: السبت والأحد. قال عنه إنه مثقف كبير وسياسي فاهم ومناضل في صفوف الثورة الفلسطينية. كان يتحدث عن هذا الجزائري بإعجاب كبير دون أن ينسى أن يدعوني ويؤكد علي أن آكل ما جاء به النادل من لحم وأجبان وزيتون.

حين يطفئ موريس مصباح عتبة البار فتلك علامة على بداية نهاية السهرة.

لكم هم مؤدبون ومحترمون هؤلاء السكارى.

ينسحب الزبائن بأدب واحدا واحدا، يدفعون حساباتهم وهناك من ينصرف بدون دفع ولهم في ذلك تقاليد فهم يدفعون إما مرة في الأسبوع أو نهاية كل شهر، لكل طقوسه.

الآن خلا البار إلا من طاولتين عليهما آخر الزبائن يتحدثون عن جنون فنان تشكيلي فلسطيني اسمه مصطفى الحلاج. بدت لي الصالة كبيرة واسعة وقد كانت قبل قليل ضيقة وخانقة.

نظر صاحبي إلى ساعته، دفع الفاتورة وانصرف بعد ما تأكد من اسم الفندق الذي أسكنه.

خرجت، الآن أنتبه بأن البار بار «ألفريدي» يوجد في زنقة

صغيرة اسمها زنقة الجزائر. يا للصدفة؟

تتوقف على الفور سيارة أجرة عند قدمي. أركب وأطلب منه أن يوصلني إلى فندق قرطاجنة. كنت متيقنا أن الفندق ليس ببعيد ولكني فضلت أن أركب سيارة أجرة خوفا من الضياع في مدينة أمشيها لأول مرة ليلا.

كان الراديو في السيارة يعلن عن تواريخ التسجيل في الجامعة بالنسبة للطلبة السوريين والعرب والأجانب.

فجأة انتبهت فإذا زبيدة تعود لتسكن رأسي بعنف والسائق يهم بتوقيف السيارة أمام باب الفندق.

شعرت بالراحة إذ وجدت زبيدة في رأسي، معنى ذلك أنني لن أنام لوحدي في تلك الغرفة المغبشة التي تطل على ميدان المرجة حيث تتدلى أجساد المحكوم عليهم بالإعدام من ذاك العمود الإسمنتي المنصوب في مركزها.

نزلت راقبني السائق حتى تخطيت عتبة الفندق ثم انطلق، كأنما أراد أن يطمئن علي أو ليتحقق من أنني أقيم بالفعل في فندق قرطاجنة. لكم هو جميل اسم هذا الفندق الحقير؟؟

قبل أن أخطو في بهو الفندق في اتجاه مكتب الاستقبال لطلب مفتاح الغرفة، توقفت سيارة أجرة أخرى عند باب الفندق لتنزل منها ثلاثة فتيات ومخنث يرتدي ألبسة فاتحة ويمضغ علكة ويسير بحركات مؤنثة مبالغ فيها. عانقت الفتيات الثلاث المخنث وهن في حالة سكر بادية ثم دخلن الفندق تحت قهقهات عالية. تناولت المفتاح من يد القائم على الاستقبال. كان هو الآخر منشغلا

بالمنظفة صاحبة الأنياب الذهبية التي كانت تجلس شبه عارية في حجره خلف الكونتوار. أسرعت الخطى علني أركب المصعد وحدي، لكني حين طلبته تأخر مما جعل الفتيات والمخنث يلحقون بي قبل أن أدخل المصعد.

في المصعد لم تتوان واحدة منهن بأن سحبتني بين ذراعيها وقبلتني على عنقي. من لهجتهن أدركت أنهن جزائريات. لم أتكلم حتى لا أعلن أنا الآخر عن وهرانيتي.

انسحبت من المصعد سريعا إذ توقف في الطابق الثاني في حين واصل الأربعة صعودهم إلى الطابق الأعلى.

الفصل الخامس

ملكة النحل

كانت الابتسامة العجيبة للعنابية التي يطلق عليها الجميع اسم «فازو»، وهذا تصغير لاسمها الحقيقي «فوزية»، والتي تترك حفرة الزين على وجنتها اليمنى هي التي جرتني إلى كل ما سأحكيه لكم دون نقصان أو زيادة أو تحريف أو تخريف.

«فازو» شابة ذكية لا تتعدى حمل الربع قرن على كتفيها، مبتسمة دائما ومستعدة للحفل والاحتفال. امرأة صنعت خصيصا للفرح وقدت من فرح كامل. تمشي راقصة ولا تعود إلا راقصة. لا تهدأ ولا تكاد تستريح إلا لتبدأ الحركة والشيطنة. كل شيء تقبل عليه كأنما به وفيه تكتشف الحياة والدنيا لأول مرة وللمرة الأخيرة. تعبر عن فرحها الطفولي بقهقهات تطلقها في أروقة طوابق الفندق أو في بهوه الرئيسي، لا يهمها ما يراه أو ما يقوله الآخرون، هي مكتفية بنا نحن الذين نحيط بها ومنتظرة المفاجئات التي تعيشها كل ليلة.

- الحياة أيام كحبات المسبحة الكهرمانية علينا أن نعدها حبة حبة، يوما يوما حتى نعرف وندرك أننا عبرنا السلسلة كاملة وأننا عددنا حبات المسبحة إلى آخرها.

هكذا كانت تقول «فازو» وهكذا كانت تعيش. أتصورها، ومنذ عرفتها وكأنما تشد على الحياة بأسنانها. كانت تنهش الحياة كما تنهش تفاحة. حين تقاطعت خطواتنا في البهو، ذاك الصباح، كل

شيء تغير في حياتي. شعرت وأنا أنظر إليها وكأنما هي زبيدة جاءت متسترة في هذا الجسد الآخر لتراقبني وتشد على وحدتي في بلد لا أعرف فيه أحدا سوى ما قرأته عن جامع الأمويين وبعض الزعماء السوريين الذين جاؤوا للمشاركة في الثورة الجزائرية.

– لا أريد الحديث عن الثورة الجزائرية لأنه موضوع يثير في ذكرى القائد وأمي وأبي وقبو النبيذ الكولونيالي المعتق.

سلمت علي واحتضنتني كأنما تعرفني منذ عشرين سنة ثم قالت جملة مفتتة داخل ضحكة طويلة وحارة:

– أنت ابن البلد، أنت الذي ستكون القائد. سأربيك كما يربى السلاطين والأمراء.

ثم ضحكت وضحكت وعانقتني ولم أتكلم ولم تترك لي مجالا للحديث. أغلقت أمامي كل الطرق والبوابات.

شعرت بأنها وجدتني طيعا ومنقادا وضعيفا. سحبتني من ذراعي في اتجاه مقهى بهو الفندق قائلة:

– تعالى نشرب شايا وندخن سيجارة يا ابن البلد.

ساكتا، جرو غابة ضائع في مدينة، تبعتها طلبت لنفسها شايا وأمرت النادل، دون أن تطلب رأيي، أن يحضر لي قهوة معصورة على الطريقة الأوروبية من مقهى مجاور، فمقهى فندق قرطاجنة لا يقدم سوى القهوة التركية أو العربية، لا تهم التسمية. العرب يخلقون لهم أعداء حتى في الصراع على تسمية القهوة.

– أعرف أنك بحاجة إلى قهوة على طريقة البلد، إكسبريس.

بالفعل ذاك ما كنت أرغب فيه، قهوة معصورة ترفع عن رأسي

ضبابا يسد منافذ الضوء ويطمس علو السماء.

بمجرد أن اتخذت لها مكانا قبالتي سحبت النظارة السوداء من على عينيها فبدت آثار ندوب زرقاء على حفاف عينيها الواسعتين. هي لكمات عدائية دون شك. مررت منشفة بيضاء أسفل العينين ثم أردفت:

– العالم لا يرحم. المال يقتل ويحيي دون رحمة.

شعرت أنني أدخل سردابا جديدا. نظرت إليها فاستيقظ في ابن البلد الذي يريد أن يحمي شرف ابنة البلد. و«فازو» هي الشرف المهدور والمطعون في بلد بني أمية.

انتبهت فجأة فتساءلت من شرفه مهدور هي أم أنا؟

فقدت القهوة إكسبريس طعمها في فمي.

نزلت، فجأة، مسحة حزن على وجه «فازو» الملائكي. وسلمت نفسي لها. ساد صمت بيننا. فقدت «فازو» لسانها وهي التي لم تكن لتتوقف عن الهذر. شعرت بأنها مهزومة ومكسورة وعنيدة.

من هنا أسمع رنين تلفون مكتب الاستقبال، رنين متكرر ومزعج وكأنه صفارة إنذار عن حريق مهول. جاءنا النادل خافض البصر قائلا:

– تليفون لأجلك يا آنسة فازو.

قفزت من غفوتها وأسرعت إلى الهاتف. تأملت جسدها الملفوف في سروال جين بجيبين صغيرين على الإليتين المنتفختين المنصوبتين قليلا. بدت لي جميلة بقوام مشه وجسد مثير.

من هنا حيث أنا كنت أتتبع حديثها وهي تصرخ:

- ما كان عليك أن تفعل ذلك.

أدركت أنها كانت تتكلم إلى شخص ربما له علاقة بندوب الإصابة التي على أسفل عينيها.

كانت جادة في البداية ثم بدأت تقهقه وتقول كلاما فاحشا بالفرنسية. أنتبه الآن فإذا بفنجان القهوة قد برد أمامي تماما وهي لا تزال ترغي بصوت عال دون أن تولي اعتبارا لأحد. لقد نسيتني وقد أخذها الحديث إلى هذا الآخر على الطرف الثاني من الخط. أردت أن أن أنسحب إلى غرفتي. وحين عزمت على ذلك أنهت المكالمة وهي تقبل السماعة بقوة وبصوت عال.

عادت إلي وقد انتبهت إلى أنني كنت منزعجا قليلا على طول المكالمة وعلى طريقة محادثتها الفاحشة وكلامها البذيء الذي كانت تقوله بالفرنسية.

- تريد قهوة أخرى؟ وأخرجت سيجارة ثم ولعتها وسحبت منها نفسا عميقا ومنحتني واحدة. لست أدري لماذا قبلت السيجارة وأنا الذي لم أدخن منذ أن نزلت دمشق. السيجارة بالنسبة لي هي عملية تهييج زبيدة وفقط.

- لا أدخن.

- لكل شيء بداية يا ابن البلد.

نعم لكل شيء بداية ولكل قدم طريق ولكل حياة حكاية تختلف عن الأخرى وتلتقي معها جميعا في الميلاد والموت.

نظرت إلى صدر «فازو» كان نافرا. أردت أن أعتذر لها وأنسحب من هذه الورطة، لكنها سبقتني قائلة:

– الليلة ستذهب معنا إلى مطعم المطار، سنرقص ونغني ونشرب مثل المجانين.
لم أرد عليها ولكني ابتسمت ابتسامة الأبله قائلا:
– لي موعد مع أحد أبناء مدينتي وهران في بار اسمه ألفريدي.
ضحكت ثم قالت:
– أنت أيضا تحب السياسة والثقافة و«تكسار» الدماغ، هذا بار المثقفين الذين يسبون السلطة في الليل ويكتبون إلى أجهزة مخابراتها تقارير عن بعضهم البعض في الصباح. والسلطة لا تصدق أحدا وتحتقر الجميع.
– صديق قديم أريد أن أراه، ولي معه موعد هذه الليلة وهو لا يجيء دمشق إلا نهاية الأسبوع، إنه يقيم بالبقاع اللبناني.
– فلسطيني أم جزائري هذا، نزل من جبل الثورة في الأوراس ليخوض أخرى في سهل البقاع؟
كانت ملامحها توحي بأنها لا تحب السياسة ولا السياسيين. كانت تنظر إلي بنوع من السخرية والاستخفاف واللامبالاة وأنا أتحدث بحماس عن صديقي المناضل اليساري الذي ترك الجزائر وجاء ليواصل معركة تحرير الإنسان والأرض في فلسطين. الحقيقة، إنني كنت أدافع عن شخص لا أعرفه ولكني كنت أرغب في إثارتها وإثارة غضبها.
فجأة نزلت واحدة أخرى امرأة جميلة كانت تلف شعرها في منديل أزرق وكأنما نزلت على عجل من أمرها ولم تكمل حتى حمامها، شاهدتها وهي تحدث القيم على مكتب الاستقبال. لم تطل الحديث

معه حتى استدارت ثم جاءت في اتجاهنا. نظرت إلي بنوع من الاستغراب وكأني ساقط من سماء ثامنة، كلمت «فازو» في أذنها وقد شعرت بالحرج إذ وجدتني سخيفا وزائدا ومعكر صفوالأحاديث السرية.

أردت أن أنسحب من هذه المهزلة، لكن «فازو» أجهضت رغبتي بنظرة منها إلي قائلة:

– سنأخذه معنا الليلة، نحن أيضا لنا رجال.

كانت تقصدني، تعنيني ولكني لم أفهم كثيرا.

لماذا الآن بالضبط أفكر في الأمير عبد القادر الذي غادر منفاه مفضلا المجيء إلى هذه البلاد، إلى دمشق «دمشق» ليموت فيها ويدفن عند قدمي الشيخ الأكبر ابن عربي؟

دمشق مدينة سارقة، قادرة على خطفك من الدنيا لتبقيك في أزقتها وحاراتها وأريج قهوتها المعطرة بالهيل ونسائها المتدليات كالعناقيد المشهية من البلكونات والنوافذ الصغيرة الحانية التي تقبل أصص الحبق وشجر الياسمين.

حاولت أن أنسحب في سرية إلى غرفتي لكن «فازو» أصرت قائلة:

– ستذهب معنا الليلة.

بجدية فيها بعض القسوة والحسم، أجبتها:

– قلت لك لا، أنا الليلة على موعد مع صديقي، أرافقك غدا، إذا شئت.

قلت ذلك وانسحبت نحو المصعد.

لم تضف شيئا وقد أدركت بأني لن أغير موقفي. وفي الوقت نفسه شعرت بأنها كانت سعيدة من هذا الموقف الصارم الذي بدر مني. ربما كانت تريد أن تكتشف سر حدود رجولتي.

دخلت غرفتي، سحبت بعض أوراق نقدية فرنسية لتبديلها عند الصراف الذي لا يغادر عتبة الفندق ليلا ونهارا. يظل هكذا يصرخ في كل مار أو مارة: «صرف.. صرف.. صرف».

وأبو بسام الصراف، هكذا يناديه الجميع، لم أسمع منه حتى الآن كلمة واحدة غير كلمة «صرف». وأبو بسام رجل طيب وصادق يعرف عملات العالم جميعها ويعرف أسعارها مقابل الليرة أو الدولار. إنه يشبه بنكا بعداد إلكتروني. يعرف قبل البنوك حركة أسعار العملات العالمية في ارتفاعها وانخفاضها، دون أن يغادر عتبة فندق قرطاجنة حيث قضى به أزيد من نصف قرن.

وأبو بسام الصراف لا يرفض أية عملة مهما كان بلدها، فله زبائن يجيئونه من كل أصقاع الدنيا حاملين أوراقهم النقدية التي لا يعرف أحد في هذا البلد قيمتها إلا هو.

حين سلمته ألف فرنك فرنسي للصرف، نظر إلي وقال:

– أنت جزائري؟

أجبته:

– نعم.

وحكى لي كيف أنه استطاع أن يجمع في ليلة واحدة كل الأوراق النقدية الجزائرية من فئة خمسمائة دينار والتي أعلنت الحكومة الجزائرية من خلال بنكها المركزي توقيف العمل بها وأعطت لمن

بحوزتهم هذه الأوراق النقدية مهلة ثمانية وأربعين ساعة. وقد وصل ما جمعه في يوم وليلة ما وزنه خمسة أكياس خيش كبيرة كلها مملوءة بالأوراق ذات الفئة 500 دينار. كان أبو بسام يشتري ورقة 500دينار بعشر ليرات، بمهارته وذكائه استطاع أن يشحن الأكياس جميعها على متن طائرة تابعة للخطوط الملكية السعودية أعدت لهذه المهمة الخاصة فبعد أن شحنت عشرات أكياس من الأوراق النقدية ذات الفئة 500 دينار في السعودية حيث يهرب الحجاج والمعتمرون مختلف العملات حطت بمطار دمشق لتستكمل شحن ما جمعه أبو بسام من دمشق وبيروت. وهكذا استطاع أن يعيدها إلى البنك قبل فوات الأوان، وقد حقق من هذه العملية أرباحا طائلة اشترى بها هذا الفندق الذي يجلس إلى عتبته.

– اشتريت هذا الفندق ولكني كما ترى لم أستطع التنازل أو نسيان مهنتي كصراف والتي بدأتها وعمري لا يتجاوز الاثنتي عشر سنة.

منذ أن اشترى أبو بسام فندق قرطاجنة بما حققه من أرباح عن الأوراق النقدية الجزائرية أقسم أن يحوله إلى فندق للجزائريين خاصة والمغاربين بشكل عام. وقد قرر أن يحدد سعرا تنافسيا خاصا بكافة النزلاء من شمال إفريقيا.

وشيئا فشيئا ذاع صيت الفندق وبدأ كل من ينزل مطار دمشق من أهل شمال إفريقيا وجنوب الصحراء إلا وسأل عن فندق «المغاربة» وقد نسي الجميع اسمه الحقيقي الشعري: قرطاجنة.

في البداية كان الفندق مأوى للحجاج والمعتمرين الذين يمرون عبر دمشق برا في اتجاه الأماكن المقدسة. ثم سكنه الحجاج الإيرانيون الذين كانوا يجيئون لزيارة مقام السيدة زينب وعمل

السياسة، ثم فجأة اختفى الحجاج المغاربيون وجاءت موجة الفتيات الجزائريات اللواتي اشتغلن في تهريب الألبسة القطنية والحريرية ثم ما لبثت أن تغيرت هذه التجارة أو فشلت لتعوض بتجارة الأجساد. إذ لوحظ توافد آلاف الفتيات من الطالبات والأمهات العازبات وبائعات الهوى على دمشق ليملأن وفي غفلة من الجميع النوادي الليلية والفنادق الرخيصة وينافسن بشدة وحزم وصلت إلى درجة الشجار والاعتداءات ما بينهن ونساء شقراوات تم استجلابهن من بلدان أوروبا الشرقية. وهكذا أصبح فندق «قرطاجنة» فندقا لبنات الهوى من الجزائريات وبعض المراكشيات. لقد استطاعت الفتيات الجزائريات وفي ظرف وجيز طرد المراكشيات والتونسيات والاستحواذ على السوق كاملا. وهو ما اضطر المراكشيات إلى الانتقال إلى بلدان الخليج ليستحوذن على سوق الإمارات العربية والبحرين وتنتقل التونسيات إلى العراق والسعودية والكويت.

حين تدخل فندق قرطاجنة تشعر وكأنك في فندق بحي شعبي بباب الواد بالجزائر العاصمة أو بحي سيدي الهواري بوهران. القيمون على الفندق من إداريين وندل ومنظفات غرف جميعهم تعلموا اللهجة الوهرانية فلا يتحدثون إلا بها. في البداية أخافني جو الفندق كثيرا إذ عرفت بأنني في فندق خاص بالعاهرات الجزائريات، وما أخافني أكثر هو حين شممت رائحة الحشيش التي تملأ الأروقة ليلا ونهارا آتية من غرف النزيلات اللواتي ربطن علاقات مشبوهة مع رجال متنفذين في أجهزة الأمن والمخابرات. كان الجميع على علم وجميعهم يغضون الطرف ويأكلون من صحن ومن أجساد هؤلاء الفتيات اللواتي لا يتجاوز متوسط العمر لديهن العشرين سنة.

مع سقوط الليل تصطف عشرات سيارات الأجرة ومثلها من السيارات الخاصة أمام الفندق لشحن الفتيات إلى النوادي الليلية التي فتحت على أطراف دمشق بغوطتها التاريخية وريفها الجميل. ومع الفجر، ككل فجر، تعود الجلبة نفسها حيث تتوقف السيارات نفسها لإعادتهن إلى الفندق.

كان أبو بسام صاحب الفندق رجلا مؤمنا لا يتخلف عن أداء صلواته الخمس ومع ذلك كان لا يخفي علاقاته الجنسية مع بعض النزيلات من الحاجات الإيرانيات خاصة. لم تكن الفتيات الجزائريات ليثرن فيه أية رغبة جنسية. كان أبو بسام يقول: بنات الثورة الجزائرية، بنات وحفيدات المناضلة العظيمة «الشهيدة» جميلة بوحيرد لم يخلقن للجنس، لقد خلقن للثورة والحرية والشرف.

وكنت، كما في كل مرة أقول له مصححا:

- يا حاج أبو بسام جميلة بوحيرد لا تزال على قيد الحياة. كنت أناديه الحاج مع أن أبا بسام لم يحج ولم يفكر في حياته مغادرة دمشق لا في اتجاه الشرق ولا في اتجاه الغرب.

يضحك مني بسخرية عالية ثم يأمر لي بقهوة أو كأس شاي متجاهلا حديثي وتعليقي الصبياني الذي لا معنى له عنده.

وأسكت.

أنتظر مغادرة النزيلات جميعا. حين أتحقق من انتهاء الجلبة في الخارج. ويصمت آخر زعيق زمور سيارة أجرة، أنسحب إلى الشارع أتحاشى المرور أمام ساحة المرجة التي أقسمت ألا أمر فيها أبدا ما بقيت مقيما في هذه المدينة.

كعادته يجلس أبو بسام أمام عتبة الفندق يحمل في قبضته رزمة أوراق نقدية. أسلم عليه. يرد التحية. ثم ينصحني بألا أتأخر. فالوضع الأمني غير جيد.

كان كلام أبو بسام عميقا ورقيقا، هوالإنسان الوحيد الذي أشعر بأنه يقول ذلك خوفا علي من الوحوش النائمة والصاحية في هذه المدينة.

إذا كان السي مولود القائد قد رماني في قسم الداخلية كي يتخلص مني فإن أبا بسام يريد أن يبقيني في الفندق خوفا علي. لست أدري لماذا أشعر بأن في هذا الرجل شيئا من أبي الذي تخلص منه القائد بتآمر من أمي.

أشار أبو بسام لسيارة أجرة توقفت عند مدخل الفندق، كلم السائق الذي يبدو أنه يعرفه جيدا قائلا:

– خذه وأرجع إليه الساعة التي يريد ولا تأخذ منه ليرة واحدة، على حسابي.

كان كلام أبي بسام أمرا لا يناقش.

ركبت سيارة الأجرة. نظر إلي السائق من خلال المرآة الارتدادية. تفحصني جيدا جدا. ثم قال لي:

– إلى أين؟

– مطعم ألفريدي.

خفض قليلا من صوت المسجل أو الراديو الذي كان يرسل أغنية لنجاة الصغيرة. انا أحب صوت نجاة الصغيرة إنه أكثر الأصوات العربية الغنائية جنسية. ثم سألني:

– أي ساعة تريد أن أعود إليك؟
– ألفريدي يغلق أبوابه الساعة الواحدة صباحا.
كانت المدينة حزينة وحائرة وقد أغرقت تفجيرات الإسلاميين ساكنة دمشق في زوبعة من قلق.

الفصل السادس

حكاية الساعة
والجدة العاشقة أيضا

زبائن بار ألفريدي يسبحون في غيم من الدخان، كان الباب مردودا على النصف حين دفعته وتسللت إلى الداخل، نظر إلي الجميع بنوع من الغرابة والتساؤل، خجلا رفعت يدي إلى وجهي فشعرت لأول مرة بأن لحيتي التي نسيت أن أقلمها أو أهندمها أو أهندسها قد فاضت على وجهي قليلا. مررت بأصابعي في نعيم شعرها الزغبي فأحسست بملمس كملمس الحرير.

اخترت لي طاولة في أقصى الركن. وقبل أن أجلس جاءني الرجل الخمسيني، كان كما في المرة الأولى لا يكاد يرفع عينه عن عقارب ساعته التي أعتقد الآن أنها لا تشتغل وأن عقاربها ميتة. لست أدري لماذا الآن فقط فكرت بأن لهذا الرجل حكاية مع هذه الساعة التي هو مشدود إليها أكثر مما هي مشدودة إلى معصمه. أنا متأكد أنه سيحكي لي قصة هذه الساعة العجيبة. سلم علي بلطف زائد ثم عرض علي بإلحاح أن أشاركه طاولته، نفس الطاولة التي جلسنا إليها في السهرة السابقة. عرفت فيما بعد أن له طاولة خاصة محجوزة لأيام السبت والأحد الاثنين وأخرى لأيام الثلاثاء والأربعاء والخميس أخرى خاصة بيوم الجمعة حيث تحترم فيها طقوس ساعة صلاة الجمعة وذلك بالتوقف عن الشرب والاكتفاء بالنظر إلى الكؤوس ملئ أو فارغة أو نصف مملوءة وبالصمت

أيضا. كان بعض رواد البار يقاطعون شربهم ليؤدوا صلاة الجمعة بكل إيمان وإخلاص ثم يعودون بعد ذلك لمواصلة شربهم ونقاشهم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والجرائم التي بدأت تزحف على مدينة دمشق وقد كانت قبل سنوات هادئة وآمنة. شعرت بنوع من الاطمئنان إذ وجدت هذا الرجل يتذكرني ويدعوني للجلوس إلى طاولته. أخذت لي كرسيا، جاء النادل فورا، رفع الخمسيني نظره إليه قائلا:

- كأس عرق غير مغشوش لابن الثورة الجزائرية العظيمة، ثورة المليون ونصف المليون شهيد.

قفز النادل إذ سمع عبارة «ثورة المليون ونصف المليون شهيد» ملبيا طلب معالي الوزير كما كان الجميع يدعوه، لم يكن ذات النادل الذي خدمنا في أول مرة دخلت فيها هذا البار.

عاد الرجل إلى مراقبة عقارب ساعته. وعدت أنا بدوري إلى مراقبته. جاء النادل بقنينة عرق صغيرة وصب لي كأسا بمقاييس صارمة. نظر الغامض إلى الكأس حدق جيدا في لون بياضه ثم قال:

- جيد، غير مغشوش، تستطيع أن تشرب بئرا من هذا العرق دون أن يؤذيك. الشراب الصادق كالمرأة الصادقة. متعة في البدء وأخرى في النهاية.

ضقت بصمته فسألته:

- هل جاء الجزائري اليوم إلى البار كعادته؟

رمى نظره في القاعة، جال في أركانها لكن سحابة الدخان

الكثيف كانت تخفي كثيرا من الوجوه. نادى على النادل قائلا:
– الليلة، أين هي طاولة المانو؟
– إنه هناك، وأشار بعينيه إلى طاولة في آخر القاعة.

لم يضف الرجل الخمسيني كلمة. ألقى مرة أخرى نظرة متفحصة على عقارب ساعته التي لا تتحرك ثم قال:

– هذه الساعة، وشمر كم معطفه إلى الفوق قليلا كي يكشفها بشكل واضح، هي من بقايا رجل تركي عشقته جدتي سنوات حرب أتاتورك. كانت جدتي مغنية كبيرة، تحفظ عن ظهر قلب موشحات ابن زيدون وولادة بنت المستكفي، كان صوتها نعمة من الله عز جلاله، منزلتها في المدينة لم تكن تساويها منزلة مغنية أخرى. في سهرة من السهرات وقعت في حب أمير تركي. كان رقيقا معها ولشغفه بصوتها فقد طلب منها أن تهرب معه إلى مدينة إزمير أو يرحلا معا إلى جزيرة جربة التونسية التي أطلق عليها الشاعر الإغريقي هوميروس اسم جزيرة البجع في ملحمة الإلياذة والتي كانت ملاذا آمنا لليهود الذين لا يزالون حتى اليوم يحجون إليها لأداء شعائرهم السنوية المعروفة بالهيلولة في كنيس الغريبة الذي يعد أقدم موقع ديني يهودي في إفريقيا والذي يعود إلى ما قبل 25 عام ثم كانت الجزيرة فضاء آمنا للأتراك المسلمين فيما بعد. هذه الساعة هدية الأمير التركي لجدتي والذي قتل من قبل جدي شر قتل إذ قطع جسده إربا إربا ورمى به في البحر للحيتان.

لم يطل العمر بجدتي طويلا بعد رحيل عشيقها التركي إذ وجدت معلقة في إسطبل الأبقار الكبير الذي كان يملكه جدي. أقيمت لها جنازة صامتة ودفنت ليلا على غير العادة، وبسرعة نسيها الجميع

وتزوج جدي من حلبية أقسمت ألا تبقي في بيت كل من دخله إلا وذكر المغنية وأعاد رواية قصتها مع الأمير التركي على طريقته الخاصة.

قامت الحلبية مدفوعة بنار الغيرة بحرق كل ما وجد في بيتنا مما يذكر بجدتي إلا أنني استطعت أن أسرق هذه الساعة من بين أغراض جدتي الخاصة التي رمت بها الزوجة الجديدة للنار، ومن ذاك اليوم لم تفارق هذه الساعة معصمي ولم تبرح جدتي من ذاكرتي.

أراد معالي الوزير أن يقنعني بأن جدته لم تنتحر كما روى جده بل إنها سافرت إلى جزيرة جربة وهناك أقامت لها سلطنة على الجزيرة حتى توفيت ودفنت بكنيس اليهود في البدء ثم نقل جثمانها بعد سبع سنوات ليدفن في مقبرة المسلمين ويقام لها ضريح من المرمر والزليج الأصلي.

كان الرجل يتحدث بدقة وتدقيق عن جدته وأنا في المقابل كنت أنتظر لقاء هذا الجزائري المتواجد على جبهة البقاع اللبناني. وقد استثقلت تفاصيل حديثه عن جدته التي قال عنها إنها هي التي ربته بعد أن طلقت أمه من ابنها وهو لا يزال في الشهر الثاني وإنه عهد به إلى امرأة لترضعه كي لا يتزوج من بناتها فترث ملك العائلة.

دفعت بنصف المشروب الحليبي في بطني كي أتخلص من حكاية صاحب الساعة التركية.

فجأة سيطرت علي فكرة «أن أكون صرافا» على طريقة أبي بسام. إنه رجل هادئ يقضي حياته محتضنا رزم الأوراق النقدية. هادئا يحسب ويحسب دون آلة حاسبة كل شيء في رأسه. إنه لا

يخطئ في الحساب أبدا. نصف قرن أو يزيد وهو يشتغل في الصرف والتبديل ولم يخطئ ولو لمرة واحدة في سنتيم واحد. هذا الرجل يسكنني، يغريني ويحرك في أشياء بدأت تقلب العالم رأسا على عقب أمام عيني.

كان الرجل الذي أجالسه لا يزال يتكلم عن جدته وعن عشاقها وعن حبها للحرير الذي كان يجيئها به بعض تجار الأسواق العتيقة في حلب وفاس وطشقند. كانت جدته كما يقول تتعامل مع قطع الحرير كما تتعامل مع الكائن الحي. كانت تقول على حد قوله: الحرير يتكلم وهو الوحيد الذي يعرف ويفقه لمس جسد المرأة وفي مواضعها الحساسة. يحكى أن الحرير أصله رجل عاشق أحب امرأة جميلة متزوجة وحين اكتشف أمره وهو يحتضنها حوله إله العشق إلى حرير وظل هكذا ينتظر المصير متنقلا من جسد امرأة إلى أخرى.

أعجبتني حكاية معالي الوزير الذي بدأ مشروب العرق يلعب برأسه.

فجأة انتبه إلي وقال لي:

نسيت أن أقول لك، بأن اسمي أبو بسام.

هو الآخر اسمه أبو بسام. أنا بين رجلين يحملان نفس الاسم، أبو بسام قرطاجنة وأبو بسام ألفريدي.

نظرت إليه كان يختلف عن أبي بسام صاحب فنقد قرطاجنة والذي يقضي العمر ماسكا على حزم الأوراق النقدية المختلفة الأجناس أما هذا فيقضي حياته ماسكا على حزمة من الأوهام

والهذيان.

انفتح الباب استدار أبو بسام قليلا ثم قال:

– ها هو جاء. كنت أعرف أنه سيجيء ولو متأخرا.

رفع كثير من الزبائن كؤوسهم تحية للقادم تعبيرا عن حبهم له وفرحتهم برؤيته، وصرخوا دفعة واحدة:

– حياتك يا أبا إيفا؟

اتخذ له مجلسا في أول طاولة دون أن يختار أو يتردد. كانت الطاولة التي جلس إليها قريبة من طاولتنا.

حياه أبو بسام بأن رفع كأسه ومثله فعلت. كان أبو إيفا رجل أربعيني مدكوك القامة أسمر اللون حتى كاد لونه أن يطل على السواد ربما من لفح شمس البقاع القاسية، في حركاته كثير من الخجل المخبئ في ثقة بالنفس مظهرية وغير حقيقية. صب له أحدهم كأس عرق ثم أضاف إليه ماء حتى ابيض، رفع أبو إيفا الكأس ووقف ونادى في الجميع:

– على نفس يا شباب.

كان الجميع يعرف ما يقصده أبو إيفا من عبارة «على نفس»، ومعناها شرب ما بالكأس دفعة واحدة.

شرب كأسه حتى آخرها ثم حك شعر رأسه وطلب جبنا بلديا ولبنة. لم أستطع أن أشرب ما في كأسي دفعة واحدة فأنا لست متعودا على هذا الشراب القوي. لقد فتحت عيني صدفة على نبيذ معتق في قبو فيللا كولونيالية، نبيذ ناعم كحرير جدة أبي بسام الثاني.

بعد الكأس الثالثة غير أبو إيفا طاولته وهي كما يبدو عادته إذ يقضي ساعات السهرة من كأس طاولة إلى كأس من طاولة أخرى. يتنقل من طاولة إلى أخرى حتى يطلع الصباح. فيدفع الحساب كاملا في آخر طاولة يجلس إليها.

حين وصل طاولتنا سلم علي وقد أدرك على الفور بأني من بلاده، من الجزائر، بدأ يكلمني بالفرنسية كي أستأنس إليه أو كي يؤكد لي بأنه جزائري، وأنه لم ينس اللغة الفرنسية التي درس بها في ثانوية لطفي بوهران، كانت تسمى قبل الاستقلال بثانوية الفتيات lycée des jeunes filles.

حين عرف بأننا من مدينة واحدة شده فجأة الحنين إلى وهران، شرب كأسه دفعة واحدة ثم حك رأسه كما في المرة الأولى.

– على نفس، هكذا يجب أن نشرب كأس المدينة الجميلة، مدينة وهران.

ثم صمت قليلا. وكأنما كان يقلب أوراق الذاكرة ويقرأها صفحة صفحة.

أنتبه الآن بأنه كان يحمل مسدسا مغروسا في حزامه على طريقة تشي غيفارا أو ياسر عرفات. أدرك بأنني انزعجت لوجود هذا السلاح هنا وفي مثل لحظات الشرب هذه فحاول أن يخفيه بأن سحب جاكيطته ذات اللون الكاكي قليلا ليستره.

اسمه الحقيقي حسين بن لعلام وحين نزل بيروت أول مرة متطوعا في فصيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اتخذ لنفسه اسما حركيا هو «المانو» وهي كلمة تعني «الحظ» باللهجة

الوهرانية.

تخرج صيدليا من جامعة الجزائر العاصمة ثم عاد إلى وهران ولكنه قرر في الأخير أن يختفي من هذه المدينة وأن يعطي ما تعلمه هدية نضالية للثورة الفلسطينية.

حين زرت المانو في بيته بعد أسبوع من هذا اللقاء الأول استقبلني بحفاوة ابن البلد.

كان فخورا بمكتبته التي جمع فيها بزهو جميع أجزاء كتاب رأس المال لكارل ماركس وقراءة ألتوسير للكتاب نفسه إلى جانب الأعمال الكاملة للينين وماو تسي تونغ وحين رآني مهتما بما تحتويه مكتبته أخرج لي كتيبا مترجما إلى العربية كتبه كارل ماركس عن الجزائر والهند، كان فخورا أن يكون هذا الرجل العظيم قد أعطى من وقته للكتابة عن الجزائر التي قضى فيها بعض شهور للاستشفاء.

كان المانو عاشقا لألبير كامو وقد حفظ كثيرا من مقاطع نصوصه من رواية «الغريب» و«الطاعون» و«أعراس». أما أنا فعلى العكس منه فقد كنت أكره كامو، لأنني كنت أشعر أنه لم يكن شجاعا لاتخاذ موقف مع الثورة الجزائرية، كان غامضا ومنحازا إلى فرنسا أكثر من انحيازه إلى الحرية والاستقلال. في المقابل كنت مقدرا كبير التقدير لمواقف سارتر الذي رفض جائزة نوبل والعالم يقمع الحرية وهو الذي حرك المثقفين الفرنسيين الديمقراطيين واليساريين ضد حرب الجزائر ودعا السلطات الفرنسية إلى توقيف الحرب ضد الجزائريين ومنح هذا البلد حريته واستقلاله.

تلك الليلة التي قضيتها في بيت المانو تعرفت على صديقته أو

زوجته التي يقاسمها الحياة وله منها طفلة سماها «إيفا». لم يكونا متزوجين ولكنهما كانا يعيشان حياة عشرة كاملة. وكانا في نظر الجميع بمثابة زوجين.

في حقيقة الأمر لم تكن الثورة الفلسطينية هي التي جاءت به إلى بلاد الشام. لقد كان الدافع الحقيقي هي فضيحة اكتشاف خيانة زوجة أخيه الأكبر لزوجها الذي يشتغل سائق سيارة أجرة على خط وهران – الجزائر العاصمة حيث يقضي الليل ما بين هاتين المدينتين مما جعل زوجته تنسج علاقة مع أحد بائعي السردين المتجول أعجبت بصوته وهو ينادي على سلعته بين الشوارع.

«سردين، سردين، سردين».

حين اكتشفها في حضنه وعلى سرير الزوجية ذات ليلة عاد فيها بعد أن أمرتهم الشرطة بعدم المغامرة في طريق غير سالك نظرا لأمطار فيضانية تسببت في قطع الطريق، ببرودة أخرج سكينا كان يستعملها لنحر أضاحي العيد السنوية وعلى آذان صلاة الفجر جز رأسها ورماه في الشارع مع جسدها عاريا كما وجدها.

كانت الفضيحة التي فجرت الأسرة وشتتت شملها. لقد هاجر الأخ الأصغر إلى اسبانيا. ومن يومها لم يعرف عن أخباره شيئا. ولا أحد تجرأ السؤال عن مصيره أو مقامه. أما أخته التي وهبت جمالا نادرا والتي كانت ترغب في أن تكون مغنية وكانت تحب أم كلثوم وتحفظ لها أزيد من اثنتين وثلاثين أغنية، وكانت تعشق الفنان أحمد وهبي وترغب في الزواج منه وكانت تصرح بأنها ترضى أن تكون الزوجة الثانية أو العاشرة لأحمد وهبي، هذه الجميلة حين ضاق بها الحي وامتدت الألسن تلوك أخبارا عنها

والقائلة بأنها تسافر إلى القاهرة وأنها تقضي لياليها راقصة ومغنية في النوادي الليلة مع عبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب ورجال الفن الذين لا تربية ولا أخلاق لهم ولا عين لهم سوى تلك التي يضعونها على أجساد النساء الجميلات، حين حوصرت بهذا الكلام تزوجت رجلا أعمى كان يشتغل دلالا للمخطوطات والكتب القديمة.

ولدلال الكتب هذا حكاية غريبة، إذ كان يشتري الكتب القديمة والمخطوطات التي كان ينتقل لأجلها حتى أقاصي الجنوب في أدرار وتندوف ويقال إنه سافر لأجل المخطوطات حتى تنبوكتو ونواكشوط وسجلماسة والعيون وأنه كان يعرف قيمة المخطوطة من رائحتها ومن لمس الجلد أو رق الغزال أو الورق الذي كتبت عليه. كان يحفظ عناوين المخطوطات النادرة ويعرف أماكنها ويعرف من يطلبها من بخارى مرورا بحلب وحتى برقة. كان يلمس المخطوط فيقول لك هذا مخطوط يعود للقرن كذا وقد خط بخط مغربي أندلسي أو سواحلي أو ديواني وكان يعرف ثمن المخطوط وما هو المخطوط الذي يساوي وزنه ذهبا. وقد استطاع بهذه التجارة أن يجمع ثروة طائلة ويؤسس لمكتبة نادرة يجيئها الباحثون من كل أنحاء الدنيا.

حين قبل الزواج اشترط عليها ثلاثة أمور أولها ألا تغني إلا له وله وحده كل مساء، وأن تتعلم فن برم سجائر الحشيش وأن تعرف اختيار أجود الورق لذلك وأن تتقن حشو قصب السبسي وأن تغسل له قدميه بالماء الدافئ المالح وتمسدهما ليس احتقارا إنما لكي تهيج فيه الرغبة الحيوانية كل يوم اثنين ويوم جمعة وهما اليومان المباركان عند المسلمين.

وافقت الجميلة على هذا الزواج بشروطه لا لشيء إلا لأن دلال المخطوطات لم يمنعها من الغناء وهي لم تكن لتتصور حياتها بدون أن ترفع صوتها لحنا وإنشادا، بل زادت سعادتها أن اكتشفت موهبته في العزف على العود وموهبته في ممارسة الجنس وهما أمران متصلان، كما أنه كان يحفظها كل مساء بعض أبيات عمر الخيام والحافظ وأبي نواس وبشار بن برد ويطلب منها أن تغنيها على وقع عزفه الجميل. كانت سعيدة معه السعادة كلها إلى أن جاء يوم النحس ذاك، حيث دخل دارهما الشيطان ممثلا في رجل وسيم يخطف الأبصار جاء ليشتري من الشيخ خمسة مخطوطات كان قد تم اقتناؤها من تومبكتو. كان الرجل كما يبدو ثريا من أمراء الخليج وعارفا هو الآخر بالمخطوطات معرفة المتخصص. كانت الزوجة ترافق زوجها في جميع الجلسات التي يتم فيها بيع وشراء إذ أن المكتبة عبارة عن أوسع غرفة من غرف البيت مجهزة بمجموعة من الرفوف اللوحية الفائقة التنظيم، ولتستقل المكتبة بحرية في الدخول والخروج فقد تم فتح باب مستقل لها يؤدي إلى الشارع مباشرة.

كان الزبون سعوديا أو إماراتيا وقد تحدث ساعتها عن كونه ينشئ أكبر مكتبة للمخطوطات في العالم الإسلامي وأن له مريدين ووسطاء يبحثون له عن المخطوطات النادرة في جميع أركان الكرة الأرضية.

رمى الزبون صنارته على المرأة قبل أن يلقيها في بحر المخطوطات. كان الزوج وبحاسة غريبة يدرك ما يجري حوله حين يتعلق الأمر بزوجته. تنحنح إذ شعر بصمت يحيطه وكأنه الصمت

الذي يسبق العاصفة. لعن الشيطان عاليا وبصوت جهور. ثم عاد الصمت فلعن الشيطان مرة ثانية. وحين عاد الصمت وتوقف كلام الزبون وكأنما نسي الغرض الذي لأجله قطع آلاف الكيلومترات.

نهض الزوج ثم توجه بالحديث إلى الزبون قائلا:

– هي لك. أما المخطوطات فلا.

ساد الصمت، انسحبت الزوجة التي كانت تصغر الزوج بربع قرن تقريبا، ثم أضاف الزوج:

– أنت لم تخلق لغواية المخطوطات أنت خلقت لغواية النساء. وبين المخطوطات والنساء عداوة عظيمة.

ثم أمره أن ينصرف معتذرا عن بيعه المخطوطات التي يبدو أنه جاء لأجلها من بلاد النبي عليه الصلوات والسلام.

وفي المساء نادى على زوجته فجاءته، قال لها:

– اليوم لن تغني، وأنا لن أعزف وأنت حرة حرة حرة.

بكت وبكت وغسلت له قدميه بالماء الدافئ والملح ولكنه ولأول مرة لم يشعر تجاهها تلك الليلة بأية رغبة جنسية. وهكذا ظلت حالهما يعيشان تحت سقف واحد دون علاقة جسدية ودون موسيقى ولا غناء وقد كانت ملتهبة قبل حادثة مجيء الرجل الخليجي.

مر على برودتهما فترة من الزمن جاوزت الستة أشهر، وذات ظهيرة جاءته قائلة:

– إنك أيها العالم لقد برد خاطرك تجاهي وماتت نفسك التي كانت تلتهب لأنفاسي، فأنا الآن حرة، وسأنسحب من حياتك، سأرحل.

يقال والله عليم إنها يممت بلاد عرب الخليج ليس بحثا عن

مقتني المخطوطات إنما بحثا عن موسيقي ذاع صيته في بلاد الإسلام قاطبة، ويقال أيضا إنها وكغيرها من بنات الجزائر، حفيدات الثورة العظيمة نزلت ضيفة على فندق قرطاجنة وأنها اتخذت لها اسما جديدا هو «فازو» وباتت تغني أغاني أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب في النوادي الليلية وأن حالها المادي قد تحسن بسرعة كبيرة مما سمح لها بشراء بيت يشبه القصر بدمر ليس بعيدا عن القصر الذي كان يقيم فيه الأمير عبد القادر الجزائري، ذاك الذي حمى مسيحي الشام من إبادة جماعية، وقد أصرت كذكرى لزوجها من دلال المخطوطات والكتب القديمة أن تقيم ببيتها مكتبة للمخطوطات، مع مر الزمان بدأ يجيئها العلماء والتجار المحترفون والطلبة من الباحثين من كل الجهات، ويقال إن سعادتها بلغت السماء ذاك اليوم الذي استقبلت فيه زوجها السابق دلال المخطوطات وذكرته بأيامهما وبكى بكاء مرا وطلب منها أن تعود إلى بيته فرفضت.

كان المانو قادرا وبكل بساطة أن يصل إلى أخته الصغرى في رمشة عين وهو الذي تربطه بالمخابرات الفلسطينية روابط عميقة لكنه لم يكن يرغب في التأثير على حياتها أو إحراجها.

حين عدت إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل وبعد أن سمعت حكاية هروب أخت أبي إيفا، وكلما نظرت إلى فتاة من فتيات فندق قرطاجنة أشعر وأنها هي أخت المانو، متخفية في اسم كما يختفي أخوها في اسم مستعار.

وكنت أراقب السجل الرسمي لنزيلات الفندق علني أسقط عليها متخفية في غرفة من هذه الغرف البئيسة. وكنت إذ أسمع صوت

فتاة من فتيات بلادي يدندن تحت مرشة الدوش أنصت السمع عله يكون صوتها وهي تغني أم كلثوم أو أغاني أحمد وهبي.

لماذا فجأة سكنتني حكاية هذه المرأة الشابة الجميلة التي خانت زوجها وخرجت إلى بلاد الشام؟

أنظر إلى سرب الفتيات الجزائريات حين مغادرتهن الفندق للعمل بالنوادي الليلية وفي بيوتات المواعيد الخاصة وأتساءل لماذا الشام؟ لماذا لدمشق كل هذا السحر وهذه الجاذبية على الجزائريين والجزائريات من أيام الأمير عبد القادر الذي حاول الاستقرار في تركيا ولكن نداء الشام كان أقوى؟

الفصل السابع

الصراف والدمى

روي عن علي رض أن رجلا خاصم إليه أبا امرأته فقال: زوجني ابنته وهي مجنونة. فقال: ما بدا لك من جنونها؟ فقال: إذا جامعتها غشي عليها، فقال: تلك الربوخ لست لها بأهل أراد أن ذلك يحمد منها، وهي المرأة يغشى عليها عند الجماع من شدة الشهوة.

هذا اليوم، لأول مرة منذ أن نزلت فندق قرطاجنة يغيب مرة أبو بسام عن مكانه المعهود قدام العتبة وأعوضه، انا جرو الجبل، بعد أن تمرنت على يديه أزيد من سبعة أشهر. ما في ذلك شك فأنا أيضا ذكي في الحساب وأعرف جيدا عمليات الكسور الدقيقة والفواصل والسنتيمات.

يجلس أبو بسام النهار بطوله، قره وبرده، ريحه ومطره، والعام بفصوله، صيفه وشتائه، خريفه وربيعه، يجلس عند عتبة الفندق يلاعب حزمات أوراق العملات يعدها ويضحك ويشرب الشاي كأسا فوق كأس أخرى فوق أخرى، ولا يمل، ويلم الفوائد فوق الفوائد دولارا فوق فرنك على درهم فوق باون على ين على دينار... ويدندن أغنية لمحمد عبد الوهاب، عزيزة إلى قلبه: (يا وبور).

أبو بسام يلعب بالحساب. وله صوت جميل.

حين أدهشني وأغواني شغل أبي بسام طلبت منه أن يعلمني

حرفته السعيدة التي تسيل مالا بين أصابعه وتسيل ابتسامة دائمة في عينيه. منذ عرفته، لم أشاهد أبا بسام، ولو لمرة واحدة، غاضبا أو منزعجا.

بدأ الملل يصيبني من دروس الجامعة ومن الخطب السياسية التي امتلأت بها محاضرات الأساتذة ومن كثرة المظاهرات اليومية التي تكسر كل تحصيل وجد، في الصباح مظاهرة ضد إسرائيل وبعد الزوال أخرى مساندة لجبهة الصمود والتصدي وفي المساء ثالثة ضد أمريكا ورابعة ضد الرجعية العربية... والمظاهرات لا تنتهي واللافتات والشعارات المكتوبة بخط كوفي جميل تطول وتتنوع أساليبها وسجعها وأخطاؤها اللغوية. ضقت ذرعا من كل ذلك فقررت مقاطعة دروس الجامعة نهائيا واتخاذ أبي بسام معلما. في البداية ضحك مني ولم يول رغبتي كثير اهتمام حين اقترحت عليه أن أساعده وأن أتعلم منه هذه الحرفة الرائعة والمربحة والتي لم ينتبه إليها إلا الراسخون في علم الحياة بعنفوانها.

رد على الاقتراح معلقا بكلام ما بين الجد والهزل:

-..و أنت إضافة إلى ذلك تعرف لغة الفرنجة فأنت تتحدث الفرنسية والإسبانية والانجليزية، أنت بنك حقيقي يا ولدي، إن فيك كنزا سيكون عليك خيرا إذا ما عرفت كيف تستثمره.

وجلست إلى جواره وأخذت لي كرسيا ونشاشة ذباب وكأس شاي كبير وبدأت أنا الآخر أبحلق في المارة وأحاول أن أميز وجوه الأجانب من بين هذه السيول البشرية.

قال أبو بسام:

– والأجانب أصناف يا بني: عرب والعرب أصناف خليج وإفريقيا وأسيويون والأسيويون أصناف أيضا يابان وصين وأفغان وأوروبيون وأمريكيون.

في البداية لم أكن أستطيع التمييز ما بين ملامح الياباني والصيني والفيتنامي ثم بعد دروس أبي بسام بدأت تتجلى لي الفوارق شاسعة بينهم. وكنت لا أميز بين لهجة الإماراتي والسعودي والبحريني والعراقي وفي أقل من شهر بدأت أميز بينها وأتكلمها أيضا.

كنت سعيدا إذ أقوم صباحا باكرا أشرب القهوة العربية التي تعودت عليها بديلا عن القهوة المعصورة، لم تعد رائحة الهيل تزعجني كما كانت في الأيام الأولى لوصولي دمشق بل على العكس من ذلك تماما فقد أصبحت أفضل أريجها هذا حتى أنها كادت تنسني أريج قهوة أمي المفلفلة. إن قهوة كقهوة أمي لا تنسى أبدا حتى وإن كنت أحقد عليها كثيرا.

آخذ لي مكانا على كرسي مصنوع من أعواد الزان وأجلس بجوار أبي بسام النهار بطوله، أدقق في كل حركاته وفي لغته وفي طريقة عد الأوراق التي تنساب شلالا بين أصابعه كالبرق. أدقق الحساب من بعد كل عملية صرف فلا أجد ما يدقق، كل شيء دقيق وبالدقة، ولكني كنت وأنا أعيد عد هذه الأوراق أتعلم آلية تدويرها بين الأصابع والتمرن أكثر على الحساب المتقاطع لعملات مختلفة وبقيم متفاوتة. لم يمض وقت طويل على مرافقتي معلمي، حتى وضع أبو بسام ثقته في، كل الثقة:

قال لي:

لقد تأكدت فراستي فها أنت تظهر عبقريتك في الحساب وفي اللسان، أنتم الأمانة كل الأمانة يا أبناء ثورة المليون والنصف مليون شهيد.

كان يترك لي مفتاح الصندوق ويضعني وحيدا أمام حزمات العملات الأجنبية المختلفة الأحجام والألوان واللغات والرموز. كنت أعمل كلما في جهدي حتى لا أخيب ظنه وأن لا أخون أمانته وهو الذي يناديني تارة بابني وتارة ابن المليون ونصف المليون شهيد.

يوم بعد آخر كان أبو بسام يبدي عن سعادة كبيرة تجاه ما أقوم به.

كنت أشعر به سعيدا وهو الذي لم يرزق بذكر، كل ما رزق به كن من البنات وقد بلغ عددهن ستة عشرة. ولكنه كان مقبلا على الحياة بمسرة، ولم يكن قانطا مما أعطته السماء. كان أبو بسام مؤمنا قنوعا يحب الله ويرضى بما يمطره عليه. بدأت أفقه أسرار عمل الصراف شيئا فشيئا، كل يوم بدرس. تعلمت مخاطبة الناس وبدأت أميز وجوه الأجانب والعرب القادمين من الخليج وكنت لا أتردد في أن أطلب لهم كؤوس الشاي في الشتاء والماء البارد أو عصير التوت أيام القيظ. وبدأت أتعلم قليلا من الحديث والحساب بالفارسية وتعلمت بسرعة اللغة التركية بحسابها أيضا وجملها السياحية والترحيبية، وهو ما أدهش أبا بسام فقررعلى الفورإعفائي من دفع أجرة الغرفة نهائيا..

قال لي:

–أ نت صاحب الفندق، من الآن فصاعدا لن تدفع ليرة واحدة، أنت في بيتك.

صعدت للغرفة وقد أثر في موقف أبي بسام، ولأول مرة بعد مرور عام تقريبا منذ نزلت على المدينة، أفتح النافذة. وأتشجع لرؤية ساحة المرجة. كنت أريد أن أتصالح معها. كان الأمر صعبا علي أن أنظر إلى هذاك العمود الذي كانت فيه معلقة جثة الرجل الثلاثيني. كانت الساحة عادية، ألقيت عليها نظرة سريعة ثم استدرت دون أن أقفل النافذة التي كانت تدفع بهواء منعش وصراخ الباعة المتجولين والعارضين سلعهم على الأرصفة.

انسحبت إلى الحمام، نزل الماء باردا ثم دافئا على جسدي الذي بدا لي معكوسا في مرآة الخزانة المتشققة نحيفا أكثر من اللازم. من الغرفة المجاورة يجيء صوت امرأة يسكب ألحانه في اتجاهي. كان صوتها جميلا ومثيرا للرغبة الجنسية، أتخيلها هي الأخرى تحت الماء، تقوم بما أقوم به أنا الآن: عمل الشيطان. لست أدري لماذا ذكرني صوتها بصوت أخت المانو التي هربت في اتجاه الشام أو الخليج. الآن أنتبه بأن المانو لم يظهر كعادته في بار ألفريدي منذ أزيد من شهرين. يرجع سبب غيابه كما قيل بين سياسيي بار ألفريدي إلى الوضع الأمني والعسكري المتأزم في البقاع، هناك خلافات وصلت إلى حد الاشتباك بالسلاح الناري ما بين بعض عناصر الفصائل الفلسطينية من جهة وبعض عناصر فصائل القوات اللبنانية من جهة أخرى.

عرب عرب عرب؟؟؟

كنت أدقق حساباتي ثلاث مرات في الليل، قبل أن أسلم الحساب لأبي بسام في اليوم التالي، وقد فتحت لذلك سجلات حسابات لا تغيب عنها الشاردة ولا الواردة، حتى لا أخيب ظن معلمي الكبير.

لم أدر كيف أصبحت وفي مدة سنة وبعض شهور مسئولا عن صندوقين صندوق أبي بسام للعملات الأجنبية: فرنسية وأمريكية ويابانية وإنجليزية وخليجية ومغاربية وغيرها... وصندوق فتيات الغرف، إذ اتفقت النزيلات جميعهن على أن أتولى الإشراف على كل ما يجئن به في نهاية كل سهرة، وقد خصصت لكل واحدة منهن حافظة صغيرة أجمع لها فيها أموالها بدقة. كن يعدن في قمة سكرهن، فآخذ منهن ما في حقائبهن، واحدة واحدة ولم تكن أية واحدة منهن لتحتج. كنت رجلهن جميعا.

كن سعيدات بمساعدتي لهن وكن يقدمن لي مقابل هذه الخدمة ما يرغبن فيه فما كنت لأفرض شيئا أو أطمع في شيء، فأبو بسام كان يعطيني ما أريد كي أدفع فاتورة طاولتي في بار وأشتري ألبسة عالية الجودة، فأنا أريد أن أكون أنيقا دائما.

لأجل ذلك أطلقت علي نزيلات الغرف اسم)وزير المالية(.

مع أن فازو العنابية كانت أقربهن إلي وكانت أكثرهن حظا في اصطياد الزبائن من الوزن الثقيل، زبائن من رتب ومراتب عالية في الدولة والعسكر والمخابرات.

كنت دائما أوصيها ألا تتورط مع أحد منهم في أكثر مما تطلبه مصاحبة فتاة الليل، إنهم على كل شيء قادرون. تعلمت مثل هذا الكلام من أبي بسام الذين كان يطلب مني ألا أتدخل كثيرا في علاقاتهن لأنها علاقات تجلب الهم وووجع الرأس. كلما أدرك أن نخوة وطنية وغيرة أو حمية «بلدياتية» تشدني للدفاع عن نزيلات الفندق كان يوصيني:

– يا بني الدنيا أيام قليلة، اغتنم عسلها ولا تحزن ولا تتعصب.

ثم يقدم لي كأسا كبيرة من البابونج مضيفا:

– هذا الشراب يهدئ أعصابك الجزائرية.

أشرب كأس البابونج وأشعر بالفعل بارتخاء في جسدي وبأن أعصابي قد هدأت وعاد مزاجي رائقا، أعود فأبدأ في عد حزم الأوراق النقدية، وأسخر من أبي بسام قائلا:

– هذه الحزمة فيها نقص بما قيمته ألف ليرة يا أبا بسام.

وأبو بسام لا يتحرك ولا ينتبه إلى كلامي الذي يسقط في أذنيه ككلام أطفال.

– أبو بسام لا يغلط يا ابن المليون ونصف المليون شهيد. نحن على العكس منكم أخطأنا الثورة ولكننا لا نخطئ الحساب أما أنتم في الجزائر فقد أصبتم في الثورة وأخطأتم في الحساب. لا ثورة بدون حساب يا ولدي، يا ابن ثورة المليون ونصف المليون شهيد.

أحببت فازو العنابية لشيء أساسي فيها حيث إنها تشبه زبيدة كثيرا وكانت تغريني بلهجتها القريبة من لهجة التوانسة التي فيها كثير من الغنج والتدلل. وكانت تقرأ الشعر والرواية بالفرنسية والعربية، تقضي ساعات طويلة من يومها في المطالعة قبل أن تنزل لشغلها في الليل. كانت تقول لي:

– أريد أن أكون كاتبة كمارغريت دوراس.

كانت تترجاني أن أناديها باسم «مارغيت»:

– لقد مللت اسم فازو، أصبح كالحبل حول عنقي، الأسماء مشنقات نحملها بطواعية وذل حول أعناقنا منذ الصغر.

كنت أفعل ذلك وكانت لا تستجيب لمناد إذا ما ناداها باسم

«العنابية» أو فازو.

لقد قرأت كلما كتبت مارغريت دوراس، وشاهدت كل الأفلام التي اقتبست من أعمالها الروائية. كانت مسكونة أيضا بفيلم «حب في هيروشيما» الذي كتبت له السيناريو وكانت العنابية تجيئني لتحكي لي حياة هذه الروائية الفرنسية التي سكنتها وسرقت منها شخصيتها بالمطلق، كانت تقول إنها جمعت ما بين الروح الشرقية حيث ولدت بالهند الصينية وهناك عاشت طفولتها وباريس بكل عنفها وصخبها. كانت معجبة بشخصية دوراس وبالكيفية التي أدارت بها علاقاتها بأكبرالشخصيات من الكتاب والسياسيين الباريسيين من أمثال جورج باطاي وموريس بلانشو وكاسطون غاليمار وفرانسوا ميتران وألان روب غرييي وغيرهم، وكانت على قصر قامتها هي الكبيرة دائما والمحور أيضا.

كانت تأخذني في حضنها وتقول:

– عاشت دوراس بعنف وبشعرية هكذا أريد أنا الأخرى أن أعبر الحياة، مثلها تماما، أريد أن أتزوج وأطلق، أن أشرب حتى أمرض، حتى أجن فأدخل المصحات العقلية، ثم في الأخير مثلها أتعرف على شاب وسيم ووديع أعيش معه أيامي الأخيرة نمارس الجنس بعنف وهمجية ونشرب كل أنواع المسكرات وندخن كل الممنوعات ومثلها أموت وأكتب كتابي الأخير

«Je suis morte»

وأنسحب دون خاتمة لأن الحياة لا خاتمة فيها ولها إنها أيام متتاليات تمتد وتمتد وتمتد دون توقف. إن حياتي أريدها أن تكون هكذا كالدوخة التي تجيئنا بعد شراب مسكر ناعم

وقوي.

كانت العنابية فيلسوفة وهي التي غادرت الجامعة بعد أن أنجزت رسالة ماجستير في الفلسفة عن ميشيل فوكو وبالأساس عن أهم مؤلف كتبه وهو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي.

كانت العنابية ما أن تسقط على شخصية من شخصيات روايات دوراس فتعجبها حتى تنزل بسرعة البرق إلى غرفتي نصف عارية، تحتضنني وقنينة العرق الصافي في فمها وهي تصرخ:

– هذا هو العاشق «C'est celui là l'amant».

وأحتضنها وأشعر أنها على حافة الجنون. كانت تمارس الجنس بعنف رهيب مما كان يجعلني أخاف أن تموت وهي تلهث فتزداد عيناها خضرة وتصرخ عاليا من فوقي أو من تحتي، تتكرر هذه المشاهد يوميا تقريبا باستثناء أيام عادتها الشهرية حيث تدخل في صمت رهيب لا تغادر غرفتها ولا تخرج للنوادي الليلة، تزداد شهيتها للقراءة.

حين جاءتني تلك الليلة باكية مرتجفة وهي تردد:

– إني أخاف الظلام، أرى أشياء كثيرة تختبئ في الظلام الذي في الغرفة والذي يحيط بها ووذاك الذي يملأ الرواق وساحة المرجة. الظلام يا إسحاق يزحف علي. كيف رده؟

أدركت أن العنابية انهارت، إنها على وشك السقوط في الهاوية، في الصباح طلبت من أبي بسام أن نحضر لها طبيبا. وهو ما قام به هذا الأخير على الفور وقلبه يرتجف خوفا من أن تموت فازو

بالفندق فيجرجر إلى المخافر والمحاكم والتحقيقات وهو الذي لم يدخل في حياته محكمة أو غرفة توقيف.

جاء الطبيب وقد رفضت في البداية أن تسمح له بفحصها، إلا أنني أقنعتها بأن الروائية مارغريت دوراس، كما حكت لي هي نفسها، كان لها طبيبها كما كان لها عشيقها. ضحكت ضحكا هستيريا، قبلتني على فمي في حضرة الجميع، ثم سمحت للطبيب بفحصها.

كان أبو بسام متأثرا لحال فازو وكأنما كان يقرأ في حالها ما لا يحمد عقباه وقد بدا عليه هو الآخر التعب والإرهاق وعلامات الشيخوخة التي لم ألحظها عليه إلا الآن، منذ جئت هذا الفندق قبل سنة ونصف أو يزيد كنت لا أراه إلا كما هو لا يتغير. لكن منذ كم نزلت هذا المكان، لقد نسيت عد الأيام لأني غرقت في عد أوراق المال.

في اليوم التالي وللمرة الثانية منذ أن وطأت قدمي فندق قرطاجنة يتغيب أبو بسام عن كرسيه الرابض عند العتبة وآخذ أنا مكانه بكل جدية وحرص وأمانة وحزن أيضا. كان الناس يسألون عنه، كل من يمر أمام عتبة الفندق إلا ويسأل عن أبي بسام. إن غيابه شيء غير طبيعي على الإطلاق. هناك شيء ناقص أو مشوه في مشهد الشارع وساحة المرجة برمتها. لا يمكن تصور فندق قرطاجنة بدون أبي بسام جالسا على عتبته يشرب الشاي ويلعب بحزمة الأوراق النقدية في يديه الخشنتين ويحيي المارة بأسمائهم واحدا واحدا وينش الذباب في حركات آلية.

شعرت بأنني المسئول عن غياب أبي بسام إذ أطلعته على

الحالة النفسية المنهارة التي تعيشها فازو العنابية. كان من الواجب علي أن أخفي عليه هذا الأمر. الآن أدرك كم هو حساس هذا الأبو بسام على الرغم من جثته الكبيرة ومن بطنه المتدلي أمامه، إلا أنه مثل طفل أو شاعر. شعرت به وكأنه كان يبكي لرؤية فازو وهي تصرخ خائفة من الطبيب.

اشتريت لفازوأدويتها، كلها كانت عبارة عن مهدئات ومنومات.

بين الساعة والأخرى كنت أخطف دقيقة فأقفز السلالم بسرعة إلى غرفتها لأتفقدها وأطمئن على وضعها، كانت في كل مرة أدخل عليها تقول لي أنت هو يان أندريئا Yann Andréa كنت متيقنا أن هذا اسم شخصية من شخصيات روايات دوراس أو هو بالأحرى اسم عشيقها الشاب الوسيم النورماندي الكاني يان لومي Yann Lemée الذي رافق الروائية في سنواتها الأخيرة، سنوات الكحول والجنون.

حياة الفنانين تبدأ من النهاية.

كنت أنظر إليها عارية تقريبا فأجدها كالعصفورة الصغيرة. على الرغم من نوباتها الهستيرية إلا أنها لم تفقد شهيتها الجنسية. كانت فائضة ومرتعشة دائما حين تراني. وكنت أشعر أن أجمل لحظات الجنس التي مارستها معها هي تلك التي كانت فيها في نوبة من نوباتها العصبية، على حافة الجنون. كانت تتحدث كشاعرة وكأنما تتلقى كلامها من مصدر ما ورائي.

لليوم الثاني على التوالي لم يظهر أبو بسام. كانت النزيلات حزينات لغيابه منشغلات على صحته.

– لا فندق بدون أبي بسام. قالت الوهرانية.

– إذا لم يعد أبو بسام سنغادر الفندق جميعنا وفورا، قالت البجاوية بلكنة بربرية.

بدا الفندق حزينا لغياب أبي بسام ولانهيار العنابية. لقد غاب وجوده وهو الوجود الذي كان قادرا على إخفاء الشارع والفندق، أما هي فقد خمد صوتها وهي التي كانت لا تسكت إلا لتجمع قوتها كي تصرخ.

الآن، باختفاء أبي بسام وفازو، تأكد لي بأن لا معنى لأي مكان دون إنسان يعطيه الدفء والوجود والمعنى.

لم أكن واثقا بأنني، ذات يوم، سأتولى مهمة صعبة كهذه وهي مداعبة حزم الأوراق النقدية طول اليوم. كانت المخابرات وكل أسلاك الأمن تعرف بأنني الساعد الأيمن لأبي بسام لذلك لم يزعجني أحد. لم يسألني أحد.

وإذ أنا أعد أوراق عملات من الفرنك السويسري سمع صراخ يأتي من الطابق الثاني ومن السلالم، أسرعت في صرف ما يجب صرفه للزبونة السويسرية التي يبدو أنها هي الأخرى شغلها أمر الصراخ القادم من داخل الفندق والذي إلى حد ما أثار حيرتها أو بعض خوفها.

اعتذرت لها على عجل ثم كالسهم انطلقت، ابتلعت السلالم.

أسرعت إلى غرفة فازو العنابية كنت على يقين بأن طارئا مؤلما قد وقع. كانت نزيلات الفندق من الجزائريات وبعض الإيرانيات والتركيات متجمعات في الغرفة وفي الرواق حائرات باكيات مستفسرات. اعتقدت أنها ماتت. ثم قلت في نفسي إن العنابية

عاشقة الحياة لا تموت بهذه الطريقة وعلى هذه الطريقة. تسللت من بين المحتشدات، كانت مغمى عليها وفي حالة من اليأس وهي تتبس باسم دلال المخطوطات وتنبوكتو وميشيل فوكو وأشياء أخرى. أخذتها نحو حضني وبمجرد ما تشممت رائحتي هدأت ثم قالت»»C'est tout (هذا كل شيء) كنت أعتقد أن هذا هو عنوان آخر كتاب أملته دوراس على عشيقها الشاب النورماندي الوسيم قبل وفاتها.

أنا لا تهمني هذه الباريسية الهند–صينية السكيرة العبثية، أعني الكاتبة مارغريت دوماس، الحاصلة على جائزة غونكورأو الحالمة بها، ما يشغلني ويقلقني فعلا هو الحالة الصحية التي آلت إليها هذه الفتاة الشابة ابنة البلد: فازو العنابية أو الوهرانية، لا أحد يدري؟.

لست أدري لماذا أشعر بأن نهاية تعيسة تدق الأبواب وعلينا تحملها والتكفل بها والصبر لها.

كنت أريد أن أصرخ في وجه العنابية باسم سانت أوغسطين ابن البلد وباسم سيدي مسعود الذي يرقد مكانه تحت تلك الزيتونة الألفية مطالبا إياها بالمقاومة.

نظرت في عينيها فوجدتهما مليئتين بدمع أخضر، كانت شبه مغمى عليها. خفت أن تموت بين يدي، طرحتها فوق السرير وأسرعت إلى مكتب الاستقبال كي أطلب طبيبا بالهاتف وسيارة إسعاف. شعرت بالمصعد بطيئا فأسرعت الخطى في السلالم نزولا.

لم تتأخر سيارة الإسعاف التي زمرت بعض تزميرات قبل وصولها مدخل الفندق كي يفسح لها الطريق من قبل المارة والباعة الذين استولوا منذ سنين على الأرصفة واحتلوا نصف مساحة

الشارع أو أكثر. أسرعت ممرضتان بمحمل خفيف إلى الطابق الثاني، لحق بهما طبيب مشمرا على ساعديه، لم يطل بهما الوقت في الغرفة إذ طلب الطبيب نقلها إلى المستشفى.

هكذا خرجت العنابية، وحين خرجت شعرت وكأن الفندق أصبح صحراء خالية. انسحبت إلى غرفتي وبكيت بكاء مرا. ولأول مرة أتصالح وبشكل نهائي مع ساحة المرجة بعمودها الذي رأيته أول يوم معلقة فيه جثة ذاك السيد. نظرت إلى الساحة بضوضائها وذهاب ناسها وإيابهم كما النمل كانوا يتحركون.

هذا المساء، حزنا على فازو العنابية، أحجمت النزيلات الجزائريات والمراكشيات عن الالتحاق بالنوادي الليلية، تجمعن عند مدخل الفندق دخنا ما تيسر من الحشيش المغربي وشربنا الشاي وذكرناها بخير. ولم تطل الجلسة حتى بدأت النزيلات ينسحبن الواحدة تلو الأخرى إلى غرفهن.

كنا أشعر بأن أيامها الباقية قليلة.

غاب أبو بسام أسبوعا كاملا، كان الأسبوع في طوله كما السنة، لكنه حين أطل هذا الصباح شعرت بالراحة والاطمئنان يعودان إلى قلبي. رحبت به وبه رحبت النزيلات والمارة. لقد خفف حضوره قليلا من وطء غياب فازو العنابية. شرحت له كيف نقلناها إلى قسم الاستعجالات. طلب مني أن أذهب لزيارتها في المستشفى والاطمئنان عليها.

تركته في مكانه المعتاد وقد عاد إلى عادته يلعب بحزم الأوراق النقدية عند عتبة باب الفندق وصعدت إلى الغرفة لأغير ثيابي. لم يطل بي الوقت في الغرفة، كنت أريد أن أكون أمامها أنيقا كي أعيد

إليها قليلا من المقاومة، الجمال مقاومة كبيرة بل كبرى، وحين نزلت وجدت أبا بسام وقد تغير لون وجهه كثيرا وسقطت الابتسامة لأول مرة من على ملامحه فقلت له:

– ألا زلت متعبا يا أبا بسام، إذا كنت كذلك فعليك أن تعود إلى البيت لترتاح قليلا.

أخفض رأسه ثم رفعه ومسكني من كتفي بقوة وقال:

– البقية في حياتك يا بني، رحلت العنابية. لقد هاتفت إدارة المستشفى الذي ترقد فيه، وأخبرتنا بأنها توفيت هذا الصباح، طلعت روحها مع طلوع الفجر.

لست أدري كيف تسرب الخبر إلى الغرف، منظفة الغرف صاحبة الأسنان الذهبية هي التي وزعته، فارتفع العويل دفعة واحدة من كل من كل الجهات وفي كل الطوابق.

عدت أدراجي إلى الغرفة، غيرت ثيابي عاودت لبس ما كنت أرتديه قبل قليل، فتحت صندوق مدخرات النزيلات، فككت ربطة حقيبتها عددت فلوسها سلمتها لأبي بسام قائلا هذا هو ما تملك، عرقها. عد الأوراق بين أصابعه بسرعة البرق ثم ألقى بها في صندوق الصرف وأخرج مقابلها عملة فرنسية وقال هذا المال يذهب مع جثمانها لإقامة جنازتها هناك.

لم تطل الإجراءات إذ تدخلت السفارة الجزائرية وأخبرت عائلتها التي أرسلت على الفور شيخا أعمى لمرافقة الجثمان إلى مدينتها، لم يكن فيما أعتقد سوى دلال المخطوطات الذي أحبها وخانته.

ها هو الدلال واقفا أمامي حزينا متثاقل الخطو ونحن ندخل معا

بيت الجثث في المستشفى المركزي وقد تمسك بذراعي. كان خائفا، يبدو أنه مثلي لم يدخل ولو لمرة واحدة في حياته بيت «حافظة الجثث». مكان مخيف ورهيب وبارد كما الموت الذي يملأه. لم أستطع أن أواصل فتراجعت عن رؤية جثمان العنابية. تركته لوحده يقوم بالمهمة، مهمة الرؤية وهو الأعمى، قبل التعرف عليها ووضعها في التابوت الذي ستنام فيه إلى الأبد. لم يطل البقاء، دقائق وعاد يقوده أحد الممرضين وكأنما هو هارب من المكان، حين سمع صوتي اطمأن، بصم بعض الأوراق بسبابته لدى إدارة المستشفى. سلمته مبلغ المال الذي أعطاني إياه أبو بسام، أخفى الأوراق النقدية في جيبه، سلمته أيضا حقيبة أغراضها القليلة بعد أن احتفظت لي ببعض ملابسها الداخلية المثيرة وكذا سلسلة من حديد وسوط مصنوع من عروق العضو الجنسي للعجل. هي أشياؤها التي كانت تشكل جزءا من حياتها السرية والحميمة. لم أكن أريد أن يكشف عنها أحد.

ماتت العنابية.

وحين ماتت أدركت أنها لم تكن عنابية لقد كانت وهرانية. وتذكرت حكاية أخت المانو.

مرت أسابيع ثقيلة، اسمنتية، وشيئا فشيئا بدأ الفندق يستعيد حياته الطبيعية بعد أن استأجرت قادمة جديدة من مدينة سيدي بلعباس غرفة فازو.

كانت القادمة الجديدة تقول مفتخرة إنها حفيدة المغنية الشيخة الريميتي ولا تنسى أن تذكر الجميع متباهية بانها حاصلة على شهادة الليسانس في اللغة الإسبانية وآدابها وأنها، وهذا هو الأهم،

قادمة من مدينة لا مثيل لها في الجمال إلا باريس حيث سماها الأوروبيون بـ: «باريس الصغيرة «le petit Paris.

الفصل الثامن

ليست هناك جنة

هذا المساء الخريفي الحزين يذكرني بزبيدة ويذكرني أيضا بليلتي الأولى التي قضيتها في القسم الداخلي، يوم رمى بي القائد في تلك المدرسة كي يبعدني عن أمي ويتفرغ لزيجاته المتكررة ومتعه الموسمية والخائبة بحثا عن ذرية.

اشتقت إلى زبيدة. واشتقت إلى مدينة وهران التي بها ذقت لأول مرة عسل جسد الأنثى وذقت النبيذ المعتق ومارست العصيان.

... ورأيت فيما يرى النائم الذي ضربه حمار الليل، كنت بين الصحو والنوم. فإذا القائد الذي كان يهد جبلا قد أقعده المرض المتعدد ولم يعد يغادر سريره إلا لماما من جراء نوبات الربو الحادة وروماتيزم المفاصل والأيهزيمر. وها هو يبكي كما يبكي الأطفال وهو الذي قلبه قد قد من حجر، يرفع يديه إلى السماء مصليا ثم موجها كلامه إلى أمي قائلا: سأموت الليلة، سامحيني واطلبي لي السماح من زوجك الأول. ولا ترد أمي بل يزيدها صوته وصلاته وبكاؤه حزنا وضيقا في التنفس، وأراها كالنادمة واقفة على هاوية الانتحار غير المعلن وقد هرم جسدها وتقوس ظهرها وهي التي كانت إذ تمشي مشية الحمام تدير إليها رؤوس الرجال جميعا. اختفت مفاتن جسدها وانحفرت أسارير عميقة حول عينيها الواسعتين اللتين كانتا متوهجتين بخضرة ممزوجة بسواد.

طلقت أمي كل مرآة وهي التي صرفت أكثر من نصف عمرها

أمام المرآة، تبدل مرآة صغيرة بأخرى أكبر بأخرى مكبرة ثم بأخرى وتدقق العين في العين وتدور أمام المرآة لتزن مرمر جسدها الغاوي والذي تنهض حوله وفيه كل الفتن والمؤامرات.

ورأيت زبيدة خطافة حزينة هرب منها هي الأخرى ربيعها على حين غرة، كانت تنتظرني كي أعود ذات مساء وقد مضى على فراقنا قرابة السنتين وما عدت ولن أعود، وخانها عشيقها المدرس العراقي الذي يحب الألوان الفاتحة.

لم أكن أتصور أن الانتظار يذيب الجسد بهذه الطريقة وبهذه السرعة.

لن أعود يا زبيدة. وحتى إذا ما عدت ذات يوم فسأعود لا لأحتفل بك ولكن لأنتقم من ذاك الشيخ الواقف في لجة العذاب فلا يرحمه الموت.

كانت زبيدة تمسك بي وتقول:

ما عاد القائد يترك الصلاة بأوقاتها الخمسة وبمجرد أن يشعر بتحسن طفيف في صحته حتى ينهض ليمضي يومه كاملا في المسجد. البارحة طلب من مجموعة من الملتحين القيمين على مسجد الحي الذي بناه من ماله أن ينزلوا إلى مخزن النبيذ الكولونيالي la cave في الفيلا وأن يتلفوا جميع القناني التي يعود عمر بعضها إلى نصف قرن ويزيد. بكيت وأنا التي لا تحب النبيذ بل تخشاه وتعتقد أنه بيت الشيطان، وأن كل شيطان يسكن الإنسان إلا ويأتيه من قنينة نبيذ. بكيت، إذ شاهدتهم يشحنون تلك الصناديق في شاحنة كبيرة، لا حبا أو حزنا على النبيذ بل لأن القبو ذكرني بليلتنا الأخيرة حيث سكرت فيها يا إسحاق «سكرة الكلاب

النبلاء»!!! ونمت هناك عى إسمنت الأرضية في الرطوبة الباردة الندية بين القناني الغافية في بهائها العظيم. أنا متأكدة يا إسحاق أن هؤلاء الملتحين شحنوا القناني لا لإتلافها إنما لبيعها إلى مطاعم الدرجة الأولى على الشاطئ ولفندق المارتينيزو الروايال.

لقد أطلق القائد لحيته التي ابيض شعرها نهائيا وهو الذي إلى زمن قريب كان متهما بالشيوعية حتى قال عنه خصومه إنه كان من مؤسسي حزب الثورة الاشتراكية PRS الذي كان على رأسه محمد بوضياف عشية استقلال البلاد (سيغتال هذا الزعيم في مدينة عنابة مدينة فازو؟؟؟ وبقصر الثقافة بعد أن أصبح رئيس الدولة من قبل الإسلاميين في 29 يونيو عام 1992).

قبل أن يقعده المرض السرير، كان القائد لا يتخلف عن اجتماعات حزب ديني سري يقال إنه أ طلق إذاعة سرية سماها إذاعة «الدعوة». ويقال أيضا إن بعضهم سمعه يتكلم على أمواج هذه الإذاعة حيث كان له فيها حديث سياسي أسبوعي في نقد النظام الشيوعي الذي استبد بالسلطة على حد تعبيره والذي يعتبر الدين أفيون الشعوب.

أتعبني هذا المنام وعكر يومي.

هذا هو الأسبوع الثالث منذ رحيل فازو العنابية، فراغ كبير خلفته في قلبي وفي الفندق. هذا المساء أتجرأ، لأول مرة وأفتح كيس البلاستيك لأخرج منه ما احتفظت به لي من ملابسها الداخلية الحميمة، بهذه القطع المصنوعة من الحرير والدانتيل الذي كانت تحبه كثيرا أسترجع جزءا من هبلها وأتذكر صخبها وحبها العنيف للحياة. أحدق قليلا في هذه الألبسة أتذكر طريقتها الهمجية في

ممارسة الجنس، وأبكي. أترك كل شيء على السرير وأخرج في اتجاه بار ألفريدي عله ينقذني من هذا الفراغ. لم أكن أتصور أن رحيل العنابية سيكون له كل هذا الأثر على حياتي. حين كانت موجودة، حية بكل شيطانيتها كنت أحاول أن أتحاشاها لأنها كانت فتاة صعلوكة ومباشرة ومحرجة، الآن أشعر أن الأرض فقدت اتزانها من تحت قدمي.

تتوقف سيارة أجرة عند قدمي أعتذر لسائقها مفضلا الذهاب مشيا. مطر خفيف ينزل على المدينة فيجعل منها مدينة رومانسية أو تحيل على مثل هذه الحالة، لأول مرة بعد أزيد من سنتين أقطع ساحة المرجة راجلا دون أن يثيرني عمودها المرعب الذي تدلت منه آلاف الجثث لشباب وشابات تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم شنقا بتدبيرتهم مختلقة لهم.

لكم هي دمشق جميلة ومنعشة وموحية تحت هذا المطر الرذاذ الشعري. وأنا أمشي وحيدا وقد سكنتني فازو بضحكتها وصوتها وجنونها، أتذكر ساحة أول نوفمبر بوهران حيث ينتصب بهيا تمثال الأمير عبد القادر، حامي مسيحيي الشام من غدر المسلمين المتطرفين، ينظر الأمير متأملا من فوق حصانه العربي الأصيل إلى منحوتات الحوريات المثبتات على واجهة بناية أوبرا المدينة. أمشي تسكنني رغبة ملحة في التهام سندويتش فلافل. أدخل أحد المحلات الحقيرة، أطلب ما أرغب فيه، يعطيني السندويتش، أتابع طريقي وأنا ألتهم فأشعر بأني ألتهم جزءا من أطراف كاغط اللف مع الخبز. الظلام الخريفي ينزل بسرعة على المدينة التي بدأت تبرد أكثر فأكثر ليلا وبدأ الدمشقيون ينظفون أو يتفقدون أو يجددون

مدفئاتهم.

أحب فصل الخريف، فأنا «جرو الغابة» من مواليد برج القوس، هذا غير مؤكد.

أدخل بار ألفريدي يستقبلني الجميع بفرح وكالطفل يقفز لاستقبالي الرجل صاحب الساعة العجيبة والجدة العاشقة قائلا بابتهاج:

– لم أنه لك حكاية جدتي.

أحاول أن أتجنبه فينادي على النادل ويطلب لي عاجلا وعلى الفور (بطحة) قنينة عرق وجبنا وخيارا وجزرا وسلاطة خضراء. أجلس لا مفر. ألقي بنظرة على طاولات الزبائن أبحث فيها عن المانو الذي اشتقت إليه واشتقت أيضا إلى ابنته إيفا التي تعزف بشكل مثير على البيانو ولم تتجاوز الرابعة من عمرها، اسمها الحقيقي حواء لكنهما يفضلان مناداتها بإيفا.

إيفا اسم جميل، كأنما صنع لتلك الطفلة على مقاسها.

هذه الليلة، على غير عادته، يبدو المانو حزينا، مطفئا. تحاشيت قدر الإمكان أن أسأله عن سبب صمته وانكماشه قبل أن أشرب الكأس الثالثة أو الرابعة على طريقة «على نفس»:

– أنت على غير حالك أيها المناضل الوهراني؟ قلت له ذلك بنوع من الدعابة.

أفرغ كأسا أخرى دفعة واحدة ومال برأسه على متكئ الكرسي، كان التعب باديا عليه وهو يغالب السكرة ويقاوم النوم والهواجس وهزيمة ما.

سكت بعض الدقائق ثم انفجر باكيا. لم أكن أتصور أن مناضلا يغرس مسدسا في خصره بحزام من الرصاص الحي ويعمل ويؤمن بأفكار الحكيم جورج حبش يمكنه أن يبكي هكذا، أن يشهق كالأطفال.

ما أعظم بكاء الرجال.

حين يبكي الرجل يهتز عرش السماء.

- لقد وصلت علاقتي مع سهى زوجتي إلى الحد الذي لم يعد بإمكاننا فيه مواصلة العيش معا. وقد هاتفت أخي سرا وطلبت منه المجيء إلى دمشق وقد وصل ومكث معنا حوالي ستة أشهر أو يزيد خلالها خططنا معا لترحيل طفلتنا إيفا معه، واليوم سافرت إيفا معه إلى وهران دون علم من أمها.

حين رجعت سهى من العمل وأخبرتها بذلك صرخت عاليا ثم خرجت تهيم في الشوارع وقد فقدت على الفور صوابها كليا.

لقد أقسمت أن تلحق بها في أول طائرة وتعيدها إلى دمشق وإلا ستلقي بنفسها على سكة قطار الحجاز.

لكم هي الحياة مجنونة.

ما أكذب مظاهر الحياة.

حين دعاني المانو آخر مرة للعشاء في بيته الصغيرفي حي المهاجرين، كان ذلك قبل ثلاثة أشهر تقريبا، قلت هذا أسعد زوج عرفته في حياتي. ربما في الوقت الذي كنت أفكر معجبا بسعادتهما كان هذا الأخير يخطط لاختطاف الطفلة التي لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات.

كان أخوه الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة وعمدا، يخفي في نظرته شيئا مريبا. وحده لم يكن يشرب العرق، كان يشرب عصير التوت وينظر إلينا بنظرة خبيثة كأننا ونحن نشرب العرق نمارس أكبر منكر عرفته البشرية.

لم أحب هذا الرجل من نظرته وحركاته، في شخصيته أمور مركبة خطئا.

كانت نظراته ذئبية تجاه سهى التي تحب البيرة ولا تسكت عن الغناء.

كان المانو يبكي ويترجى الذين من حوله إرجاع طفلته وهو الذي، عن طواعية؟؟؟ أرسلها البارحة.

ونحن هكذا إذا بسهى تدخل البار فيلتفت فجأة الجميع إلى هذه المرأة التي تتخطى لوحدها عتبة هذا البار الذكوري وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، تدير رأسها في القاعة وتصرخ عاليا في المانو:

– إرجع إلي ابنتي أيها المجرم.

أنا الآخر لم أستطع تحمل هذا الموقف فبكيت. كانت الأم جريحة وعلى حافة الجنون. لا تعرف ما تقوله سوى ترديد اسم ابنتها: «أريد إيفا أريد إيفا أريد إيفا».

قمت من مكاني، حاولت أن أهدئ من روعها المشرف على الجنون وأجرها خارج البار، لكنها صرخت في قائلة:

– أنتم الجزائريين قتلة، بدلا من أن تتعلموا من ثورتكم العظيمة معاني الحرية العظيمة والحب الصادق الفاضل تعلمتم العنف

والقتل والتآمر.

عرضت عليها مساعدتي لاسترجاع طفلتها.

لم تكن لتسمع ما أقوله.

تركتني ومشت في ظلام زنقة الجزائر. ومثلها انسحبت إلى غرفة الفندق حزينا ومنهزما وقد تركت المانو في وحل ليله.

في صباح اليوم التالي جاءتني سهى إلى الفندق. كنت كالعادة عند العتبة أداعب حزمة الأوراق النقدية. إذ لمحتها تتخطى عتبة الفندق اعتذرت لأبي بسام واتخذنا لنا طاولة في أقصى ركن البهو الرئيسي. طلبت لها قهوة ولي شايا. كانت سهى تدخن بشراهة تبغا محليا ذا رائحة كريهة، أو هكذا بدت لي.

كان التعب باديا عليها والحزن أيضا.

قالت لي:

– سأخبرك بشيء قد يبدو مفاجئا، لكنها الحقيقية، لقد كان الهواري أخو زوجي في كل هذه الشهور والأيام التي قضاها معنا لا يفتأ يجري خلفي، لقد سقط في حبي منذ الأسبوع الأول الذي أقام فيه عندنا. ما أن يذهب المانو إلى البقاع لعمله حيث يظل هناك أربعة أيام متتالية حتى يبدأ الهواري محاصرته لي. كان لا يتردد ولا يتحرج في الدخول علي وأنا في غرفة النوم ويغازلني بشكل فاضح. بل إنه أفصح لي بأنه وأخاه يحضران لعملية اختطاف وترحيل إيفا إلى وهران، واشترط علي مقابل أن أفشل عملية الاختطاف مبادلته نفس الحب أو أن ألتحق به في وهران أو إسبانيا وهناك نعيش معا بعض الوقت ومن ثمة يساعدني على

استرجاع إيفا.

رفضت كل مراوغاته، ومرة حين حاول أن يحتضنني وأنا أخرج من الحمام وقد كان في حالة تخدير أو متظاهرا بذلك قلت له:

– لا يمكنني أن أخون المانو.

كان الهواري يبدي لطفا وسلوكا ناعما وكان كلما حاول المانو المس بكرامتي في أحاديثنا الليلية، وتلك طبيعته الفلاحية، إلا ويتصدى له بقوة. كان الهواري شابا وسيما قادرا على الإغراء وهو يصغر المانو بخمس سنوات أوأكثر. مرات كثيرة وفي لحظات الخصام مع المانو كنت أهرب إلى حضنه فأجده دافئا. كنت أشتم فيه رائحة الرجل الذي أبحث عنه. المانو كان رجل قضية وأنا كنت أريد رجلا لي، رجلا للسرير والابتسامة والأحلام والأسفار والكذب الجميل. إني أحب أن يكذب علي المانو شرط أن يكون هذا الكذب قادرا أن يجعلني أحلم وأتخلص من موتي المبرمج في الانتظار الفارغ. منذ سنتنا الأولى في هذا الزواج الذي نحن في سنته العاشرة كنت أشعر أن المانو مسكون بالقضية الفلسطينية وبالحكيم جورج حبش أما أنا فلم أكن أعني له شيئا. تأسست علاقتنا العاطفية على خطإ منذ البداية. كانت علاقته الإيديولوجية بأخي الشيوعي هي التي قادته إلي. وقد شعرت بأن ما تعرض له أخي الذي كان أستاذا للجغرافيا من سجن وفصل من عمله هو الذي أجج فيه هذا التعاطف الثنائي، على أخي وعلي أيضا وقربه أكثر فأكثرمني.

أنا، من جهتي، لم تكن السياسة لتهمني كثيرا، كنت أحب الموسيقى وقد حرصت على أن أتعلمها على الأصول وقد شرعت في أخذ دروس خاصة. كنت أذهب إلى بيت أحد الأساتذة الشيوخ

المعروفين بمهارتهم وصنعتهم وعلى يديه تعلمت العزف على العود ومبادئ الصولفيج. لكن وبمجرد أن شعرت بأن المعلم الشيخ بدأ يراوغني ويمسد على فخذي كما يفعل مع بعض المتعلمات الأخريات حتى قاطعت دروس الموسيقى وانشغلت بالأدب، كنت أقضي جل وقتي في التمتع بالاستماع إلى عزف إيفا وقراءة الروايات. أقرأ وأقرأ وأنتظر عودة المانو الذي إذ يعود لا ينتبه إلي بل يذهب مباشرة لتفقد أو لقاء أصدقائه ورفاقه من الشيوعيين المطرودين من وظائفهم وليقدم لهم ولعائلاتهم مساعدات مادية قادمة من رفاقهم في بيروت.

كنت كلما عاد من البقاع ولم ينتبه إلي أشعر بتوسع الهوة العاطفية بيني وبينه، حتى جاء أخوه في ذاك اليوم فملأ الهوة بوجوده. وهو الذي يعرف العزف ويغني أغاني بلاوي الهواري وأحمد وهبي بشكل رائع. كنت لا أفهم الكلام الجزائري وكان يقضي الليل كله يشرح لي الكلمات ويعلمني كيف أغني الطبع الوهراني، وكان أيضا يغني أغاني جاك بريل وبراسانس وكان يطلب مني أن أرافقه في الغناء وأنا التي لا تعرف كلمة واحدة بالفرنسية، فكان يضطر لكتابة كلمات الأغنية بالحرف العربي ويطلب مني غناءها. كنت أقرأ الفرنسية من اليمين إلى اليسار مكتوبة بالحرف العربي. كان يضحك مني كثيرا ولكنه كان يضحك كالطفل.

كل ما طالت إقامته معنا كنت أخاف كل صباح عاقبة هذه الإقامة خاصة في غياب المانو وأيضا في إهماله لي واحتقاره لأفكاري الرومانسية الصبيانية.

ولم أتنازل عن المانو ولم أخنه.

كانت سهى غير يائسة من إمكانية استرجاع طفلتها:

– سأذهب إلى وهران وسأجر الهواري إلى سريري وسأعطيه ما يريد من جسدي شريطة أن يرتب لي أوراق استعادة طفلتي وإرجاعها إلى دمشق.

كانت الخطة واضحة في رأسها وكانت على يقين بأنها ستنجح في ذلك. وربما هو الآخر لم يكن ينتظر إلا ذلك، ينتظر مجيئها إليه كي يأخذ منها ما رفضته له في دمشق.

بدأت أشك في أن عملية ترحيل الطفل هي خطة مدروسة ما بين سهى وأخ المانو أكثر مما هي مؤامرة ما بين المانو وأخيه. فسهى كانت تريد أن ترحل من هذه المدينة التي لم يكن يشدها إليها شيء سوى طفلتها الوحيدة بعد أن أدخل أخوها الوحيد أستاذ الجغرافيا إلى السجن ليحكم عليه باثني عشر سنة سجنا نافذة بتهمة الانتماء إلى تنظيم سياسي يسعى لقلب نظام الحكم وإثارة الفتن والمس بأمن الدولة. أما المانو فقد أعطى نفسه وأيامه للثورة الفلسطينية، كما يدعي. ولم تجد طريقا للتخلص من هذا الواقع سوى بالاتفاق مع الهواري على أن يدفع أخاه لكي يرسل معه ابنته تحسبا لطلاق كان وشيكا بينهما. وهكذا بمجرد أن يقتنع المانو بإرسال الطفلة ستكون هي مضطرة للالتحاق به بحثا عن ابنتها. وبالتالي التفرغ للهواري والعيش معه بعيدا عن هوس الثورة وأخبار الشهداء وأخبار الشيوعيين الذين يزجون في السجون يوميا أو يعلقون في ساحة المرجة.

أدهشني حديث سهى. دارت بي الأرض.

واختفت سهى. كانت آخر مرة شاهدتها فيها.تمنيت ألا أراها

لأنها ذكرتني بأمي وعشيقها القائد.

بعد أسبوعين قررت الذهاب لزيارة المانو في بيته بعد أن قاطع نهائيا بار ألفريدي منذ تلك الليلة التي اقتحمت فيها زوجته البارعلينا صارخة.

حين دخلت عليه وجدته ممددا على أريكة من جلد عتيق يشاهد مباراة في كرة القدم. كانت المقابلة في إطار تصفيات كأس العالم، احتفل بي كثيرا واعتذر عن الفوضى التي يوجد عليها الصالون، حاول أن يجمع من على الطاولة الوسخة بعض الصحون والكؤوس المستعملة من أيام. مسح الطاولة وأنزل بعض الجبن والخيار المقطع والبندورة والزيتون وقنينة عرق لبناني. ودون أن يطلب رأيي صب لي كأسا، كان يتجنب النظر إلي حتى لا أكتشف الدمع النائم على أطراف العينين.

أخبرني أن سهى سافرت إلى وهران لإحضار إيفا، ولكن السفر طال بها هناك ويبدو أنها فضلت البقاء هناك وأنها قررت أن تنهي دراستها في قسم الإنجليزية وتشتغل في المقابل مترجمة مقالات لحساب جريدة محلية من الإنجليزية إلى العربية.

استعدت ما قالته لي سهى في مقهى مدخل فندق قرطاجنة. إنها دون شك وصلت إلى غايتها. لم يكن يهمها استرجاع إيفا بل كانت تريد اللحاق بالهواري أو بالأحرى الهروب من هذه المدينة.

دمشق مدينة غريبة، أهلها يهربون منها ونحن نجيئها، بناتها يغادرنها والجزائريات يدخلنها؟؟

لم نتكلم كثيرا في تلك الليلة. كان المانو حزينا ومطفئا. وكنت

أشعر بأنه قد أدرك لعبة الأخ المتآمر.

كان المانو معجبا بحياة غيفارا ولومومبا ونلسون منديللا ومحمد بودية ولكن شخصية وديع حداد سكنته فأضحى حلمه وهاجسه الأعظم هو أن يصبح قرصانا يحول الطائرات الإسرائيلية والأمريكية ويفجرها في المطارات أو في أجواء الله الواسعة.

جاء المانو دمشق لدراسة الصيدلة إلا أنه ما فتئ أن نسي خلطات الدواء والمخابر ورائحة جثث حيوانات التجارب من فئران وأرانب وضفادع لينتقل إلى العمل في المستشفيات الميدانية في معسكرات البقاع اللبناني. هناك، يجد نفسه يجري عمليات جراحية معقدة وهو الذي لم يتجاوز السنة الثانية صيدلة. كان الجميع يناديه بالحكيم الجزائري. ثم لا يفتأ أن ينتقل إلى بيروت ليصبح ولفترة قصيرة عضوا في الحرس المقرب لواحد من أكبر زعماء الثورة الفلسطينية ثم طبيبه الخاص.

كان يحب قراءة الكتب الممنوعة في السياسة والدين والرواية، يفتخر أنه قرأ كتاب «نقد الفكر الديني لصادق جلال العظم» وكتاب «في الشعر الجاهلي لطه حسين» وكتاب «تاريخ آل سعود» لناصرالسعيد وكتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» للدكتور حسين مروة و«فقه اللغة» للويس عوض و«الشخصية المحمدية» للشاعر معروف الرصافي وغيرها...

قبل أن أنصرف قال لي المانو إنه قررالرحيل نهائيا عن دمشق وأنه سوف يستقر ما بين عمله في البقاع وبيروت. أهداني مجموعة من كتبه المفضلة والمجلدة بطريقة تقليدية فنية فاخرة: كتب لماركس وعنه وأخرى للينين وعنه وروايات غسان كنفاني وبعض أشرطة

لمارسيل خليفة والشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، ثم عرض علي أن ألتحق بصفوف الثورة الفلسطينية وحاول أن يغريني بنظافة عناصر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كان عرضه مغريا وربما جاء في وقته فقد أصبحت أنا الآخر قلقا وضجرا بأيامي في هذه المدينة خاصة بعد رحيل فازو والتي لم أكن منتبها إلى حجم مكانتها في داخلي. لا نعرف قيمة الانسان إلا حين نفقده.

لقد قاطعت دروس الجامعة نهائيا وأصبحت لا تربطني بها سوى تلك المنحة التي أذهب إلى مصلحة الشؤون الثقافية في السفارة كي أتقاضاها مرة نهاية كل شهر.

مع ذلك لم تكن لي الشجاعة الكافية ولم أستطع أن أحسم الموقف وأن أرد عليه لا بالإيجاب ولا بالنفي. تركت الأمر للأيام.

قبل أن أودعه والفجر على مطلعه قال لي وهو يقف ليغلق الباب خلفي:

– هذا رقم تليفون الشغل، إذا ما احتجت إلي يوما هاتفني، لا تتردد.

وأنا أخرج من عنده شعرت بأني أصبحت ضائعا أكثر وأكثر فبعد ضياعي برحيل فازو العنابية ها أنذا أزداد ضياعا بمغادرة المانو دمشق.

العمل صرافا مع أبي بسام يأخذ مني كل النهار تقريبا خاصة بعد أن أصبح هذا الأخير قليل الحركة ويشكو من مرض في عينيه من جراء حساسية أصابته من لمس الأوراق النقدية كما قال له الأطباء.

الفتيات الجزائريات بدأن يعانين من منافسات نساء جديدات وصلن إلى سوق النوادي الليلية، فتيات شقراوات جميلات جيء بهن من بلدان أوروبا الشرقية. كل أشكال الجمال الذي يحبه الرجل الشرقي: عيون زرق وخضر وشعر أصفر وبياض جافيلي... وأصبحت السلع الوطنية الجزائرية مكدسة بائرة في الغرف وعلى الأرصفة. وحين أغلقت في وجوههن أبواب النوادي الليلية وأدار لهم الظهر أولو الأمر من العسكر وأهل المال والمخابرات غيرن خطط عملهن وشرعن في استقبال زبائن من درجات اجتماعية سفلى في غرفهن، ومع تدهور الحالة الصحية لأبي بسام وتعذر مراقبة الحركة في الفندق وبتواطؤ مع القيم على خدمات الغرف تحول بالتالي الفندق إلى شبه ماخور غير رسمي. وأصبحت غرف الفندق للمواعيد. وبدأت الخصامات والاعتداءات وسرقات متاع الفتيات وبدأ أبو بسام لا يكاد يعود من مخفر حتى يستدعى لآخر.

بدأت أفكر بجد في عرض المانو: الالتحاق بصفوف الثورة الفلسطينية؟

أنا الآخر أحب الحكيم جورج حبش، كنت أرى فيه فيلسوفا أو رجل دين أو شاعرا يشبه في أحلامه الشاعر الجزائري جان سيناك الأوروبي الأصل الذي كا ن يقول أتعلم العربية لأترجم إلى الفرنسية نشيد الثورة الجزائرية «قسما» كي يقرأه الفرنسيون.

كان عرض المانو مغريا وقد جاء في وقته إذ أصبحت أشعر بنوع من الملل في متابعة مداخيل فتيات الليل وشعرت بفراغ كبير بعد رحيل مارغريتا العنابية. ولم يعد لا شرب العرق الرديء «شلهوب» قادرا على التخفيف من ألم الوحدة ولا اللعب بحزم

الأوراق النقدية المختلفة الرموز والألوان واللغات قادرا على ملأ فراغ الروح في وفي هذا المكان.

الفصل التاسع:

مكر الحاجة الإيرانية

روي عن بعض الصالحين من التابعين رحمه الله، أنه كان يقول في دعائه: «اللهم قو ذكري على نكاح ما أحللت لي».

هذا الصباح أنزل درجات السلم وأنا أحارب كسلا يسكنني. لقد تعطل المصعد منذ شهر أو يزيد ولم يتم تصليحه. ها أنذا أجد نفسي أمام مجموعة من الحجاج والحاجات الإيرانيين الذي يجيئون دوريا لزيارة مقام السيدة زينب وقد تجمعوا قدام مكتب الاستقبال مما أثار بعض الحيوية التي افتقدها الفندق منذ أيام. شعرت باستئناس لطيف لهذه الوجوه الجديدة الملفوفة في الأسود وقد مللت من التوافد المتكرر على الفندق لوجوه رجال يشبهون المجرمين واللصوص يجيئون لتجزية قيلولاتهم أو لقضاء لياليهم مع ما تبقى من الفتيات الجزائريات بثمن بخس.

كان جمع الحجاج والحاجات من أعمار مختلفة، فيهم الشاب والشابة والأطفال والشيوخ ومتوسطي الأعمار. وإذ رميت نظري إليهم واجهني زوج عيني أنثى من خلف الحجاب الأسود. كان جمال المرأة مدهشا. كنت وأنا أسترق النظر إليها أشعر وكأنها هي الأخرى كانت تخطف نظرة في اتجاهي وفي الوقت نفسه تراقب نظرات الآخرين والأخريات من مصاحبيها ومصاحباتها.

لم أكن أتصور يوما أن امرأة محجبة يمكنها أن تشد انتباهي، وها هي ذي هذه تشغلني وتلعب في رأسي مع هذا الصباح البارد.

هذه المرأة نظرتها غريبة، حاولت أن أفسر سبب انجذابي إلى هذا الوجه الغريب فأرجعته إلى هذه الحالة النفسية الناجمة عن العزلة التي أعيشها في هذا الفندق الذي بدأت أشعر فيه بالاختناق والملل.

انسحبت إلى عتبة الفندق سلمت على أبي بسام وقد لاحظت أن حالته الصحية ازدادت سوءا، لقد بدأ يفقد قوة سمعه أيضا مما يضطرني إلى أن أتحدث له مباشرة في أذنه وبصوت عال. أخذت مكانه وترجيته أن يذهب ليستريح، جاملني قائلا وهو يبدي ضحكة مكسورة الجناح:

– أنت تريد أن تدفنني قبل أن أموت وتجلس على عرش حزم الأوراق النقدية.

كنت أعرف أنه يمزح. أخذت منه الحساب على ورق وثلاث حزم من الأوراق النقدية، لم أدقق شيئا لأن العمل مع أبي بسام في العملات لا يحتاج بعده إلى تدقيق. جلست على الكرسي. تأملت مشية أبي بسام وهو يغادر المكان بصعوبة فشعرت بحزن عميق. لقد تغير شكله كثيرا، تقوس ظهره وصعبت مشيته وتنقله. حاولت أن أصد بصري كي لا أتابع مشيته المتهالكة وهو الذي كان قبل ثلاثة سنين فحلا يصرخ فتستجيب لصوته الشاردة والواردة في ساحة المرجة.

وإذ شعرت باقتراب نهاية أبي بسام قلت في نفسي ربما هذه آخر الأيام التي أجلس فيه على هذا الكرسي. أدفنه بكل احترام ثم أرحل في إثر المانو أمد ما بقي من العمر للقضية الفلسطينية.

ضوضاء تملأ بهو الفندق التفت وإذا مجموعة الحجاج والحاجات الإيرانيين تهم بمغادرة الفندق. تقدم أحدهم ليسألني عن

إمكانية تبديل العملة الإيرانية بالمحلية فأجبته:
– لقد علمنا أبو بسام أن لا عملة بائرة إلا عملة الإنسان حين لا يعرف طريقه إلى العمل والاجتهاد.

كنت أحدث الرجل الذي يبدو أنه رئيس المجموعة وأبحث بعيوني الذئبية عن عيون الحاجة المدهشة. وكانت هي الأخرى تريد أن تقول لي إنني هنا، إذ أدركت أنها كانت تتخذ لها مكانا قصيا حتى أستطيع أن أميزها في هذا السواد المتحرك. قلت للحاج الذي جاء يبدل الفلوس بأنني سعيد أن أصحب المجموعة حتى مقام السيدة زينب ومقام رأس الحسين بجامع الأمويين إذا ما رغبوا في ذلك. لم يفهم كلامي ولكنه كان يعرف الحساب جيدا جدا. حاولت أن أؤكد له على استعدادي لمرافقتهم لوجه الله وبدون مقابل في حجهم فأنا أيضا قادم من الجزائر وأريد أن يغدق الله علي بنعمته ورضاه وأن أزور هذه الأماكن المقدسة، إذ أنني منذ دخلت دمشق لم أعرف فيها سوى أماكن المنكر من بارات ونواد ليلية.

ابتسم لي الحاج قائلا:
– اليوم ليس يوم حج، إننا سنكتفي بزيارة بعض المعالم الأثرية لهذه «المدينة الكافرة» والملعونة التي كانت وراء عزل علي رض وكرم وجهه وقتل سيدنا الحسين وغدا في الصباح الباكر نبدأ حجنا ويمكنك مرافقتنا. إننا نحب الجزائر كثيرا فهي بلاد الثورة والإسلام، بلد المليون ونصف المليون شهيد. أبدى نوعا من الاستغراب إذ وجدني أحسن الحديث بالعربية ثم علق:
– كيف لك أن تعرف العربية وقد منعكم الكفار الفرنسيون من تعلمها طوال أزيد من قرن؟

– إن تعلم أية لغة هي مسألة حب وإيمان.

كانت لغته العربية مفهومة وفصيحة. صرفت له أوراقه النقدية ودققت معه بعض الأوراق كي يميز ما بينها عند حاجة الدفع والتعامل.

اتفقنا على أن أرافقهم في اليوم التالي إلى مسجد الأمويين ثم إلى مقام السيدة زينب. لم تكن تهمني هذه الأماكن نهائيا ولكن شيئا ما كان ينهض بداخلي عاويا كالذئب الجائع تجاه هذه التي بدأت نظراتنا المتبادلة تقول الشيء الكثير.

غادروا الفندق فوجا واحدا وكانت هي آخرهم وقد ألقت علي نظرة فيها كثير من اللغز والفيض والسؤال.

وأنا أتابع انصراف الفوج الإيراني تذكرت نكتة واقعية حكاها لنا أحد الأصدقاء وقد عاشها بالفعل:

قال الصديق:

«نزلت باريس لأول مرة وبعد أسبوع قضيته فيها جلست في مقهى وقبل أن آخذ لي مكانا قلت سأشتري جريدة لأطلع على ما يحدث في العالم. وبالفعل اقتنيت جريدة من أقرب كشك مكتوبة بالعربية. طلبت قهوة، تحدثت مع النادل بالفرنسية طالبا قهوة معصورة(إكسبريس)، على الرغم من أنني أدرس الأدب العربي إلا أنني أحسن الفرنسية جيدا. جاءني بفنجان القهوة. نظرت إلى الفنجان الجميل وإلى قهوته برغوتها وأريجها المنعش، ثم رشفت رشفة عميقة وفتحت الجريدة وبدأت أقرأ. قرأت العناوين فلم أفقه شيئا ثم بدأت أقرأ بعض الفقرات، كل شيء مكتوب بالعربية، لكنني

لم أفهم شيئا. تعجبت من أمري أإلى هذا الحد وبهذه السرعة نسيت اللغة العربية وأنا من خريجي قسم اللغة العربية وآدابها؟ حاولت مرة أخرى ولم أفلح في فك رموز ما أقرأه وهي الحروف التي أعرفها. شككت في ذاكرتي ثم في طاقتي الفكرية. ولكني وبعد حيرة انتبهت فإذا الجريدة التي اقتنيتها لم تكن جريدة عربية إنما إيرانية».

تذكرت هذه الحكاية وأنا أتابع بعيني سرب الحجاج والحاجات الإيرانيات وهو يختفي في زحام الشارع.

لماذا أفكر في مهاتفة المانو؟ أريد أن أقول له إنني أفكر بجد في الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية. أردت أن أحدثه عما قرأته البارحة عن الشهيد محمد بودية الذي اغتالته الموساد بتفجير سيارته بباريس وهو الفنان الحساس والمسرحي وصديق بن بلة وغيفارا والحكيم جورج حبش.

لماذا أفكر في هذه الأشياء وأنا أستعد للحج مع هذه المجموعة الإيرانية؟ طز في هذا الحج، ما يهمني وما يشدني إلى كل ذلك ضربة عين.

ضربة شمس ولا ضربة عين. وأية عين!!

ظللت اليوم بطوله قلقا أداعب حزمة الأوراق النقدية وأراقب عودة فريق الحجاج الإيرانيين من زيارتهم للمدينة الكافرة التي كما يقال لم يدخلها الرسول محمد ص خوفا من مكر تجارها وهي التي قطعت على علي رض طريق الخلافة والسلطة وقتلت الحسين وجاءت برأسه مبتهجة لتدفنه في جامع الأمويين وتترك الخلق أجيالا بعد أجيال، شيعا وشيعا، فرقا وفرقا كلها تجيء لتتفرج عليه.

تأخروا كثيرا أوهكذا شعرت ولكنهم عادوا أخيرا بسلام وكنت عند مدخل الفندق واقفا كالقط يراقب السمكة أبحث عن نظراتها الشهبية الصائبة، القاتلة.

مرت أمامي، متعبة كانت من طول الدوران في شوارع هذه المدينة الكافرة، ألقت علي نيران عينيها فشعرت بي أحترق كهشيم في شهر غشت.

هذه الليلة نزلت المخابرات إلى الفندق للتحقيق مع زهرة العباسية الحاصلة على شهادة الليسانس في اللغة الإسبانية وآدابها، وقد منحوها مهلة محددة لمغادرة المدينة أقصاها موعد إقلاع الرحلة القادمة للخطوط الجوية الجزائرية، إذن عليها أن ترحل في ظرف ثلاثة أيام، أن تغادر التراب العربي السوري. أعرف أن زهرة متورطة في البيع والترويج للحشيش ولكن يبدو أن هناك قرارا اتخذ على مستوى عال لطرد بنات الهوى من الجزائريات بعد أن أشيع بأنهن شكلن عصابة تعمل في تجارة النساء والفتيات القصر وأخرى تشتغل في تجارة الحشيش والترويج له في البلد المضيف والبلدان المجاورة كما أن لهن ارتباطات بمجموعة إرهابية تعمل على نقل العرب الأفغان إلى جبال طورا بورا وبالمقابل تهريب الحشيش الأفغاني ذي الجودة العالية إلى الشرق الأوسط بما فيه إسرائيل.

..وزهرة على كل شيء قادرة وقديرة.

قالت لي:

– لن أعود إلى الجزائر إلا في صندوق خشبي كما عادت مارغريتا العنابية، سوف أذهب إلى بيروت أو الأردن فلي في هذين البلدين كثير من الأصدقاء ولي فيها حسابات بنكية أيضا.

كنت أعرف أن فندق قرطاجنة أصبح تحت الرقابة المشددة وأن كل ما يتحرك فيه هو مقيد بالحرف الأول والأخير لدى جهات عدة في الأمن بكل فصائله.

فتحت نافذة غرفتي وأزحت الستارة، نظرت إلى ساحة المرجة وإلى عمودها الذي منه تتدلى الأجساد ولم يثر في ذلك شيئا. أشعر وكأنني تصالحت مع الموت في أعنف وأبشع أشكاله.

اليوم ربيعي، أنتبه الآن إلى أننا خرجنا فجأة من هذا الشتاء القاسي الثالث الذي أقضيه في هذه المدينة والذي جمد كل شيء. أرتدي ثيابا لائقة، فأنا سأدخل أماكن دينية مقدسة. أنزل درجات السلم اثنتين اثنتين. أريد أن أكون أول من يصل إلى مقهى الفندق. بالفعل القاعة فارغة، طلبت قهوة وكأس ماء، إذ شعرت بعطش غير عادي في جوفي. لم يتأخر الفوج إذ وصلت عناصره جميعها. التحقوا بي طلبوا الشاي وأخرجوا من حقائبهم بعض خبز الفطير الذي جلبوه معهم من بلاد كسرى. قدم لي رئيسهم قطعة لم أتردد في تناولها.

قلت له وأنا اتحاشى النظرإلى تلك المرأة التي بالغت اليوم في تزويق عينيها:

- بيننا الآن الملح.

شرحت له ما تعنيه هذه العبارة الدالة على أننا أصبحنا أصدقاء بعد أن اقتسمنا الخبز.

قال لي:

- إن بيننا الدين قبل الخبز.

تجاهلت تعليقه ووجدته أيديولوجيا باردا.

التحق الجميع بالميكروباص، اتخذت لي مكانا إلى جانب المسئول عن المجموعة، تحركت الحافلة في اتجاه مقام السيدة زينب الذي يوجد على بعد بعض كيلومترات خارج مدينة دمشق. صعد صوت المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد من جهاز مسجل الحافلة. لم يكن أحد منتبها إلى هذه القراءة، كان الجميع في لغط ونقاش وأحاديث بالفارسية لم أفهم منه شيئا.

لأول مرة أكتشف صباح دمشق، الشوارع فارغة إلا من بعض السيارات والحافلات المغادرة أو القادمة وبعض المارة وأبواب الدكاكين تفتح مصحوبة بتحايا الصباح يطلقها الرجال بأصوات مرتفعة. أنا أعرف المدينة ليلا، أعرفها بكل غموضها وفتنتها وغوايتها.

أخرج رئيس الفوج الجالس إلى جانبي كتابا في «الأدعية» ثم بدأ يقرأ فيه بصوت مسموع. أدعية النجاح والموت والزواج والإرث والخلف الصالح والسفر والمال والتجارة والحرب والمرض والشفاء.... كنت أتابع ما يقرأ وبين الفينة والأخرى أبحث عنها. لم أتمكن من تبادل النظر معها إذ أخفتها عني امرأة سمينة كانت تحجبها بجسد يشبه الكتلة الهرمية العارمة غير المتناسقة.

استسلمت للأمر الواقع، وإذا بصوت ناعم يدور بإبريق شاي على الجميع. بدأت بقائد الفوج الذي كان غارقا في أدعيته صبت له كأس شاي دون أن تطلب رأيه، وتناوله هو أيضا دون أن يرفع رأسه من على صفحة الكتاب، ثم نظرت إلي قائلة بعربية في لكنة استشراقية:

- أتريد شايا أم قهوة؟

نظرت إليها، ارتبكت ومثلي فعلت فارتجفت يدها وكاد أن يسيل الإبريق:

- شاي، قلت ذلك دون تفكير.

صبت لي كأس شاي، كانت أناملها مسبوكة بدقة في بياض فارسي مذهل ومثير.

وإذ تناولت الكأس حرصت على أن تلمس أناملي يدها. فتكهربت.

حين وصلنا مقام السيدة زينب وجدناه غاصا بالحجاج والزوار الذين جاؤوا من مدن إيرانية وعراقية ولبنانية. بحر من بشر في موج أسود. ركن السائق الحافلة في موقف مخصص لذلك. نزلنا. هذه أول مرة أزور فيها مقام السيدة زينب. شعرت بضيق ونفور من جراء هذا الخلق الكثير الذي يتجمع داخل وحوالي هذا الضريح الوهمي ربما!!

جميل أن يعيش الإنسان الوهم الذي يجعله سعيدا.

الزوار يبكون ويشدون بحرارة على القضبان التي تحيط المقام. ويتمسحون بكل شيء تصل إليه اليد طالبين بركات السيدة زينب، بركاتها في المال والولد والصحة وفي اكتساب مقعد في جنة المؤمنين إلى جانب علي كرم الله وجهه.

في كل جهة وفي كل وقت الناس تصلي وتدعو جهرا وهمسا وصمتا، الجميع في حالة من الهستيريا الإيمانية.

وأنا كنت أراقبها. كانت تصلي بعمق وتبكي كما يبكي الجميع.

وكنت أتساءل ما عساها تقول في أدعيتها وفي صلاتها. أنا الآخر أخذت مكانا في ركن من قاعة الصلاة وقرفصت وبدأت أراقب حركات الجميع. حاولت أن أصلي فلم يستطع الإيمان أن يجيئني ربما لأن الشيطان كان قد استولى على كل قلبي فلم يترك لنور الإيمان طريقا. ما كان في قلبي سوى هذه الإيرانية المثيرة، فتنة في الدنيا وفي الدين.

من هنا، أراها الآن بشكل جيد وهي راكعة ساجدة باكية داعية وقد نسيتني إذ وقفت بين يدي السيدة زينب. وهو ما جعل الغيرة تسكنني، كيف لميت أن ينسي حيا.

جاء وقت الغداء، فكان علينا أن نتخذ لنا مكانا غير بعيد من الضريح، تحت شجرة، أخرجت النساء ما تم جلبه من مأكولات، بعضها تم شراؤه من دمشق والبعض الآخر تم تحضيره والإتيان به من أصفهان. التي يقول عنها الإيرانيون إنها (نصف الدنيا).

كان الجميع صامتا تحت تخدير الزيارة وإرهاق البكاء والتوحد والتهجد، وحدي كنت أراقب هذا الصمت بنية الثعلب متتبعا حركات هذه الإصبهانية الجميلة.

الآن فقط أعرف أن رئيس الوفد هو والدها، ذاك ما فهمته من كلامها وهي توزع الخبز وقطع الدجاج المشوي علينا. ليست لدي شهية للدجاج، لي شهية أخرى لدجاجة أخرى. أنا الثعلب!! أناجرو الجبل.

– اسمها فرح، قال أبوها، سميتها على اسم الملكة فرح ديبا التي أحببتها كثيرا رغم كل الذي حصل والتي كتبت فيها قصائد عشق كثيرة، وضحك.

قال ذلك مبديا نوعا من القرف، شعرت من حديثه أنه لا يحب هؤلاء الذين جاؤوا السلطة بعد الثورة الإسلامية، وكأنه من تنظيم مجاهدي خلق.

أنظر إلى أصابع قدميها اللتين تسبحان في بياض فائض بالشهوة داخل نعل من الجلد البسيط، شعرت أنها تتحرك أكثر، تروح وتجيء، كأنما تريد أن تستعرض ما يمكن الإيهام به من تفاصيل جسد مدسوس في عباءة سوداء فضفاضة من حرير أو كتان خفيف هفهاف.

حاولت أن أجاري الجميع بأكل قطعة اللحم وقضم قليل من السلاطة الخضراء. التهم الجميع ما قدم لهم في رمشة عين وجمعت البقايا في كيس بلاستيكي كبير، جاء وقت الشاي ووضع صحن كبير من الفستق الإصفهاني في الوسط. لم أشاهد في حياتي حبات فستق بهذا الحجم أو هذا اللمعان على القشور.

انطلق الأب رئيس الفوج كي يتوضأ ويصلي، فشعرت بالفرصة مواتية كي أكلم فرح، لكني ترددت، شعرت بنوع من قلة الحياء وقلة الأخلاق وهتك عرض الثقة.

اكتفيت بأن شكرتها على الشاي والفستق وتيقنت من خلال ردها المقتضب أنها تتحدث عربية لا بأس بها.

طلب الأب من الجميع العودة إلى الضريح لصلاة أخيرة أي صلاة المغرب، قبل الرجوع إلى دمشق، وطالبهم بالإكثار من الأدعية. انتبهت فإذا النهار بالفعل قد رحل أو كاد وأوشكت الشمس الربيعية الباردة أن تغيب.

لم تطل الصلاة الثانية كثيرا والتي اختتمت بصلاة جماعية بركعتين شاركت فيها أنا أيضا وهي صلاة الوداع.

أخذنا أماكننا في الحافلة ارتفع صوت المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وكما في المجيء، لم ينتبه أحد سواي إلى آيات الذكر الحكيم. كان صوته يثيرني ويوقظ في شجنا ما، حنينا إلى شيء ما أو خوفا من شيء ما.

استطعت وفي غفلة من الجميع الذين كانوا يصارعون التعب ويغالبون النعاس أن أمرر لفرح وفي سرية رقم غرفتي مكتوبا على قطعة ورق صغيرة.

ابتسمت ابتسامة لم أفهم مغزاها إلا أنها أشارت وبحركة استهزائية إلى والدها الذي كان إلى جواري يغرق في نوم عميق على موسيقى شخير متقطع.

ونحن نقطع مدينة دمشق كان لشوارعها في الليل سحر آخر. المحلات مضاءة والناس في حركة دءوبة وأصوات أجهزة الراديوهات المعلقة أو الموضوعة عند عتبات المحلات ترسل الأغاني والأخبار.

حين وصلنا الفندق جاءني القيم على مكتب الاستقبال ليخبرني بأن أبا بسام تم نقله إلى المستشفى المركزي وقد وضع تحت العناية المشددة في غرفة الإنعاش الكبرى.

قلبي يقول لي إنها النهاية، نهاية رجل قضى خمسين سنة يلعب بحزم الأوراق النقدية ويشرب الشاي ويتحدث بمودة وحياء عن بناته.

ذهب كل إلى غرفته. لم أنتبه كيف افترق أفراد الفوج وقد كنت منشغلا بخبر أبي بسام الذي هالني.

صعدت إلى الغرفة وقد لاحظت أنه تم إصلاح عطب المصعد، لكني فضلت الصعود عبر السلالم لأن مثل ذلك يخفف علي كثيرا من القلق ويمتص قليلا من التوتر.

ارتميت على السرير وبكيت بداية نهاية أبي بسام كما لم أبك أحدا من قبل. الأن أشعر أن في هذا الرجل الطيب صورة الأب الذي خانته أمي ذات زمن الثورة.

فجأة يهجم علي وجه زبيدة فأشتاق إلى وهران وإلى شارع جبهة البحر وإلى كورنيشها الطويل الجميل، وأتساءل، هكذا عن سر اختطاف الأمير عبد القادر من قبل دمشق التي لم يستطع الفكاك من سحرها وهو الذي طاف كثيرا من البلدان بمدنها التاريخية العظيمة.

الفصل العاشر

عزاء الربيع

أشعر بإرهاق كبيرهذا الصباح. أتكاسل في مغادرة السرير. أسمع جلبة وأصواتا عالية وغير عادية تأتي من بهو الفندق لتصل حتى غرفتي في الطابق الثاني. أنفض جسمي النحيل من أحلام الليلة وأجره جرا إلى تحت المرشاش. أشعر باستفاقة تتسلق جسدي قليلا قليلا. أنتبه فأجد شعر لحيتي قد ملأ وجهي وأصبح كثا.

لقد أصبحت رجلا. الرجال عندنا يقاسون بشعر لحاهم.

أنزل السلالم بسرعة، أتحاشى المصعد الذي تزعجني جعجعة أسلاكه وهي تتحرك في البكرة، أبحث عن رائحة الإصفهانية علني أجدها حرة من سلطة أبيها المناضل في صفوف مجاهدي خلق أو حزب توده.

كل شيء يتبخر.

فيلق من رجال البوليس بألبسة عسكرية ومدنية وبعض الأطباء والمساعدين الطبيين يملئون مدخل الفندق.

استنفار. هذا صباح أسود.

هذه دون شك كارثة جزائرية أخرى. سألت القيم على مكتب الاستقبال فقال:

– ما الذي حدث؟

– يبدو أنهم عثروا على جنين حديث الولادة مخنوق مرمي في

أكياس فضالة الفندق.

أمر رجال الشرطة جميع النزيلات البالغ عمرهن أقل من خمسين سنة بالنزول. تم تجميعهن في سيارتين طبيتين توجهت بهن إلى مستوصف التحليل، بسرعة اكتشفت صاحبة الجنين والتي لم تكن سوى إحدى طالبات قسم اللغة الإنجليزية والتي أقلعت عن دراستها في جامعة الجزائر العاصمة وجاءت إلى دمشق كما جاءت الأخريات، وقد اعترفت أمام المحقق دون لف أو دوران وحتى قبل أن تجرى عليها الفحوص الطبية. وحين أعيدت النزيلات إلى غرفهن، كانت من بينهن أم الجنين التي هي الأخرى تم إخلاء سبيلها دون إزعاج. قيل لي فيما بعد إنها كانت على علاقة بأحد المتنفذين في الشرطة الأخلاقية. إذن كان لا بد من طي الصفحة دون فضيحة.

بدأت أشعر أن فندق قرطاجنة أصبح أكثر فأكثر تحت الرقابة المستمرة لرجال الأمن على اختلاف أصنافهم وألبستهم.

وأنا أستفسر رئيس مكتب الاستقبال للفندق عن أخبار وحال أبي بسام. نزل فوج الحجاج والحاجات الإيرانيات، نظرت خلفي فإذا فرح في مقدمة المجموعة وكأنما أرادت أن تعلن لي عن وجودها هذا الصباح. ابتسمت لها وابتسمت للجميع. أخذوا لهم أماكن في مقهى الفندق جاءهم النادل بصينية الشاي والقهوة وبعض الفطائر والجبن والزيتون.

أحس بأن هذا اليوم ليس لي.

أعود إلى الغرفة، أطل على وجهي في المرآة. ألقاه مغبرا ومتعبا وحزينا. أنتبه إلى أن الملابس الداخلية للعنابية لا تزال ملقاة على

السرير، أجمعها وأردها إلى الكيس النيلوني وأرمي بها في الدولاب اللوحي العتيق.

أريد أن أنسى.

أطل على الساحة وكأنني أبحث عن واحد معلق في عمود الشنق. لا أحد، فعلت ذلك وكأنما كنت أنتظر أن أجد جثتي معلقة بهدوء هناك. لقد تعبت من نفسي ومن جثتي، فمن يريحني منها؟ أغلق النافذة وقد تغير الجو فجأة إذ عاد فصل الشتاء من جديد. أتمدد على السرير فتسكنني زبيدة وأتساءل يا ترى ما حالها؟

وأشتاق إلى وهران وإلى نبيذها.

وتجيئني ولأول مرة، وها قد مرت أزيد من ثلاث سنوات على وجودي في هذا الفندق، رغبة في كتابة رسالة إلى أمي لا لشيء إنما لأسأل عن أحوال زبيدة ولأعرف بأن القائد لا يزال حيا يعاني في مرضه.

أخرج قلما وأمزق ورقة من دفتر دروس هي الأخرى قاطعتها منذ زمن وأكتب:

«أمي العزيزة»

ثم أشطب على كلمة «العزيزة»، إنها ليست عزيزة.

أمزق ورقة أخرى وأرمي بالأولى عند قدم السرير وأكتب:

«أمي

أكتب إليك وأنا في حالة جيدة ودروس الجامعية على أحسن وجه وأتمنى أن تكوني بخير» أتوقف وأعيد قراءة الرسالة فأكتشف كذبي وأمزق الورقة ثانية. وألغي فكرة كتابة الرسالة نهائيا. ليس لي

أي شيء لأقوله، وليس لي أي شيء أسأل عنه.

أسحب كتابا من رزمة كتب كان قد أعطاني إياها المانو قبل أن يرحل، كتابا بالفرنسية بعنوان «Le Témoin» (الشاهد) للشاعر جمال عمراني. أقرأ قليلا منه، فيشدني بكل ما فيه من فضائع، إنه عبارة عن مذكرات الشاعر في السجن. في هذا السجن تم خصي الشاعر وقتل الفحولة فيه فعاش مثليا.

هكذا يبدأ الكتاب السيرة الذاتية في السجن الاستعماري الفرنسي بالجزائر:

«أنا جمال عمراني مولود في 29 أوت 1935 في أومال ابن بلقاسم عمراني قابض بالبريد ومتقاعد، مستشار بلدي سابق ومقاوم معطوب بنسبة 75 بالمائة حائز على ميدالية عسكرية، وصليب الحرب مع سعفة فارس فيلق الشرف ل 14 جويلية 1956 وأخو أندريه عمراني عامل تقني بالمؤسسة الفرنسية للإذاعة يعمل في الدفاع الوطني، وصهر علي بومنجل، محامي بمحكمة الجزائر، ثلاثتهم اختفوا في ظروف سأذكرها فيما بعد.

أعلن تحت القسم أن كل ما سأقوله حقيقي وصادق، إن هذه القصة فيما تبقى ليست فقط قصة عائلة جزائرية، بل إنها قصة المئات والآلاف من أبناء الجزائر.

كان أبي رجلا يؤمن ويحب فرنسا، يقف مستعدا وينزع قبعته ما إن يسمع أولى نغمات «المارسييز»، لقد تجنّس قبل ميلاد ابنه البكر وعندها طلب من أمي أن لا ترتدي «حايكها» معتبرا نفسه فرنسيا حقيقيا وقد أعطانا تربية غربية وذهب إلى حد أن أعطى اثنين منا أسماء فرنسية وخاصة أخي أندريه الذي يكبرني بست سنوات.

عمي من جهته تزوج من أوروبية وأبناؤه فرنسيون، أخي عبد المالك مقاوم سابق في فيلق ألمانيا وإيطاليا والذي خرج منه برتبة ضابط صف، كان هو كذلك قد تزوج من أوروبية من الجزائر ولكن مشاكل عديدة اعترضته فبل أن يتحقق هذا الزواج، منها لأن أهل خطيبته اعتبروا أن هذا الإتحاد غير متكافئ وقد جاءوا إلى لقاء عائلتي وشرحوا لها بأنه بؤس أن تتزوج ابنتهم بعربي. صهري بومنجل ردّ عليهم بنفس اللهجة قائلا: «إذا نحن ضحّينا بقبول ابنتهم في عائلتنا فإن ذلك فقط لكوننا نحب عبد المالك». وتم الزواج.

قبل الأحداث التي أرويها هنا، تزوجت إحدى أخواتي بدورها وقدمت إحدى الجرائد العاصمية عائلتنا كالنموذج الحي على التفاهم الفرانكو إسلامي.

كل هذا لم يجنبنا الآلام فمنذ صغرنا، بكل ما يحمله فرنسيو الجزائر ضدّنا في المدرسة البلدية كعرب، كنا نرغم على الجلوس في آخر القاعة وتعطى لنا الكتب الأكثر اتساخا وتمزيقا وقليلون هم الأوروبيون الذين يقبلون اللعب في ساحة المدرسة مع المسلمين.

هذا بيننا، أخجل اليوم من القول أنني كنت فخورا بأن ألعب أحيانا مع الأوروبيين».

أفكر في زبيدة وفي أمي والقائد وأواصل القراءة:

«...و رأيته يأخذ من على المكتب كلابة ويمسك بيدي اليمنى ويدخل بنصري بين فكيها ويضغط بكل قوته، وأطلق صراخا. يتوقف، يضع الكلاب جانبا، ينهض، يغلق النافذة ويعود إلى الجلوس، أصبعي يقطر دما. يأخذ يدي ويضغط من جديد، الألم

فظيع ولم أستطع كبح صراخي.

– إذن أنت هو مثقف العصابة على ما يبدو؟ قل لي إذن قليلا مما كتبه مونتاني Montaigne

لم أكن انتظر مثل هذا السؤال هنا وفي مثل هذا الوضع. وبقيت مذهولا. ولكنه يكرر طلبه.

– دراسات

هذا منحني الحق في صفعة وعاد الصوت الكهفي.

– ومونتسكيو Montesquieu؟

اعتقدت أنني عدت إلى الثانوية

– رسائل الفرس 1721

لكمة في الوجه.

ثم؟

سبب رفعة وانحطاط الرومان.

وبعد؟

– روح القوانين

هذا ما كنت أريدك قوله، روح القوانين، الأفضل أن تعرفه أكثر، أنزع ثيابك.

ببطء نزعت قميصي، نعم، الجوارب والسروال كذلك كما في الكشف الطبي: عاريا!

أجلسني مقابل مكتبه وطوق صدري بسلك ناقل للحرارة، قدماي في إناء حديدي مملوء بالماء.

أعاد القول:

- إذن قل لي منذ متى وأنت في الجبهة؟
- لست من الجبهة، لقد قلت لك هذا.

في هذه اللحظة رأيته يدير مدور علبة موضوعة على مكتبه. وأحسست بتيار كهربائي يجتاحني فجأة. وأطلقت صرخة مدوّية، وللمرة الثانية يقوم ويشغل جهاز الإليكتروفون الذي بدأ يصوت بكل قوة بأغنية حب. إن هذا يفسر الحفل الدائم الذي يرسل إلى زنزانتنا، من جديد يطرح سؤاله، الذي أجبت عنه بنفس الإجابة وفي كل مرة ينعم علي بشحنة كهربائية، وقد أصبح ذلك سريعا وغير محتمل، وأنني مستعد لعمل أي شيء، قول أي شيء لأتفادى إطالة التعذيب».

الآن أفكر في المانو وأرغب في أن أهاتفه لأستفسر عن أحواله وأعرف هل ما زال على وعده في استقبالي إذا ما عنت لي فكرة الالتحاق بصفوف الثورة الفلسطينية.

يدق جرس هاتف الغرفة، لا أرد، إنها دون شك فرح الإصفهانية أو أبوها كي أصحبهم في زيارة جامع الأمويين. ليست لي رغبة في مغادرة الغرفة. وأعود إلى كتاب «الشاهد»:

«...ذات يوم كتب أبي المسكين على ورقة قائمة بأسماء جميع أوسمته وتشريفاته وقرر أن يذهب ليسلّمها بنفسه إلى قائد القاعدة.هذا الأخير تأمل الورقة ونظر ببرودة إلى أبي. مزق الورقة قال له:

- ها ما ترد به عليك فرنسا.

أصبح أبي مجنونا تقريبا من الألم وعند عودته حكى لنا

المشهد».

ويرن التليفون ثانية. لأول مرة أسمع رنين التليفون في أذني وكأنه زمور سيارة إسعاف. أتردد ثم أرد:

– ألو...

– البقية في حياتك، لقد توفي أبو بسام.

كان صوت القائم على مكتب الاستقبال في الفندق مبحوحا ومنكسرا وضائعا.

سقطت السماء من سمائها.

أرمي السماعة وأقفز ولا أدري ما أقوم به. الأرض زاغت من تحتي. وقفت عند مدخل الفندق، لم أستطع مواجهة القائم على مكتب الاستقبال، كان منهارا تماما. نظرت إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه أبو بسام، إنه لم يبرح مكانه، لا يزال قدام باب الفندق، تناولته برفق وأدخلته.

لأول مرة منذ دخلت دمشق أشعر بأن المدينة أصبحت مخيفة وموحشة ورأيتني فيها كالخروف بين الذئاب. أصبحت بدون توازن.

ماذا علي أن أعمل يا ربي وأنا الذي لا يفهم في الجنازات. قلت سأخبر جارنا صاحب محل بيع الثلاجات الوطنية والمستوردة عله ينقذني فيصحبني إلى أهله وأكون بذلك في ظله أتحرك وأفعل ما يفعله.

سلمت عليه، لم يرفع رأسه إلي.

– البقية في حياتك يا أبا خالد، لقد رحل أبو بسام هذا الصباح.

رفع رأسه قليلا ثم قال:

- هل له ورثة من الأبناء.

صعدت معدتي إلى حنجرتي، أسرعت خارجا وأفرغت ما فيها على الرصيف. رجعت إلى الفندق وطلبت من المسؤول على الاستقبال أن نذهب للوقوف مع عائلته ربما تكون بحاجة إلينا.

وذهبنا، حين وصلنا وجدنا صفا من الكراسي منصوبة عند مدخل باب بيت الفقيد. الناس تشرب القهوة وتدخن وتتحدث عن سعر الإسمنت وتهريب الخبز من طرابلس والبنزين من العراق وعن حركة السير التي أصبحت صعبة في دمشق وعن الرز الذي أصبح نادرا وقد ارتفع سعره خارج سعر المؤسسات الاستهلاكية إلى ثلاثة أضعاف أو يزيد.

لم يكن باديا عليهم أنهم جالسون في جنازة أبي بسام. نعم أبو بسام.

ظللت واقفا. نظر إلي البعض وقد أدركوا بأني الغريب في هذا الجمع. بقيت واقفا أنتظر، لا أحد سألني ولا أحد سلم علي.

بين الفينة والأخرى كنت أسمع صوت مقرئ القرآن الكريم يجيء من جهاز تسجيل مبحوح أو ببطاريات ضعيفة.

بقيت مسمرا في مكاني بعضا من الساعة وإذا بصوت يصرخ في صلاة ودعاء عاليين وإذا التابوت يخرج محمولا على الأكتاف. ساروا به قليلا ثم وضعوه في سيارة حمل الموتى، سارت بروية وسار الجمع خلفها وكنت أنا أيضا أجرجر رجلي من خلف الجميع وأدفع جثتي النحيلة دفعا.

لم تطل ساعة الدفن إذ عاجلنا مطر ربيعي بقصف مائي كبير

مما اضطر الجميع في الإسراع إلى الانصراف أو البحث عن مخبأ تحت الأشجار.

لم أهرب من الماء الساقط عنيفا، كنت أراقب المشهد من مكاني على بعد بعض أمتار من القبر حتى رد التراب عليه كاملا ورحل آخر الجمع وكأنما أزاحوا من على أكتافهم مهمة ثقيلة، اقتربت من القبر وقفت عليه طويلا والمطر لا يزال ينزل بقوة، قرأت فاتحة الكتاب ثلاث مرات ثم تأملت جسده من خلال هذا التراب الأحمر الذي همي عليه. ثم انسحبت. لم يظل أحد بالمقبرة، كنت آخر من يخرج.

سرت راجلا وأنا أشعر بأن العقد الذي بيني وبين هذه المدينة التي تغتسل بالماء الآن قد انفرط. أريد أن أتحرر منها نهائيا. ثلاثة فقدتهم وهم الذين كانوا لي قاعدة في هذه المدينة: المانو الذي أعطى زوجته لأخيه وهرب نهائيا كما المنتحر إلى البقاع اللبناني مع مناضلي المقاومة الفلسطينية ومارغريتا العنابية التي ماتت دون أن تخبرني لماذا استعجلت رحيلها مبكرا وهي التي كانت تحب الحياة بعنف شديد وأبو بسام الرجل الطيب الذي علمني درس الحياة: كيف تضحك عليها ومنها وتعبرها وأنت تشد على حزم الأوراق النقدية.

كان أبو بسام طيبا، لم يطلب مني ليرة واحدة منذ سكنت الفندق وهذا منذ أزيد من ثلاث سنين. كنت أشعر أنه كان يريدني زوجا لواحدة من بناته. لم يصرح لي بذلك بشكل مباشر ولكني كنت أفهم ما كان يرمي إليه حين الحديث عن السلوك العالي لبناته الستة عشرة.

الزواج نصيب ومكتوب يا أبا بسام.
الآن بعد أن غادر هؤلاء الثلاثة المدينة فإني أنا الآخر سأرحل. سكنتني فكرة السفر نهائيا وأنا أغادر المقبرة.
لقد دفنت دمشق مع أبي بسام.
لم أكن قادرا أن أعود إلى الفندق في مثل هذه الساعة، هذا متعب لي نفسيا. مررت إلى بار ألفريدي مبكرا، قلت سأشرب كمية معتبرة من العرق كي أستطيع أن أرتب أموري في رأسي وفي الحياة وأواجهها في اليوم الموالي.
بار ألفريدي، في هذه الساعة من النهار، هادئ بزبائن أقل ضجيجا، لكن صاحبي، صاحب الساعة التركية والجدة العاشقة كان هناك، إنه لليل والنهار، وكما في كل المرات السابقة اعترض طريقي وهو يقول بصوت عال:
– لقد غبت طويلا، أتمنى أن تكون نتائجك في الجامعة جيدة يا حضرة المهندس.
جلست إلى جواره وكالعادة نظر إلى ساعته ثم نادى على النادل باسمه وطلب لي قنينة عرق توما اللبناني المهرب ولحما مشويا مع خبز لبناني مهرب أيضا. كان فرحا بوجودي ولكنه وقبل أن يلقي نظرة على ساعته انتبه إلى أنني مبلول من رأسي إلى أخمص قدمي. بدأ يسحب أوراق الكلينيكس من العلبة ويعطينيها كي أنشف شعري. جاريته فيما أراد. شربت كأسين ثقيلين من العرق فشعرت بحرارة منعشة تصعد جسدي قليلا قليلا، من أخمص القدمين إلى قمة الرأس. بسرعة تسامت السكرة إلى الروح. لم أدر كيف صعدت

طاولة وبدأت أخطب في الجميع من السكارى خطبة الوداع:

– أوصيكم بدمشق خيرا وبالعرق خيرين وبنسائها ثلاثا.

ونزلت، أشرت إلى الجميع بيدي مودعا بعد أن وضعت أوراقا نقدية على الطاولة ثمن ما استهلكت وجاري ويزيد وغادرت المكان. كانت المرة الأخيرة. في الطريق إلى الفندق نظرت إلى السماء وكأنما أودع المدينة من الأعلى، فالمدن بسماواتها ولدمشق سماء من نوع خاص.

وصلت الفندق وحاولت أن أتحاشى التفكير في هذه العتبة التي قضى فيها أبو بسام خمسين سنة، كنت أتمنى لو أني وجدت منفذا آخر للدخول غير هذه العتبة التي لا يمكن تصورها دون أبي بسام. دخلت غرفتي، كانت هي الأخرى جاهزة لتودعني. شعرت وكأن السرير مل مني وأن النافذة كرهت من النظر إلي وإلى هذه السماء وهذا العمود الذي لا يغير سوى من خلال هؤلاء الذين يشنقون فيه.

خفت أن أواجهني في المرآة.

ارتميت بألبستي فوق السرير. بدأت السكرة تهرب من رأسي. الساعة تجاوزت منتصف الليل، يدق الهاتف.

من يكلمني في مثل هذه الساعة يا ترى؟ وحدها العنابية كانت تتجرأ على مكالمتي متى عن لها ذلك. كانت أكبر من الليل ومن النهار. رحمها الله. أشعر الآن أني أقدرها كثيرا، وأنني مشتاق إليها. غيابها فراغ مدوخ. دوار.

أتكاسل في أخذ السماعة. يسكت صوت التليفون. برهة ويعود للرنين. هذه المرة أرد وأنا خائف من أن محدثي على الخط

سيصفعني بخبر سيء آخر شبيه بخبر رحيل أبي بسام.

– ألو

في الطرف الآخر من الخيط صوت امرأة غارقة في عسلها.

– أنا فرح.

طير صوتها من رأسي كل ما بقي من نعيم السكرة.

– مساء الخير. وبدأت أتساءل بيني وبين نفسي: كم تكون الساعة الآن؟

عاتبتني لأنني لم أرافقهم في زيارتهم لجامع الأمويين للتفرج على رأس الحسين.

قلت لها وكي لا أفتح الجرح المفتوح ولا أملحه:

– كنت على موعد طول اليوم، موعد لا يمكن تأجيله.

– وحده الموت موعد لا يمكن تأجيله. أجابتني.

– هناك مواعيد أخرى أيضا مهمة، هي الحياة يا فرح.

ثم دون أن تطيل الحديث اقترحت علي أن ألتحق بها في غرفتها، قالت ذلك وهي تعيد ثلاث مرات رقم الغرفة.

– 211، 211، 211

ترددت في البداية ولكني حين شعرت بتأزم في رأسي وذهاب السكرة ووجدت نفسي في مواجهة الليل الدمشقي القاتل قررت أن أذهب إليها وأكثر من ذلك فإن غرفتها في نفس هذا الطابق الذي أقيم فيه منذ أزيد من ثلاث سنوات.

قبل أن أغادر الغرفة نظرت إلى وجهي في المرآة كنت متعبا ومنهارا وقد ضاعت مني البوصلة في هذه المدينة التي غلبت

اليهود ويقال إن الرسول صلوات الله عليه وسلم لم يدخلها خوفا من تجارها واكتفى بالجلوس على أطرافها.

سحبت جثتي إلى الغرفة المقصودة. دققت الباب قليلا وبتردد وأنا أحضر عبارة أجهزها تجهيزا لأرد على الفاتح إذا ما كنت على خطأ، كأن أقول للفاتح:

- عفوا لقد أزعجتك، أنا مخطئ في الرقم، سامحني، تصبح على خير.

كنت أفكر في هذا وأكثر.

لكن الذي فتح كان امرأة بكل شهوتها وشهيتها.

- تفضل.

- الوقت متأخر قليلا، قلت.

- أنتظرك منذ الساعة التاسعة.

- كنت على موعد خارج الفندق.

قررت ألا أحكي لها قصة موت أبي بسام، لقد مات الله يرحمه. لكن علي أن أكذب حتى أحول سماء الغرفة إلى شيء مقبول.

- أنا أحضر شهادة ماجستير في الأدب العربي المكتوب بالفرنسية وكنت على موعد مع أستاذي لمناقشة بعض فصول الرسالة.

كنت واقفا في غرفة أصغر من غرفتي بكثير، غرفة دون كرسي، ولم أرد أن أجلس على السرير. سرير امرأة. السرير لا يجلس عليه، السرير يتمدد عليه!!! نظرت إلي وهي دون حجابها الأسود فبدا وجهها وشعرها تحت نور المصباح الأغبش في أبهة

وفتنة. قنبلة. دون أن تعير وجودي كبير اهتمام طلبت مني أن أجلس على حافة السرير. ثم طلبت مني أن اخلع معطفي الذي ارتديته سريعا دون تفكير. سحبت المعطف من على كتفي وجلست أنظر إليها، أتأملها. كانت جميلة، فتنة، في لباس نومها الحريري الذي يتبعها كذيل طاووس ملون وهي تتحرك حافية القدمين.

شيئان في جسد المرأة يثيران الشهوة اليدان والقدمان.

ارتمت على السرير وسحبت سيجارة من علبة المارلبرو. عرضت علي واحدة، أجبتها:

- إنني لا أدخن.

حاولت زبيدة التي كانت تعشق رائحة التبغ أن تشجعني على تعلم التدخين لكني لم أقو على تحمل ذلك. كنت أدخن لها ولأجلها وكانت سعيدة لذلك. كنت منفاخها. أنفث في وجهها الدخان فتنتعش وتفرح وتطير كالأطفال.

بدت فرح دون حجاب أصغر من عمرها أو بالأحرى مما كنت أتصورها عليه. كانت طريقتها في مص السيجارة مثيرة ومغرية. كانت تعض على السيجارة بين أسنانها بطريقة جنوسية وجنونية.

سألتني فيما إذا كان قد سبق لي أن زرت إيران. قلت لها:

- لا.

بعد سقوط الشاه، لا أتصور أن إيران بلد للزيارة، إنها بلد للصلاة أو الحرب.

قالت:

- أنا لا أحب آية الله الخميني ولا أحب الشاه ولكني أحب قراءة

«الشهنامة» وكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

سال لسانها عسلا من حديث متشعب عن رباعيات عمر الخيام وأشعار الحافظ و«منطق الطير» لفريد الدين العطار.

دهشت لثقافتها وأيضا للغتها العربية السليمة وحفظها لبعض أشعار المتنبي العروبي الذي كان ضد الأقوام جميعا بما فيها الفرس والترك والأكراد وما جاورهم.

كانت فرح تحفظ عشرات الأبيات من الشعر بعربية عالية كنت أغدقها على ذلك.

قلت لها ضاحكا:

– أنت سيبويه عصرنا. الفرس يحبون العربية أليس كذلك؟

تهجم علي صورة أبي بسام فتكسر متعة الجلسة. تذكرني فرح في ضحكتها بمارغريتا العنابية إلا أن هذه الأخيرة كانت أكثر عبثية وأكثر جرأة، أمام فرح وفي حضرتها كنت خجولا وقد أدركت ذلك مما زادها اعتدادا بشخصيتها.

أجزم الآن بأن فرح ليست ابنة رئيس المجموعة، إنها دون شك صديقته أو واحدة من المنتسبات إلى حزبه الشيوعي حزب توده أو تنظيم مجاهدي خلق.

تتحدث عن رئيس المجموعة بنوع من الازدراء والتجاهل. وهو ما جعلني أتشجع لأسحب رجلي من نعليهما وأتمدد أنا الآخر على السرير. ما أن استويت على السرير حتى ارتمت على قدمي وبدأت تمص أصبعي الأكبر في قدمي اليمنى وهي تلهث وترتجف. كنت خجولا من رائحة قدمي التي تصدر عن عرق الجوارب وبثار فطري

ينبت بين الأصابع. كانت منتشية وهي تمص أصبعي وهو ما أثار دغدغة في جسدي حاولت أن أقاومها بالنظر إلى لعابها الذي بدأ يسيل خيوطا وهو ما دفعها فجأة لخلع ثيابها والارتماء علي وقد بدأت تسحب من على جسدي ثيابي وأنا أشتعل قليلا قليلا. نار متقدة. فجأة ابتعدت عني قليلا وبدأت تحكي لي عن جسر أصفهان المسمى بـ «سي أو سيه» والمتكون من ثلاثة وثلاثين قوسا وقد تم بناء الجسر سنة 1602 م على عدد من العوامات الهائلة الاتساع.

كانت تتحدث عن مدينتها بمحبة ومديح كاذب كدليل سياحي محترف:

«.. ويعد هذا الجسر ملتقى للعشاق حيث ينتشر على ضفتيه العازفون والفنانون التشكيليون ورسامو البورتريهات من اللواطيين والمخنثين الأصبهان والأجانب وبائعو الذرة المشوية والفستق والفول السوداني».

كنت أنظر إليها وهي تتكلم بارتجافة خفيفة في شفتها العليا المكتنزة قليلا، كانت تخلط في حديثها، تتكلم دون ترتيب وكأنما كانت تريد أن تجيء وبسرعة إلى غرضها الأساس وهو رفع كل كلفة بيني وبينها. أخرجت سيجارة أخرى ومثل المرة الأولى عرضت علي واحدة، ومثل الأولى ذكرتني بزبيدة.

بدأت تتحدث عن عائلتها التي منذ جدها الأول لأبيها ومنذ إنشاء حزب توده وهو عضو فيه. وكيف أن عناصر السافاك قتلوه ورموا بجثته في نهر «زاينده» الذي يتوسط مدينة أصفهان، حيث على ضفتيه يتنزه آلاف السواح العرب والأوروبيين وهو نهر مبارك تجري مياهه زلالا من مرتفعات جبل بختياري الأصفر، ولا تزال بقية

صغيرة من مثقفي الحزب في المدينة وحتى اليوم تحتفل بذكرى استشهاده وذلك بإقامة تجمعات سرية صغيرة. ثم كيف أن عناصر الثورة الخمينية، بعد خمسين سنة، قتلوا أباها وبنفس التهمة وبنفس الطريقة ورموا به أيضا في ذات النهر.

كلامها عن استشهاد جدها وأبيها أعاد لي تفاصيل يومي الماطر وأنا أقف على قبر أبي بسام.

شعرت وكأنها تخفي عني شيئا ما، لم تتأخر إذ أخرجت كيسا بلاستيكيا صغيرا ثم نظرت إلي نظرة قطة مسكونة بالوحم ثم أخذت تبرم لها سيجارة من الحشيش.

– تريد واحدة؟

حركت رأسي إيجابا.

ابتسمت حين أدركت أني سأرافقها في تدخين هذا الذي هو أكثر أهمية من سيجارة تبغ أمريكي تشبه التبن أو زبل الحمير.

– الحشيش الأفغاني هو سيد حشيش الدنيا جميعها، حشيش طورا بورا. قالت ذلك بلهجة عاقلة، هادئة وعميقة.

من نار السيجارة الأمريكية أشعلت سيجارة الحشيش أخذت منها نفسا عميقا ثم قدمتها لي قائلة:

– تذوق ما تبدعه اليد والأرض الأفغانيتان. كابول هي طريقنا إلى جنة السماوات قبل الموت.

أخرجت كيسا ورقيا فتحته فوق السريرو إذا هو فستق إيراني من النوع الممتاز، حين وضعت شفتي على السيجارة شعرت كأنما وضعتهما فوق شفتيها، أخذت نفسا مبتورا. كانت تراقبني وأنا

أسحب النفس، وكأنما هي تنتظرني كي أبدأ الرحلة في غمام الدخان. قليلا قليلا بدأت أشعر بجسمي يفقد وزنه وبدت لي فرح في لباس نومها حمامة أو ملكا مجنحا طائرا في سماء الغرفة. كنا ندخن من سيجارة واحدة بالتناوب، وبيديها الناعميتن تفتفت الفستق بطريقة الخبيرة. تتحرك أناملها كما تتحرك أصابع عازفة ماهرة على البيانو. شعرت بوزني ينعدم.

كنت أتتبع حديثها عن تجربتها في الرسم فهي كما تقول فنانة تشكيلية معروفة في مدينتها وأنها أقامت عدة معارض في بلدها وفي أوروبا أيضا. وأنها رسوماتها وكل فلسفتها في الفن التشكيلي منبعها قصائد الشيرازي وعمر الخيام وابوالقاسم اللاهوتي وايرج ميرزا وأسماء أخرى.

قالت لي مبتسمة:

– أنتم العرب تحبون شعراء المدح والتذلل وتضعونهم في مرتبة الأنبياء وتنسوا شعراءكم الكبار من أمثال أبي نواس وابن عربي والحلاج والسهروردي.

معها حق، قلت في نفسي، إنها تقصد تأليهنا للمتنبي الذي قضى كل حياته باحثا عن الملك ومادحا الملوك وأنصاف الملوك.

أكره شخصيتين أساسيتين، هكذا يقال، في الثقافة العربية لأنهما عاشتا بضعف كبير تجاه السلطة والسلطان وهما: عبد الرحمن ابن خلدون وأبو الطيب المتنبي. كلاهما قضى حياته باحثا عن الولاية وواقفا كالذليل عند أعتاب قصورالملوك والأمراء.

حين تناولت السيجارة الثالثة المحشوة بـ «نعمة الأفغان»

المباركة كما تسميه، اندلق لسانها في حديث عن «حديقة الطيور» «باغ برنداكان» في أصفهان والتي بها مئات من أنواع الطير ويطبق فيها نظام زيارة صارم، حيث يمنع منعا باتا على الزوار الدخول إليها بساعة قبل غروب الشمس حتى يتسنى للطيور النوم مع بداية نزول الظلام.

قلت لها:

– أتمنى لو كنت طيرا في أصفهان. خير لي من جامعي تحول إلى صراف فاشل في بلاد العرب.

بدأت أنا الآخر أبحث عن شيء جميل في بلاد ثورة المليون ونصف المليون شهيد أفتخر به أمامها. لم أجد سوى حكاية مارغريتا العنابية كي أحكيها لها:

لا يوجد إنسان على وجه الأرض يحب بلاده مثل الجزائري، لقد تعرفت على فتاة ابنة البلد، جزائرية، في هذا الفندق دارت بها الدنيا الكلبة ولم تجد طريقا لقوتها سوى بيع جسدها في هذه المدينة التي تمتلئ برجال الخليج وأهل البلد الميسورين. فكانت تقوم بعملها في النوادي الليلية كأية واحدة من بنات الهوى، لكن قلبها وهي تنام مع هؤلاء الخليجيين أو الشوام من رجال المال والأمن والشرطة والمخابرات، كانت دون شك تجد عندهم المال ولكنها لم تكن لتجد عندهم رائحة البلد، فحولة الجزائري. لذا كانت تجيئني سكرى إلى غرفتي في آخر الليل إذ تعود من عملها في النوادي الليلية تأخذني في حضنها وتبكي قائلة بعد أن تكون قد مارست الجنس مع كثيرين:

– ذاك الذي نمارسه في غرف النوادي الليلية ليس جنسا، أرجوك

أريد منك «نيكة» على الطريقة الجزائرية. أريد أن أستحم من وساخة أجسادهم بفحولة جسدك، أريد جنسا من سلالة ثورة نوفمبر العظيمة، أريد أن أنظف أذني من غزلهم المائع بكلامك الجزائري الفحل والحاد المليء بالشتم والوقاحة الشعرية العالية.

ونضحك.

ونضحك.

ونضحك كطفلين ضائعين في مدينة أخافت حتى الرسول محمد عليه الصلوات والسلام.كنت آخذ العنابية وهي في حيرتها بحنان في أحضاني، أشدها إلى صدري شدا ناعما، فتقول لي: «سخني قليلا قليلا، يا ابن البلد». وحين أشعر أنها صفيح حام، ملتهبا أعرض عليها كأسا من العرق المثلث المهرب من لبنان والذي كان يمولني به أبو بسام، بالمناسبة أبو بسام لم يكن يشرب الكحول أبدا، تأخذ فازو العنابية كأسها تلعب به بين شفتيها ونهديها، نمرة شرسة، نجلس متقابلين عاريين، ننظر كقطين جائعين لبعضنا البعض، ما أجمل المرأة عارية إلا من أخطائها، كل ما تستر به جسدها هو تشويه وتبخيس لجمالها العالي الرباني.

في البداية لم أكن أعرف أن مارغريتا العنابية تحفظ شعرا شعبيا كثيرا، كانت حين تسكر كثيرا وتحشش قليلا تشرع في تلاوة قصائد الشاعر الشعبي عبد الرحمن المجذوب في ذم النساء وتعداد مناكرهن، كانت تتلو هذه القصائد كما تتلى الآيات البينات من الذكر الحكيم. نظرا لموقفه العنصري المعادي للمرأة لم أكن أحب هذا الشاعر الشعبي المشهور والذي تحول إلى شبه ولي صالح لدى العامة في بلدان المغرب العربي.

كانت العنابية تعرف جيدا أنني لا احب أفكارهذا الشاعر المتضمنة في قصائده، ولكنها كانت تصر أن تقرأ لي من أشعاره ما يغضني ويثير غضبي وحساسيتي السياسية ورفضي للذكورية المعادية للمرأة.

كانت العنابية تصر أن أنيكها بالجزائري. في البداية لم أكن أفهم معنى «أن أنيكها بالجزائري» ولكن فازو أفهمتني قصدها ومعناه: أن علي أن أمارس معها الجنس وأنا أتحدث إليها باللهجة الجزائرية مسميا كل ما له علاقة بالجنس من أعضاء وحركات ووضعيات ومديح باللهجة الجزائرية.

الجنس والحلم شيئان لا يمارسان بصدق إلا إذا كانا داخل غلالة لغة الأم والشارع.

– اللهجة السورية واللبنانية للمسلسلات والغناء والرومانسية أنا أريد عنفا، أنا مثلك جزائرية، مارس معي بشراسة يا ابن وهران.
كانت تصرخ وهي تصعد فليلا فليلا إلى قمة شبقها.

ضحكت فرح ومثلها ضحكت وعانقتها وعانقتني ونمنا عاريين إلا من نتف حديث غامض ومتداخل مثل جسدينا عن الشعر والفن التشكيلي وطيور مدللة في مدينة تسمى أصفهان ويقال عنها إنها «نصف الدنيا».

الفصل الحادي عشر

صباح ذاك المنكر السعيد

شعرت بأصابع يدها المرمرية الناعمة تتخلل شعري وهي تحاول أن توقظني وتطلب مني بنوع من الحذر أن أغادر الغرفة.

النهار طلع.

فتحت عيني وجدتني ممددا إلى جانبها على الأرض. كيف سقطنا من فوق السرير؟ بل كيف سقط السريرمنا؟ لست أدري ولم تكن هي الأخرى لتدري كيف وقع هذا السقوط نحو الأعلى أو نحو الأسفل.

ليس مهما.

بحثت عن ملابسي وحين عثرت عليها صدفة لبستها كيفما جاء وكيفما جاء، قبلت فرح وانصرفت. كنت أعرف أن اللقاءات الجميلة هي التي تنتهي هكذا دون حلم أو تخطيط أو كذب.

دون موعد.

وأنا أقطع الرواق للوصول إلى غرفتي التي تتواجد في الطابق نفسه تذكرت حكاية روتها لي صديقة طال بنا السهر ذات ليلة فتجرأت فسألتها وقد شعرت ببرودة ثلجية بيننا:

– ما هي أعذب وأجمل عملية جنسية مارستها في حياتك؟

كنت أعرف أنها صريحة وأنها لن تكذب علي، وليس هناك داع لذلك، لأنها لم تكن لها رغبة في..

سكتت قليلا ثم تظرت إلي قائلة وقد ركبت براق الذاكرة:

«... كنت أركب أحد القطارات الليلية الرابطة ما بين باريس وسترازبورغ، قطار بطيء، يتوقف عند كل محطة وكل مدينة وقرية، فيه التقيت بشاب لا أذكر ملامح وجهه نهائيا، متأكدة، والعهدة على روايته الكاذبة أنه كان يعود إلى بيت أهله وقد أنهى مدة الخدمة الوطنية التي قضاها في أحد البلدان الإفريقية، لا أذكر اسم البلد قد يكون ساحل العاج أو رواندا أو بنين، كانت عربة القطار التي وجدنا فيها حسب الحجز مظلمة قليلا. تكلمنا دون أن ينظر أحدنا للآخر عن الجو البارد وعن الاشتراكيين الذين وصلوا الحكم في فرنسا، حماسته الأيديولوجية تدل على انتمائه الاشتراكي، تحدثنا حديثا لا رأس له دون أن أتبين ملامح وجهه ولا هو تبين ملامح وجهي ولكني كنت أستشعر رغبة حيوانية جامحة فيه وكان هو الآخر يعرف أنني أبحث عن مثل هذه الرغية الوحشية التي توقظ المفاصل وتحيي الخلايا الميتة. أخذني دون سابق إنذار رفع تنورتي إلى الفوق قليلا واستدرت وانحنيت قليلا حتى أسهل له عملية الولوج، كالثور الهائج ولجني وفي ثوان أفرغ جنونه وجنوني وأسرع للنزول في محطته التي كان القطار يتوقف فيها لدقيقتين كما يقول الإعلان التسجيلي دائما. رتبت ثيابي ومسحت بعض محه الذي فاض على فخذي، وشعرت براحة عميقة لم أشعر بها في حياتي حتى الآن، واصل القطارالغبي طريقه مخترقا سواد الليل في رومانسية تنساب أمامي وأذهب في ليلها الهادئ الرائع، لم أحاول أن أطل أو ألتفت إلى المحطة كي أميز الشاب ولم يكن يهمني ذلك. ما احتفظت به منه من عسل هو أنفاسه ولهاثه وصراخه عى

قمة الشبق وعنفه وبعض من رائحة عرقه. لم يكن يهمني أن أسأله عن اسمه أو عنوانه أو رقم تليفونه ولا أريد أن أراه ثانية، لقد أخذت منه ما أردت وأخذ مني ما أراد وانتهى. وواصل القطار طريقه إلى سترازبورغ. الآن كلما أصعد عربة قطار ليلا وأجلس في عربة أو أشاهد قطار باريس سترازبورغ إلا وأتذكره. من هو؟ ذاك ليس مهما».

تسللت إلى غرفتي كان مهلل جامع الأمويين الذي يسمع من هنا يرسل صوته الناعم يهدهد المؤمنين والمؤمنات والذين لا يؤمنون أيضا. كان صوت المهلل يشبه صوت الفنان صباح فخري. تمددت على السرير، هرب مني النعاس. هجمت علي صورة أبي بسام ممددا في قبره وهو الذي قضى نصف قرن أمام هذا الفندق ضاحكا وكأس الشاي أمامه ونشاشة الذباب لا تفارقه والابتسامة أيضا. حاولت أن أطرد الصورة هذه بأن أشغل نفسي بالتفكير في المانو وزوجته التي تركته لتعيش في بلاد ثورة المليون ونصف المليون شهيد في سرير أخيه الأصغر.

أخيرا، وأنا ما بين مهلل الفجر ذي الصوت الرخيم وصورة أبي بسام، قررت وبشكل نهائي وحاسم مغادرة فندق قرطاجنة والالتحاق بصفوف الثورة الفلسطينية إلى جانب المانو أرافقه وأخفف عليه خيانة أخيه الأصغرو يخفف علي خيانة أمي.

علي أن أهاتفه كي أتأكد بأنه لا يزال في البقاع اللبناني وأخبره بقراري القاضي بالالتحاق بالجبهة. كان رقم هاتفه في مكانه حيث ألصقته عند رأس السرير منذ تلك الليلة التي غادر فيها هذه المدينة نهائيا جريحا بخنجر الخيانة. غفوت قليلا إذ شعرت بتعب ودوخة

في رأسي من جراء ما خلفته في «النعمة الأفغانية»!! وأخذني النعاس عميقا إلى ما بعد منتصف النهار، وإذ استفقت جررت جثتي النحيلة جرا وبكسل تحت مرشاشة الحمام. كان الماء الفاتر وهو ينزل فوق رأسي كأنما يدغدغ أجزاء نائمة فيه لتستيقظ أو لتعود إلى الحياة إربا إربا.

رتبت أغراضي في حقيبة كبيرة: بعض الكتب والملابس وبقايا فازو العنابية، أشياء أخرى بسيطة قررت أن أتركها للقيم على مكتب الاستقبال ولعشيقته منظفة الغرف صاحبة الأسنان الذهبية. فتحت النافذة لأطل على ساحة المرجة، ثلاث جثث لرجلين وامرأة معلقة في العمود. لم يزعجني المنظر كثيرا، بل تخيلتني من بين تلك الجثث، تركت النافذة مفتوحة على المنظر وعدت لأجلس على طرف السرير أفكر في لاشيء.

نزلت إلى مكتب الاستقبال طلبت من القيم أن يمرر لي رقم المانو بالبقاع. نظر إلي القيم وقد أدرك أنني مغادر. لم يتجرأ على سؤالي.

جلست في صالون البهو. كان القيم يركب الرقم ويعيد، يبدو أن الاتصال صعب مع بيروت.

وإذ جاء الصوت من الجهة الأخرى، نادى علي القيم:

– الخط مفتوح، أسرع يا إسحاق.

– ألو، ألو...أريد أن أتكلم مع الصيدلي الجزائري الحكيم المانو.

– تقصد الدكتور بنمعلم؟

– نعم.

– لقد تم نقله إلى بيروت وإذا كنت ترغب في الحصول على رقمه هناك، كلمني بعد نصف ساعة.
– شكرا سأعيد الاتصال لاحقا.

أقفلت الخط وقد شعرت بنوع من الارتياح كون المانو غير مكان عمله من البقاع إلى بيروت. أنا أريد الذهاب إلى بيروت. بدأت أفكر في المصير الذي آل إليه الفنان والمسرحي الجزائري محمد بودية الذي اغتالته الموساد بباريس وذلك بتفجير سيارته وهو يهم بالإقلاع بها. كان محمد بودية من أكبر أعداء الصهيونية لذا وضعته الموساد على رأس قائمة المثقفين الذين تمت تصفيتهم في باريس وفي أماكن متعددة في أوروبا.

عدت إلى صالون البهو، طلبت قهوة أخرى وأنا أحاول طرد دوخة الرأس من جراء «النعمة الأفغانية»!! التي باركتني بها فرح ليلة البارحة.

في الخارج الجو بارد قليلا على الرغم من أننا في نهاية شهر مارس. يسكنني هاجس الرحيل عن هذه المدينة التي أشعر وكأنها أصبحت وبسرعة كابوسا مرعبا. لم يعد للعرق مذاقه ولا لجلسات بار ألفريدي ولا القيلولة مع الجزائريات وفي أحضانهن ملحا أو سكرا، كل شيء فقد عسله وأصبح مرا أو بدون طعم.

طلبت من القيم أن يعيد الاتصال ببيروت، كان يغازل جهرا عشيقته منظفة الغرف ويطلب منها أن تنتظره في غرفة 307 التي غادرها زبونها هذا الصباح باكرا.

ركب الرقم، كان الجواب سريعا هذه المرة. إذ أعطانا المتحدث

إلينا رقم هاتف عمل المانو بلبنان دون أن يقول شيئا عن المصلحة التي يشتغل بها.

ركبت رقم بيروت، على الجهة الأخرى من الخط صوت سيدة تتكلم عربية مرشوشة بكلمات فرنسية. لم تتركني أنتظر إلا ثوان حتى جاءني صوت المانو مقهقها:

– أنت بدمشق أم بوهران؟

– أنا بدمشق وأريد أن أرحل الآن قبل غد.

بداهته وفطنته وضحكته الوثوقية، قال لي على الفور:

– هناك سيارة المصلحة الاستشفائية موجودة بدمشق وستعود الليلة إلى بيروت على الطريق العسكري، سأتصل بالسائق ليمر عليك في الفندق مساء ليصحبك إلى هنا. أنا في انتظارك الليلة.

وقفل الخط. كل شيء واضح في رأسه. ها أنذا أبدأ رحلة أخرى، فبأي شيء ستنتهي يا ربي؟ قلت ذلك في نفسي وقد شعرت بنوع من الحزن أو الخوف لترك هذا الفندق الذي عشت فيه قرابة الأربع سنوات. لقد أصبحت جزءا من فندق قرطاجنة.

صعدت إلى الغرفة. أحصيت أوراقي النقدية، فأنا سأدخل معركة جديدة بدون أبي بسام وبدون مارغريتا العنابية والأخريات من بنات الليل الجزائريات الطيبات اللواتي احتضنني ورعينني كل هذه المدة.

لقد مر الزمن بسرعة البرق. ما أحوال أمي، وزبيدة ما أحوالها يا ترى؟ وما أحوال القائد؟ في لحظة الضياع هذه أشعربالحنين إليهم وبإحساس الانتقام، في الوقت نفسه.

أنظر إلى وجهي في المرآة وأفكر في إلغاء السفر إلى بيروت

وتغيير الاتجاه إلى وهران، هناك سأصفي حسابي مع القائد ومع أمي التي خانتني وخانت والدي. سأنتقم لوالدي. لن يرتاح لي بال إلا بعد أن آخذ حق والدي منهما.

رن هاتف الغرفة، تمنيت ألا تكون الإيرانية على الخط بنعمتها الأفغانية!! وفستقها فتفسد علي مشاريعي وتعيدني إلى صفر القرار.

ترددت في الرد، فسكت الرنين. استرحت. دقائق وإذا منظفة الغرف صاحبة الأسنان الذهبية تدق علي قائلة بصوتها البدوي:

– سيارة تنتظرك في الخارج.

درت في الغرفة وأجهشت بالبكاء: لم أكن أتصور أنني مرتبط بهذا المكان إلى هذه الدرجة. حملت حقيبتي وخرجت، لأول مرة أشعر بأن مفتاح الغرفة في يدي له ملمس آخر. مفتاح صاحبني بقدر مصاحبة أبي بسام. كان البهو فارغا، لا أحد. نظرت إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه أبو بسام كل يوم وهو يداعب حزمات الأوراق النقدية ودعته وكأنما أودع فيه أبا بسام. سلمت المفتاح للقيم على مكتب الاستقبال ثم ودعته وقبل أن أخطو إلى الخارج نزلت النزيلات الجزائريات، جميعهن كن باكيات يعانقنني ويقلن لي «تركتنا لوحش المدينة»، أحطن بي وبدأن في صراخ ونواح وكأنهن يودعنني إلى القبر أو المشنقة. بكيت أنا الآخر وأنا أعانق هذه وتلك،

ثم تخلصت من جنونهن وبكائهن، ومنكسرا خرجت. هذه هي المرة الثانية التي أذوق فيها ملح الكآبة وأعرف حرقتها، المرة الأولى كانت في المقبرة حين وقفت تحت المطر الهامي بشدة على قبر أبي بسام وأنا أقرأ على روحه الطاهرة التي لم تذق حراما فاتحة الكتاب

العظيم.

كانت السيارة عسكرية والسائق في زي مدني. سلمت عليه، تناول مني الحقيبة ورمى بها في الصندوق الخلفي. اتخذت لي مكانا إلى جانبه. تحركت السيارة إلتفت لآخر مرة كي أودع فيها فندق قرطاجنة وعتبته التي جلس إليها أبو بسام مدة نصف قرن وقد تجمعت أمامها سرب الجزائريات باكيات مشيرات بأذرعهن لي إشارات الوداع.

اختفى الفندق. سبحت بأفكاري بعيدا، من وهران إلى دمشق،.

حتى أيقظني السائق قائلا:

– نمر لنأخذ معنا الدكتور إسماعيل، هو في انتظارنا.

لم أجبه. دار دورتين في مخيم اليرموك توقف عند باب دكان بيع الفلافل نزل الدكتور إسماعيل من شقة فوق الدكان، قبل طفلة صغيرة وودعها على الرصيف وأعطاها ورقة نقدية ثم سلم علينا بحرارة قائلا:

– ضيف الحكيم المانو؟

– نعم. أجبته.

وانطلقت السيارة بسرعة جنونية بمجرد ما تخلصت من زحمة هذا المخيم ذي الكثافة السكانية الكبيرة.

سقط الليل واختفت دمشق نهائيا.

الفصل الثاني عشر

على خطو إبليس

الطريق العسكري، هكذا يسميه أهل الشام وأهل طرابلس، كان سالكا. حركة قليلة، بعض آليات عسكرية تتحرك في الاتجاهين بشكل روتيني. حين طال بنا سكوت الطريق وأصبح ثقيلا كالرصاص، تكلم الدكتور إسماعيل من مقعده الخلفي قائلا:

– لقد تشرفت بالتعرف على الكاتب الجزائري كاتب ياسين في مخيم فلسطين ببيروت. كان مثقفا شجاعا وشيوعيا لا يساوم في مواقفه. كنا نجتمع في سهرات بيوت بعض الأصدقاء والرفاق وكان المثقفون وخاصة المسرحيون يجيئون للتعرف على هذا الكاتب المتميز. كان كاتب ياسين متأسفا وحزينا وغاضبا على ما آل إليه الوضع في جزائر الثورة العظيمة، بعد الاستقلال. كان يقول لنا: لقد ضيعنا الجزائر التي كنا نحلم بها وكان يحلم بها كل من الأمير عبد القادر ولالة فاطمة نسومر والشيخ الحداد والعربي بن مهيدي وعبان رمضان. من خلال الجلسات حول ومع كاتب ياسين تعرفت على كثير من السياسيين والمثقفين اللبنانيين والفلسطينيين والأمميين على رأسهم جون جونيه ومحسن إبراهيم وجورج حاوي وحسين مروة ومهدي عامل ومرسيل خليفة وإلياس خوري وبريتين بريتنباخ وغسان كنفاني وجورج حبش ونايف حواتمة وماهر الشريف وسعيد عقل وغيرهم.. كانت السهرات التي يجيئها كاتب ياسين تتحول إلى منتدى أدبي وسياسي عربي

وأممي.

قطع الحاجز العسكري حديث الدكتور إسماعيل مما ترك المجال للسائق كي يتكلم قائلا:

– الجزائريون فحول في الحياة وفي الحرب وفي السياسة.

لم يقنعني كلام السائق إذ ذكرني بأمي وبالقائد. لم أرد أن أعلق. تمنيت لو أن الدكتور إسماعيل واصل حديثه عن كاتب ياسين وجون جونيه.

– كان وقتها بصدد كتابة وتحضير مسرحيته عن «فلسطين» التي اغتصبت في غفلة منا وبمؤامرة منا، كما كان يقول، لست أدري هل تحقق هذا المشروع أم لا؟

– نعم لقد أنجز مسرحية بعنوان «فلسطين المغدورة». قلت.

– حين تعرفت على كاتب ياسين، وكنت قد سمعت عنه الكثير، حاولت أن أقرأ روايته «نجمة» لكني لم أفهم منها شيئا كثيرا، ربما لأنني لست خريج العلوم الانسانية، مع أنني أفهم ببساطة روايات عبد الرحمن منيف وحنا مينا وإلياس خوري وجبرا إبراهيم جبرا وغالب هلسا.

كلام الدكتور إسماعيل جعلني أفكر في كتاب «الشاهد» للشاعر المجاهد جمال عمراني، وأقول بيني وبين نفسي: كان المثقف الجزائري كبيرا إبان الثورة الجزائرية.

حاجز عسكري آخر يقطع حديث الدكتور إسماعيل. يأخذ السائق طرف الحديث قائلا:

– هذا آخر حاجز، نحن على مشارف بيروت.

ثم لست أدري كيف ولا متى ولماذا بدأ السائق يتحدث عن تجربته الشعرية وأنه كتب ونشر ثلاث مجموعات شعرية وأن إحداها قدم لها أحد قادة الأحزاب اليسارية اللبنانية. ثم بدأ يقرأ علينا بعض مقاطع من قصيدة طويلة كتبها عن سنواته في موسكو التي تخرج من أحد معاهدها العسكرية في إختصاص «اللوجستيك» العسكري.

شعرت براحة كبيرة وبأنس إذ وجدت نفسي ما بين سائق شاعر وطبيب صديق ومعجب بكاتب ياسين الذي نعتبره نحن في الجزائر أسطورة الرواية الجزائرية والعالمية.

مأخوذا بحديث الطبيب الأدبي واصل السائق قراءة بعض قصائده الثورية دون أن يطلب منا الإذن. كانت نصوصه مباشرة وسياسية عارية، وكانت قراءته حماسية وخطابية.

حاجز عسكري آخر.

– هذا حاجز شرطة بيروت الغربية. قال السائق الذي يبدو أنه معروف لدى جميع عناصر المخابرات والعسكر على الحواجز، من السوريين وجميع الفرقاء اللبنانيين أيضا. على كل حاجز كان يوزع علب البيرة وأكياس الخبز والجبن وعلب السجائر. كان سخيا مع الجميع على الجهتين.

أعجبتني شخصيته التي تتعالى عن كل اختلاف أو صراع سياسي أو طائفي. كان السائق ببيراته وربطات خبزه وعلب السجائر أكبر من الجميع، في اليمين كانوا أو في اليسار، في المسيحية أو في الإسلام.

كان السائق بعقليته الساذجة أكبر منا ومن كل هذه الحروب التي تبدو في عينيه تافهة وتسلية للقتل.

الآن ندخل بيروت بأضوائها وملابساتها وغموضها، لماذا أفكر في جبران خليل جبران الذي حفظت كتابه «النبي» عن ظهر قلب قبل أن أحفظ القرآن الكريم وأفكر في فيروز؟

توقفت السيارة عند مدخل عمارة يبدو كأنها مصلحة عمومية. نزل الدكتور قائلا:

– سنراك قريبا، سأعرف أخبارك عن طريق الحكيم المانو.

تحركت السيارة مخترقة شوارع ضيقة ومريبة، أنا لا أعرف بيروت. وبيروت مدينة تفاجئ في الجغرافيا وفي الناس، في الحب وفي القتل. كان السائق واثقا من نفسه ومن معرفته لهذا الغموض الذي في الليل والذي في الخارج.

فجأة جغجغت عجلات السيارة، توقفت. إلتفت إلي السائق الشاعر قائلا:

– هذا بيت الحكيم المانو.

شعرت بنوع من الطمأنينة.، إذ توقفت السيارة عند قدم عمارة مضاءة بشكل جيد.

نزلت، سبقني السائق إذ سحب حقيبتي من الصندوق الخلفي، لم أنتبه فإذا بالمانو ينتظرني وكأنما كان على علم بساعة الوصول:

– أعرف، الشاعر لا يتجاوز الساعتين، سياقة الفهماء والنبهاء.

كانت علامات الفرح بادية عليه وهو يستقبلني وقد تغير قليلا إذ ثخن جسده وطالت شواربه وابيض شعر رأسه عند الصدغين.

قبلني أربع مرات على الطريقة الجزائرية. ثم قال بحرارته المعهودة:
- تأخرت يا رجل. أنتظرك منذ ستة أشهر.

لم أرد، لم يكن لي كلام أرد به على مجاملته. دخلنا شقته التي فاجأني أثاثها الرفيع والعالي الذوق.

- نجلس في الحديقة فقد تحسن الجو كثيرا ولا يزال الليل في أوله. سيجيء بعض الأصدقاء لنسهر قليلا. على كل غدا عطلة نهاية الأسبوع.

غدا هو يوم أحد. أكره شيء لدي أيام الجمعات في الدول الاسلامية وأيام الآحاد في الدول الأوروبية، تبدو في هذين اليومين هذه البلدان حزينة وفارغة من كل حركة ومن كل حياة.

دخلت الحمام غسلت وجهي نظرت إلى نفسي في المرآة وجدتني مغبرا وكئيبا مع أن استقبال المانو أزاح عني ثقلا كبيرا كنت أرزح تحته.

الشقة هادئة، يبدو أن لا زوجة له ولا أطفال، خادمة محجبة تروح وتجيء وهي تحضر بعض الصحون على طاولة كبيرة نصبتها في الحديقة.

حين عدت إلى الصالون ذي التجهيز الإيطالي الفخم جاءت الخادمة بصحن عليه فنجانين قدمت لي الأول وقدمت الثاني للسائق الذي أفرغه في بطنه دفعة واحدة ثم سلم علينا وانصرف قائلا للمانو:

- صاحبك كنز، حافظ عليه.

رأيت المانو يسلمه بعض أوراق نقدية والآخر يحاول أن يتمنع

ولكنه أخذها وصبحنا بخير وانطلق. يبدو الحي الذي نحن فيه هادئا لا يسمع فيه إلا محرك السيارة العسكرية يدور.

كان المانو يرد على التليفون ويؤكد على موعد السهرة. شربت قهوتي فشعرت بانتعاشة في رأسي. خرجت إلى الحديقة كانت فضاء جميلا بأضواء خافتة وأشجار لم أتمكن من معرفة نوعها ولا سلالاتها، عرفت شجرة لوز وأخرى ليمونة من بقايا بعض حبات غلتها شبه اليابسة في فروعها. كعادة المانو لا يمكنه أن يدخل بيتا إلا إذا سمع فيه صوت مجموعة «ناس الغيوان أو جيل جيلالة». عدت إلى الصالون تصفحت رفوف المكتبة، كتب في السياسة وأخرى في الأدب والاقتصاد. من خلال السلسلة الكاملة لروايات باولو كويلو أدركت أن المانو يحب هذا الروائي البرازيلي الذي شغل العالم حيثما ترجم. بدأت أتصفح عناوين رواياته المترجمة إلى العربية، التفت إلي قائلا:

– هي زينب لا ترفع عينيها عن روايات باولو كويلو. لقد قرأت كلما نشر له في العربية بل إنها تقرأ الرواية الواحد سبع مرات أو يزيد وتحفظ بعض مقاطع من بعض الفصول. هي أكبر قارئة رواية في العالم العربي. يجب أن تمنح لها جائزة «القارئ العربي للرواية».

ضحكت وعلقت: إنها تقرأ أفضل من أساتذة جامعاتنا الذين أصبحوا يقودون المظاهرات بدلا من المحاضرات، مظاهرات ضد أمريكا وضد إسرائيل وضد الرجعية العربية وضد لست أدري من؟.

سألني المانو عن دراستي وعن أموري في الشام وعن الأهل بوهران. كنت غامضا وعموميا في إجاباتي، فأنا تركت دمشق ولا

أريد الحديث عنها، وهو أيضا لم يكن ملحا في أسئلته، كان يريد أن يذكرني بأن بيننا علاقة مدينة وبلد، ولكن مع ذلك أخبرته بموت أبي بسام صاحب فندق قرطاجنة الذي كنت أقيم فيه منذ أن نزلت دمشق.

- أبو بسام الصراف؟ الله يرحمه، كان طيبا، كل الجزائريين يتحدثون عنه بخير. علق المانو.

لم يفصح لي المانو في أول ليلة عن طبيعة عمله، اكتفى بأن قال لي إنه يعمل مديرا عاما في مستشفى المقاومة والحركة الوطنية. لم يكن يهمني معرفة شغله، كل ما كنت أريده هو أن يجد لي مأوى لديه حتى يفرجها الرب.

هواء بحري يجئ فيدخل من الحديقة ليصل ناعما وباردا قليلا حتى الصالون، معنى ذلك أننا لسنا بعيدين عن البحر.

- من أين لمانو كل هذه الإمكانيات حتى يسكن هذه الشقة الأرضية بهذه الحديقة وبهذا الأثاث الثمين والنادر؟

أول المدعوين يصل، زوج، شاب وزوجته، كان الرجل يحمل قنينة ويسكي والمرأة تحمل باقة ورد. ثم بدأ المدعوون يصلون تباعا، أزواجا أزواجا، لم يكن هناك أحد دون زوجة أو رفيقة، فجأة امتلأ الصالون وارتفع الضجيج ودارت الكؤوس ونادى المانو في الجمع:

- نشرب كأس صديقي الوهراني، ونرحب به في بيروت. نشرب نخب إسحاق.

صاح الجميع:

- بصحة الجزائر كلها وبصحتك يا إسحاق، وأهلا وسهلا بك.

كان المانو بين الحين والآخر يعرفني على ضيوفه باقتضاب شديد، أغلبهم من قطاع الصحة، أطباء وصيدليون وإداريون ومناضلون فلسطينيون أو لبنانيون من الحركة الوطنية.

تفرعت الأحاديث وقد طغى عليها خبر اختطاف أو اختفاء الكاتب والمناضل اليساري السعودي ناصر السعيد، الذي يقال إنه شوهد آخر مرة في مكاتب جريدة لبنانية كبيرة، وبعدها لم يظهر له أثر.

امرأة سعودية متزوجة بلبناني، تقول والسيجارة على طرف فمها، وقد غلبها الويسكي قليلا:

- يقال إن طائرة خاصة نزلت بمطار بيروت وهي التي نقلت الكاتب الذي تم تخديره ونقله إليها وقد طارت الطائرة فورا، ويقال إن الكاتب تم اغتياله وتذويب جثته في برميل أسيد من النوع العالي حتى لم يبق منه ما يذكر من أثر.

لم أفهم جيدا لماذا طلب أحدهم من الحضور رفع كأس محسن إبراهيم:

وشربنا في صحة هذا ال «محسن إبراهيم».

ثم طلب منا آخر شرب «نخب عبد الفتاح إسماعيل».

قطعت امرأة حديث السياسة الذي بدأ يذهب في كل اتجاه وبدأت تغني أغنية لفيروز. كان صوتها جميلا، بين الفينة والأخرى تلعب بسالفها الطويل الذي يبدو أنه يصل إلى أسفل ظهرها.

المرأة التي غنت فيروز كانت جميلة يصاحبها شاب هادئ بلحية

طويلة وطاقية على الرأس وقد بدا شبيها بشي غيفارا. عرفت فيما بعد أنهما جزائريان يعيشان معا وأنه هو فنان تشكيلي معروف في البلد وفي العالم وأما هي النازلة من عائلة قسنطينية عريقة فتكتب الروايات والأشعارعلى الرغم من أن اختصاصها الجامعي هو الهندسة المعمارية. لم يكن فيها ما يوحي بأنها تعرف شيئا قليلا أو كثيرا في العلم. كانت المرأة لا تتوقف من تمرير يدها على وجهها وتدلكه دلكا خفيفا كي توحي لنا بأن الخانة التي تتوسط وجهها هي خانة طبيعية وليست عبارة عن نقطة ماكياج.

سكت الجميع وبدأت بعض الأصوات النسوية والذكورية تردد معها أغنية فيروز «يا طير طيري يا حمامة».

وحين سكتت المرأة الجميلة وقبل أن يلح عليها الحضور بطلب أغنية أخرى رفع المانو صوته مرددا أغنية «وردة بيضاء في العلالي» للفنان الجزائري رابح درياسة. كان صوته مبحوحا وغناؤه خطئا ولكن الجميع تجاوب مع خفة دمه ومرحه وطريقة اندماجه في الأغنية.

كانت صاحبة الخانة والسالف الطويل لا تتكلم إلا عن أبيها. كانت تعشقه بطريقة مرضية، لم تجد في ما يذكرها بأبيها سوى بحة صوت الفنان الملتحي الذي يرافقها وحبه للكتب فبادلته الحب حبين وتزوجته.

يقول الملتحي: لم يكن يهمها فني التشكيلي كثيرا لكن حبها لأبيها واختلاط الأمر عليها بيني وبينه هو الذي جعلها تقول لي: أنا مستعدة أن أتبعك حتى ينطفئ صوتك.

حين لم تنتبه إلى رسوماتي بدأت أشتري كتبا كثيرة لا أقرأها

وأسرق كتب المكتبات العمومية ومكتبات البيع وأرتبها على رفوف زرقاء لوحية جميلة كل ذلك كي أقنعها بأنني أكثر عناية من أبيها بالكتب. في البداية كنت أتسلى، أريد أن أريها إمكانيات قراءة ثلاثة كتب في الأسبوع وكنت أحكي لها كتب جورجي زيدان كاملة بدسائسها وتفاصيلها حتى دون أن أقرأها. كانت تستمع إلي بشغف وتنتظر سقوط الليل كي أحكي لها ما قرأت. كنت أريد أن أسرقها نهائيا من أبيها. ولكني سقطت في شرك الكتب والقراءة.

لم أكن أعرف أنها تمارس الرسم إضافة إلى كتابة الشعر إلا يوم أحضرت لي صورة رسمتني فيها وكنت قبيح المنظر، بمجرد أن رأيت الرسمة وأنا فيها على هذا القدر من القبح، أقنعتها أنها لم تولد لذلك، إنما ولدت للغناء أو الشعر.

كان الفنان الجزائري يتحدث عن علاقته بزوجته بنوع من الصدق والطفولة.

حين انتبهت زينب الخادمة المحجبة إلى بوادر التعب بدأ تزحف علي بعض الحضور وخفوت بعض الأصوات واختفاء بعض الوجوه لتتمدد على أرائك الصالون، تحركت للبدء في جمع بقايا الأكل في كيس أو لتغيير الكؤوس وعينها لا تنام على طلبات المانو. كانت فطنة ويقظة. كانت حركاتها توحي للجميع بنهاية السهرة أو كادت.

حين بدأ أحد الحضور من المسرحيين العراقيين الهاربين من نظام صدام حسين يغني أغنية كربلائية حزينة، وقد خيم الصمت، بدأ البعض يستعد للانسحاب.

فجأة وكما تجمعوا بسرعة، افترقوا بسرعة ودون ضجيج.

الفصل الثالث عشر

حطب النار الموقدة

حين استفقت في الصباح الأول في بيروت كان المانو قد انصرف لعمله. فهو كما تقول الخادمة يستيقظ على منبه دائم في رأسه. مهما طال سهره فإنه يقوم على دقات السابعة صباحا. لا عطلة أسبوعية لمانو. أيام الأسبوع متشابهة والمواعيد كثيرة ومتوالية والهاتف لا يسكت لا في البيت ولا في المكتب.

سمعت صوت جهاز الراديو يأتي من المطبخ. كانت الخادمة تنظف أواني السهرة وترتب الكراسي والطاولات. أتابع صوتها وهي تدندن أغنية فلكلورية لبنانية فأجد في صوتها رنة السيدة ذات السالف الطويل والتي غنت البارحة أغنية لفيروز. لماذا يا ترى يسكنني صوت تلك السيدة الجميلة، تلك المهندسة المعمارية؟

تكاسلت قليلا في السرير ثم قمت إلى الحمام. اغتسلت بسرعة. ثم عدت إلى الصالون، جاءتني الخادم التي أتذكر الآن أن اسمها هو «زينب»، هكذا كان يناديها ضيوف البارحة.

صبحت علي وعليها صبحت أنا أيضا، كانت مبتسمة وقد غيرت حجاب رأسها من أسود إلى لون زهري.

– أتشرب قهوة أم شاي؟

– قهوة، أجبتها، وشعرت بعطش شديد يلتهب حنجرتي.

لم تتأخر بالقهوة ومعها كأس ماء كبيربارد شربته دفعة واحدة. خفضت زينب من صوت المذياع وعادت إلي في الصالون، قابلتني

ودون مقدمات بدأت تحدثني عن حيوات بعض ضيوف البارحة، يبدو أن بها غيرة تجاه المهندسة المعمارية لأنها ذكرت الجميع واحدا واحدا وواحدة واحدة باستثنائها، كنت أرغب في أن أسألها عن المهندسة لكني تراجعت إذ شعرت بأنها تتجنب الحديث عنها، ثم فجأة شرعت في عرض ثقافتها ومعرفتها الدقيقة بالكاتب باولو كويلهو وعن رواياته التي تحفظ دقائق شخوصها وتفاصيل أحداثها. وقالت لي إنها ترغب في تعلم البرتغالية كي تقرأه في لغته الأصلية لأنها غير مقتنعة ولا مرتاحة لمثل هذه الترجمات العربية المقرصنة.

عرفت دون أن أسألها، على كل هي لم تترك المجال للسؤال فلها السؤال ولها الجواب، أنها خريجة أدب عربي من الجامعة الأمريكية وأنها قدمت على مسابقة الماجستير فكانت من العشر الأوائل دون تدخل المانو أو استعمال معارفه وأنها ترغب في التخصص في الأدب البرازيلي وتريد أن تهاجر إلى ريو دي جانيرو لتقيم هناك كي تتعلم لغة باولو كويلهو على أصولها، فاللبنانيون كثر في هذه المدينة كما في ساو باولو ويمكنهم مساعدتها ريثما تقف على رجليها. كانت تتكلم بسرعة فائقة وتريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة، تدخل موضوعا ثم تدخل آخر دون الانتهاء من الأول.

قالت لي إنها تركت عملها كمدرسة في مدرسة ابتدائية خاصة لأجل العمل مع الحكيم المانو فهو يدفع لها ثلاث مرات ما كانت تدفعه لها إدارة المدرسة. وأنه يعاملها كصاحبة البيت وأرادت أن توحي لي بأن لا شيء مما يمكن أن يمر برأسي يجمعها بالمانو وأنها في ذلك النكران كانت تريد أن توحي لي بأن بينهما كلما ما

يمكن أن يتصور بين رجل وامرأة.

من أين لمانو كل هذه الإمكانيات يا ترى؟

اختفت زينب في غرفة في أقصى الرواق ولم أعد أسمع لا صوتها ولا صوت الراديو. تركتني وحيدا وقد شعرت بالراحة والحرية، دون شك، إنها تقرأ أو تعيد قراءة رواية من روايات باولو كويلهو.

قلت سأخرج للمشي قليلا في الحي حتى موعد عودة المانو فهو كما قالت زينب سيدق الباب على الساعة الثالثة زوالا. يتغذى ثم ينام قليلا ليبدأ سهرة جديدة واستقبالات أصدقاء يجيئونه من دول مجاورة وحتى من أوروبا.

أنا متأكد أن المانو شخصية مهمة في هذا المجتمع. شخصية قادرة على الحل والربط.

سرت في الحي قليلا ثم وصلت الشارع الرئيسي جلست في مقهى قليلا لتناول قهوة إيطالية. أول مرة منذ أربع سنوات يذكرني هذا المقهى بمقاهي وهران التي تعود إلى الزمن الكولونيالي بكونتوات الخشب النبيل وأدنان البيرة ونظافة الندل. إكسبريس. حين تجاوزت الساعة الثالثة بحوالي نصف الساعة، قلت علي أن أعود فالمانو يكون قد رجع من عمله. وأنا في طريقي إلى البيت صادفت زينب في منتصف الشارع تبحث عني وهي تحذرني:

– نحن على الحدود ما بين البيروتين «الشرقية والغربية»، عليك أن تنتبه كثيرا، أنت غريب وشكلك بهذه اللحية يدعو إلى التساؤل والريبة.

عدنا معا إلى البيت، حين دخلنا وجدت المانو ينشف شعره بعد أن انتهى من أخذ حمام خفيف، جلسنا إلى المائدة، لم تكن لي شهية تناول أي شيء. كنت قلقا دون أن أعرف مصدر هذا القلق.

كعادته بمجرد أن أنهى أكله، انسحب المانو إلى غرفته ليتمدد قليلا.

– هي عادتي، علي أن أكبس قليلا حتى أبدأ يوما آخر. اليوم في الشرق نهاران كما هو في إسبانيا.

قالت زيب معلقة:

– له خمسة وعشرون دقيقة، المنبه في رأسه ولا داعي لإيقاظه. المانو ولد بمنبه في الدماغ، كم مرة، إذ يكون على موعد مهم، يطلب مني كي أوقظه في الصباح، فأجده يسبقني إلى المطبخ لتحضير قهوته بيده.

مع أن المانو لا يمارس الرياضة، كما يبدومن برنامجه اليومي المكثف، إلا أنه محافظ على لياقة الجسدية ووسامته بشكل واضح. فهو يعرف ما يأكل وكيف يأكل ومتى يأكل. ضعفه الوحيد هو استهلاكه المفرط وغير المعقول للمشروبات الكحولية، فالبيرة مخلوطة بالبراندي والعرق المثلث رغبته التي لا تقاوم ولا يناقشه فيها أحد.

بعد خمسة وعشرين دقيقة بالضبط، كنت أراقب ذلك على عقارب ساعة الصالون، تحرك المانوفي سريره ثم خطا نحو الحمام. شرب قهوته التي، كالعادة، استقبلته بها زينب. شربت أنا أيضا فنجان المرافقة.

بعد تناول القهوة، خرجنا إلى المدينة، واندهشت إذ وجدت سيارة المانو لا تتحرك إلا متبوعة بحرس من ستة عناصر في سيارتين أخريتين من نوع جيب رباعية الدفع، كانوا مسلحين تسلحا واضحا. تساءلت: أهذا الرجل مهم إلى هذه الدرجة التي تجعله يتحرك في المدينة بحرس خاص؟ شعرت بنوع من الحرج وأنا أجلس إلى جوار المانو في المقعد الخلفي، جنب السائق يجلس ضابط حراسة بكرش متدلية وبرتبة وأوسمة على الكتفين، كان صامتا، مخيفا في سكوته. لم يتكلم المانو ولم يبادلني أية كلمة سوى أنه كان يسمي لي الشوارع التي نقطعها شارعا شارعا. لم تطل جولتنا، توقفنا عند ثلاثة محلات تجارية فخمة حيث وفي كل مرة كان الضابط ينزل دون أن يسمع من المانو أمرا أو طلبا، ليعود محملا بأكياس ملئى بالمشتريات المتنوعة. عدنا إلى البيت، السيارتان اللتان ترافقان سيارتنا تطلق صفارة إنذار حيثما تكون حركة السير غير سالكة فتنحرف سيارات المواطنين في خط مائل نحو الرصيف لتخلي لنا الممر.

أإلى هذا الحد أصبح المانوالوهراني رجلا محوريا في هذه المدينة الغامضة والساحرة.

لماذا أفكرالآن في سهى زوجته التي خطفت ابنته إيفا وخانته مع أخيه الهواري؟

في المساء جلسنا اثنتنا في الحديقة حيث نصبت زينب طاولة بأكل كثير من اللحم والسمك وأنواع السلاطة والمشروبات، صب لنفسه كأسا كبيرة من العرق وصب لي بيرة دون أن يطلب رأيي. وكأنما كان يعرف بأن لي رغبة في احتساء بيرة باردة.

كان الجو ربيعيا دافئا قليلا، تكسره بين الحين والآخرهبوب برودة رطبة قادمة من البحر، بحر بيروت.

على عادته التي لم يتنازل عنها، شرب المانو كأس العرق دفعة واحدة ثم حك شعر رأسه بطريقته المعتادة.

تحدثنا عن أخبار البلد وعن هجرة الجزائريين من بلدهم. عن تذمر الناس من الوضع العام وسقوط حلم الثورة الكبرى وانهيار أمل المواطنين البسطاء. وفراغ الخطب السياسية عن الاشتراكية والعدالة والثورة الزراعية.

أردت أن أسأله عن طبيعة عمله لكني أرجأت ذلك إلى يوم آخر. فمهنة طبيب أو مدير عام لمستشفى عمومي لا يمكنها أن تكون وراء هذه الوضعية الاجتماعية المتميزة والمرفهة والمحاطة بكل هذه الحراسة الأمنية المشددة.

حين سكر قليلا انفتح قلبه واندلق لسانه، استعاد عفويته في الحديث أكثر وأكثر. بدأ الكلام عن سهى التي قال إنه بعث في إثرها من يكتب له عنها تقارير يومية عن علاقاتها هناك مع أخيه الخائن الذي يبدو أنه تركها وسافر إلى إسبانيا بعد أن افتضح أمره في المدينة. انتمت سهى إلى الجامعة قسم الإنجليزية وغامرت في علاقة عاطفية مع أستاذ الحضارة الأمريكية المعاصرة لكنها تخلت عنه بمجرد أن عرفت بانتمائه للحزب الشيوعي المحضور، لم تعد تتحمل أي حديث عن الصراع الطبقي أو المرحلة الوطنية الديمقراطية. إنها تريد أن تعيش وتفرح وتنسى آلام هذا العالم المقرف وغير العادل. لم تعرف كيف وجدت نفسها متورطة في شبكة عصابة مكونة من طلبة جزائريين وسوريين ولبنانيين

وفلسطينيين يشتغلون في تبديل العملة وتهريب الحشيش القادم من المغرب إلى إسبانيا.

ما كنت لأصدق هذا الكلام، فسهى فتاة ريفية ليست لها الجرأة الكافية ولا الذكاء المطلوب للقيام بمثل هذا الذي يرويه عنها المانو.

شرب كأسا أخرى ثم قال:

– ستدفع الثمن غاليا. أنا لست من يضحك عليه، أنا المانو.

كان غاضبا، مستشيطا.

بدأت أشعر بأن وجودي معه تحت سقف واحد يقلقه وسيذكره بعالم وبأشخاص يريد أن يرمي بهم في عالم النسيان التام. هاأنذا وكأنني جئت قصدا لأعكر صفو حياته العسلية وأخدش سلطته الكبرى في هذه المدينة الغريبة.

ونحن نتجاذب أطراف الحديث وقد بدت عليه ملامح السكر وعلامات الاضطراب فكرت في الرحيل عن هذا البيت وفي أقرب وقت ممكن.

أين أذهب يا ربي؟

جاءت زينب وأخذت شرائح اللحم لتسخنها فقد بردت. ناولته قرص دواء وكأس ماء، بلعه بشكل أوتوما تيكي ودون تعليق، صب لنفسه كأسا كبيرة أخرى من العرق وطلبت منه أن يصب لي أنا أيضا كأس عرق فالبيرة يزعجني شربها في الليل، فأنا لا أريد أن أقضي ما تبقى من ساعات هذا الليل ما بين المرحاض والسرير في استعداد مستمر للتبول.

هدأ قليلا، عادت زينب وضعت شرائح اللحم المشوية على

الطاولة وحررت الفضاء من بعض الأطباق والكؤوس غير الضرورية. كان المانو ساهيا على عتبة سكره وكأنما فعل القرص فعله. ثم قال لي وقد تغيرت نبرة صوته تماما:

– أنا بحاجة إليك في العمل، أنت شاب ذكي وتحسن اللغة الفرنسية جيدا وتعرف الإسبانية أيضا وإنجليزيتك مقبولة، إنني أريد أن تكون ضمن فريق العمل في دائرة العلاقات والتعاون.

كنت أتابع كلامه دون تعليق.

ليكن، قلت لنفسي، فلماذا لا أغامر في مثل ما غامر به ابن البلد وها هو أصبح في المقام العالي يتحرك بالحرس ويغرق في المال ومحاط بالخدم وعشرات الأصدقاء الذين يجيئونه معجبين بنجاحه من أركان الدنيا الأربع. أتمنى أنا أيضا أن أراكم السلطة والمال وأعود إلى وهران كي أحاسب القائد وأنتقم لأبي منه شر انتقام. سنعود معا هو ليقتص له من سهى وأنا من القائد وأمي الخائنة. سأضع يدي في يده فكلانا له عدو لدود جاثم في تلك المدينة. وكلانا يقسم أن يأكل لحم خائنه حيا.

نعم سأكون تحت تصرفه وليجعل مني ما يريد فلن يكون إلا خيرا وبركة على مستقبلي، إن رجلا ناجحا لا يمكن إلا أن يعطيك بعضا من نجاحه ولو كان نزرا قليلا.

انتهت السهرة وقد أجهش المانو بالبكاء وهو يذكر ابنته ويريني آخر صورة له معها قبل أن ترحل في تلك العملية اللعبة. وأنا أراه يبكي أدرك أن العالم غير رحيم وأن أكلة لحم البشر موجودون في كل مكان.

صباح اليوم التالي طلب مني أن أصحبه إلى مقر عمله. خرجنا وإذا بالحرس، كما في جولة البارحة، يرافقنا ويفتح طريق سيارتنا بإطلاق صفارات إنذار قوية.

كان العمارة التي يداوم فيها المانو بسيطة، بناية من طابقين، تطل من الجهة الأخرى على بناية أخرى تابعة، فهمت فيما بعد بأنها بيت الجثث la morgue وأن المانو هو المديرالعام لبيت الجثث هذا.

قدمني بسرعة إلى مجموعة من معاونيه الذين كانوا يتحدثون إليه وعيونهم مغروسة في الأرض خوفا أو احتراما. وحين عرفوا بأنني ابن بلد المدير العام ومن مدينته أيضا تم الاحتفال بي أيما احتفال وكان الجميع يتسابق في التقرب إلي وعرض خدماته.

على الهاتف كانت امرأة أربعينية جميلة تتحدث بإنجليزية طلقة عارضة مجموعة من الأرقام والأعمار والمصدر وفصيلة الدم. حين أنهت مكالمتها قامت وقبلتني قبلتين على الوجه:

– إسحاق.

– نعم، أجبتها.

– كنت أتصور أنك أكبر من هذا العمر. على كل مرحبا بك في مصلحتي.

فهمت من حديثها أنها هي رئيسة دائرة العلاقات والتعاون.

– أنا اسمي نهلة. والجميع يناديني هنا ب «نيللا».

– اسم جميل.

– ستستقر بهذه المكتب المجاور لمكتبي كي تتدرب على العمل

جيدا لأنك ستخلفني مؤقتا فأنا مضطرة للسفر لمدة قصيرة إلى براغ لفتح مكتب لمؤسستنا هناك.

ثم علقت:أحب براغ لثلاثة أشياء: هي مدينة كافكا أولا وفيها عاش الشاعر العراقي مهدي الجواهري ثلاثين سنة أو يزيد وهي مدينة أشهر بيرة في أوروبا.

فكرت في كل هذا وأنا أحاول أن أتساءل: هل ضاقت أوروبا كلها كي يختار المانو براغ لتكون مقرا أوروبيا لهذه المؤسسة أم إن في هذا القرار أمر مدروس.

نيللا امرأة مبتسمة بشخصية كاريزماتية مهيمنة على الجميع. إنها صورة للقائد الذي لا تفلت منه التفاصيل. لحقت بي فور دخولي مع عون مكتبي، طلبت قهوتين ثم قالت لي:

– كنت أتصور أنك أكبر عمرا، رددت ذلك للمرة الثانية.

لنيللا ابتسامة ساحرة وطفولية. لم أرد أن أسألها عن تفاصيل سفرها إلى براغ.

سكت. ثم شربت قهوتي ونظرت إليها نظرة خبث، اكتشفتها مباشرة، فابتسمت وأغلقت باب المكتب وقبلتني دون تردد على فمي ثم قالت وهي تنسحب:

– عليك أن تتعرف على المؤسسة جيدا سأطلب أحد الأعوان ليصحبك لزيارة جناح بيت الجثث.

دهشت لجرأتها وقد أيقظت في غريزة وحنينا إلى مارغريتا العنابية وترحمت عليها.

كانت الساعة منتصف النهار تقريبا جاءني أحد العملة من

مساعدي نيللا قائلا:

– أتريد أن نبدأ الزيارة؟

– لا بأس، أجبت.

تبعته، نزلنا سلالم وصعدنا أخرى حتى وصلنا إلى الجناح المسمى «بيت الجثث»، قبل أن يفتح الباب شعرت ببرودة تخرج من بين مفاصل الباب الرئيسي.

هذا قسم خاص بجثث الأطفال وهذا قسم النساء وهذا قسم خاص بمناضلي الفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

كان الجناح طويلا ونحن نسير ما بين صفوف علب التبريد المليئة بالجثث فتح العون على درج من الأدراج فظهر وجه شاب ملتح بكل كماله فأخفيت وجهي وكابرت وتجسارت. ونحن هكذا نمر بين صفوف برادات الموتى إذا بي أسمع صوتها، إنها نيللا وقد لحقت بنا تقفز على زوج كعب عال كأنما ترقص. نظرت في جهاز ترمومتر معلق في ركن وقالت موجهة كلامها للعون الذي يرافقني، عليكم ضبط درجة الحرارة إلى أقل من هذا بدرجة ونصف، الجو بدأ يسخن في الخارج.

انسحب المعاون فجأة دون أن تأمره بالإنسحاب وسبقتني على خطوها كالفراشة، وهي تقول:

– هذه ثروتنا، كنزنا. كانت تقول ذلك وهي تشير إلى برادات الجثث على الجانبين.

لم أفهم شيئا.

تقدمنا قليلا ونحن نمشي بين صفوف الأموات، ثم فجأة

استدارت وقالت لي:

- هذا جناح الشهداء.

سكت، وقد هجم علي وجه أبي وهو يعيش مؤامرة القائد على جبل الثورة، قلت في نفسي كم من الشهداء ينامون في هذه العلب تم الغدر بهم من قبل رفاقهم، قضت عليهم نيران صديقة.

تقدمنا قليلا وقبل أن ننعطف إلى رواق آخر نظرت إلي وإذا في عينيها نار مشتعلة. ثم عانقتني وأخذت تقبلني على فمي وهي تلهث وتغمغم. ثم بدأت تفكك أزرار قميصي بعد أن سحبت من على كتفي معطفي، ثم انتقلت إلى سحاب سروالي ففتحته بعنف وهجمت بفمها على عضوي الجنسي. دارت بي الأرض فهجمت عليها ورفعت تنورتها الخفيفة إلى الفوق، استدارت وقد اتكأت على برادات الجثث مالت بجسمها الرقيق قليلا فولجتها فصرخت من اللذة عاليا.

- إلى آخره.

كنت وأنا أعصرها قابضا على وسط خصرها بعنف من الخلف أشعر بظهري ملتصقة بأحد برادات الجثث وكأنما منها تخرج نارغريبة تلفحني فتزيدني شبقا. في قمه شبقها كانت تعض على باب البراد الذي يقابلها وتغرس أسنانها في معصمي. دقائق ثم انتهينا من العملية. رتبت من لباسها ومثلها عدلت من أمري قليلا. وواصلنا الجولة متضاحكين وقد نسيت تماما بأنني بين عشرات الجثث لكل جثة حكاية موت تختلف عن الأخرى.

انتهت الزيارة خرجنا من الباب الآخر وصعدنا سلالم ونزلنا

أخرى حتى وجدنا في جناح الإدارة مرة أخرى. عدت إلى مكتبي في حين توجهت هي إلى مكتب المدير العام.

دخلت المكتب، أغلقت الباب من خلفي، جلست متهالكا على الكرسي الرجراج وحين استعدت ما قمنا به بين برادات الجثث جاءني الغثيان فأسرعت إلى الحمام وأفرغت ما في معدتي.

هكذا كان أول يوم مداومة في مصلحة «حفظ الجثث».

الفصل الرابع عشر

حرير خشن جدا

حين نزلت بيروت بكل صورها الخرافية التي تسكن رأسي كنت أتمنى أن ألتقي فيها بفيروز وسعيد عقل ووديع الصافي وجورج حاوي ومهدي عامل وأجلس في مقهى من مقاهي شارع الحمراء الشهير وأركب حافلة شعبية وأذهب لزيارة متحف جبران خليل جبران في بشري. لكن ها أنذا أجلس قبالة المانو وهو يشرب العرق كأسا ثقيلة فوق أخرى وكأنما يريد أن يدفن شيئا في داخله كي ينساه إلى الأبد فيتعذر عليه ذلك.

ها أنذا أنقل وهران المغطوبة إلى بيروت.

لم يطلب مني المانو رأيا ولا تعليقا على العمل الذي كلفت به من قبل نيللا. كان يحاول باستمرار أن نتجنب الحديث عن الشغل. يرد على مكالماته التليفونية الكثيرة باقتضاب وبعبارات غامضة،مليئة بالكودات. وحدها زينب كانت تفهمه وكانت تتحمل شقاء سكراته. فكم مرة ضربها ضربا مبرحا ثم لا يفتأ أن يأخذها في أحضانه ويسحبها إلى الصالون ويمارس معها الجنس بعنف وهو يبكي وفي دقائق سريعة يتركها ترتب هندامها وتلف رأسها بحجابها ويعود يقابل كأس عرقه ويتكوم أكثر وأكثر في شخصيته الغامضة.

بدأت تصرفاته تشغلني وغموضه يقلقني. كنت لا أقوم بأي شيئ في العمل، أدخل مكتبي الساعة التاسعة يجيئني الشيخ زهران بقهوتي الأولى ثم أغرس رأسي في الجرائد أقرأ بعض ما يتصل بهذا

البلد الذي سقطت من سماء مثقوبة عليه، وأتابع أيضا أخبار الفن والثقافة في بعض المرات. ثم أواصل قراءة رواية من روايات باولو كويلهو فقد أصبت أنا الآخر بعدوى كتب هذا الروائي، كل ذلك جاءني من جراء حديث زينب المفعم بالإغراء.

كانت نيللا هي كل شيء في المصلحة، لا شيء يتحرك إلا بإمرتها، أجانب كثر يدخلون مكتبها، القادمون من أوروبا ومن آسيا وأيضا المقيمون في بيروت وبعض الدول المجاورة. سفراء وقناصلة ومدراء شركات متعددة الجنسيات ومراسلون لصحف كبيرة ووكالات أنباء كبرى، جميعهم كانوا يمرون على مكتبها قبل الوصول إلى مكتب المدير العام.

كانت حين تتعب من استقبال زوارها ومن تدقيق بعض الملفات الطبية ومراجعة طلبات تأشيرة الدخول إلى بيروت أو دول أوروبية تدخل مكتبي تقبلني على فمي ثم تقابلني وتبدأ في الحديث عن أبيها الذي كان رئيس بلدية في ضواحي بيروت وكيف أنه تزوج أمها بعد أن فقد زوجته الأولى التي ما هي إلا خالتها أي أخت أمها التوأم ولا أحد يعرف حتى الآن كيف توفيت خالتها وكل ما يحكيه الناس من ألسنة السوء أن أباها كان عاشقا لأخت زوجته وأنه تخلص من هذه الأخيرة بأن ادعى أنها مجنونة وهو ما جعله يدخلها مستشفى الأمراض العصبية لتموت هناك.

بعد أن تنهي حكايتها التي لا رأس لها ولا معنى تقبلني كتلميذ غبي من فمي ثانية ثم تسحبني إما إلى مطعم العم أنطون حيث نأكل الكبة اللبنانية والسلاطة وصحن سباقيتي الذي كان يحضره على الطريقة الإيطالية ونحتسي كأس نبيذ من صنع بيتي، هدية

من أنطون الذي كان مزهوا بضفيرة شعره النازلة على ظهره. كان أنطون يكن محبة واحتراما كبيرين لنيللا التي كانت تبادله الإحساس نفسه وكانت لا تتردد في دفع ضعف ما يطلب.

أنا الآخر كنت أرتاح لأنطون الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة ويفتخر باشتراكه في جريدة «اللوموند» الباريسية والتي يقرأها يوميا منذ خمسة وعشرين سنة، السيدة فيروز لا تسكت في محله من خلال جهاز فونوغراف عتيق تدور عليه أسطوانات من طراز 33 و45 دورة. وأنطون ينادي جميع زبنائه بأسمائهم الصغيرة. في كل مرة جئنا للغذاء عنده إلا وحدثني بإسهاب عن حبه لكتابات ألبير كامو. وكان يقول لي:

– لولا شغفي بهذا المطعم وبنيللا لكنت أصبحت كاتبا مثل ألبير كامو. ثم يضحك ضحكا عميقا. تخرج نيللا سيجارة وتقدم له أخرى فلا يرفضها مع أنه لا يدخن، يأخذها منها ليضعها خلف أذنه ثم يخرج قداحة ويشعل لها سيجارتها. ثم ينطلق في الحديث عن رواية «الطاعون» ومدينة وهران، أسكت ثم أعلق قائلا:

– أنا من مدينة وهران التي تجري فيها أحداث رواية «الطاعون».

– أنت من وهران، كان يكسر الواو فيطلع اسم المدينة رائعا على لهجته اللبنانية العريقة.

كان وقت غذائنا عند أنطون لا يتجاوز النصف ساعة، فهو يعرف جيدا ارتباطات نيللا لذا فخدمتها قبل جميع الزبائن.

مرات كنا نعود من المطعم، ندخل مكتبها تغلق الباب خلفنا بدورة أو دورتين ثم تضع رأسها بين يديها وتنطلق في البكاء

الصامت كالصلاة. كنت آخذ رأسها أضعه في حجري وأمسد على رقبتها وهي في شهيقها الذي لا أجد له تفسيرا. لم تكن لي الشجاعة لأسألها عن سبب ذلك.

لم أكن أتصور أن هذه مرأة مثل نيللا لها هزائمها. كنت أتصورها منتصرة دائما. منتصرة أولا على نفسها ثم علينا جميعا ثم على العالم بما فيه المانو مديرها العام.

لا أستطيع تفسير أسباب تلك السعادة التي شعرت بها حين بكت قدامي هذا البكاء المر.

في البداية كان أكره شيء لدي هو حينما تجيئني وتطلب مني أن نذهب معا لزيارة روتينية تفقدية لجناح برادات الجثث، أعرف من عباراتها ومن موسيقى كلماتها أنها ترغب في أن نمارس الجنس هناك بين الأموات، هذه اللحظات كانت قمة السعادة والتجلي لديها.

كانت تقول لي بعد كل شبق:

– وحدهم الأموات يحفظون السر دون مقابل.

بعد مضي زمن وتعودنا على ممارسة الجنس بين الأموات، في سكينتهم التي تثير الغيرة، بدأت أنا الآخر أجد متعة عالية لا تشبهها متعة في التواجد صحبة نيللا في مثل هذا الفضاء الصامت الضاج، كنت أرى أننا ونحن نمارس الجنس بهبل فائق في حضرة الموتي أننا نكرمهم بأجمل ما أوصانا به الرسول الكريم إذ قال في حديثين من أحاديثه: «إذا قضيتم غزوكم فالكيس الكيس». يعني النكاح النكاح وقال عليه الصلاة والسلام: «النكاح من سنتي. فمن لم يعمل بسنتي فليس مني».

أحفظ هذين الحديثين الشريفين منذ أن قرأتهما لأول مرة في كتاب تلخيص سيرة ابن هشام.

كانت نيللا تضحك وتضحك حتى تغرورق عيناها بالدموع وهي تستمع إلي وأنا أعيد عليها نص الحديثين الشريفين، ثلاث مرات.

شيئا فشيئا بدأت نليللا تشركني في بعض اجتماعاتها مع بعض وجوه تجيء المؤسسة من دول عربية وإفريقية. كانوا بسحنات غريبة أثارت في البداية نوعا من الفضول والاستغراب لدي، كنت أكتفي بدور الملاحظ الخارجي، من بعيد.

تساءلت بيني وبين نفسي أليس وراء هؤلاء الغرباء حكايات يحملونها إلى مثل هذه المؤسسة المحترمة، مؤسسة حفظ الجثث؟ في بلاد المسلمين،الناس تؤمن بأن الميت سيد الأحياء.

لم يكن يسمح لي بلقاء المانو في مكتبه ولا بالدخول عليه. المدير العام عليه حراسة من كل جهة. وحدها نليللا التي كان لها الحق في الدخول عليه ثلاث مرات في اليوم، واحدة قبل انطلاق العمل، الثانية قبل نهاية الدوام الرسمي والأخيرة قبل أن تغادر عملها متأخرة كالعادة، أي حوالي الساعة السابعة مساء.

ما عاد المانو يعود إلى البيت ليلا إلا لماما. يدخل دخولا خاطفا، يأخذ بعض أشيائه يسلم علي يترك لي حزمة أوراق نقدية ويترك مثلها لزينب، نشرب معا مرات فنجان قهوة أو كأس ويسكي، ثم يعتذر منا لينسحب لأشغال ليلية تجمعه، كما كان يقول، مع شركاء مهمين في العمل.

ككل مساء معتذرا ومتذمرا قليلا كان يودعني وهو يوصي زينب

بالتكفل والاعتناء بي:

– العمل لا يتركنا حتي في بيوتنا، يلاحقنا في الليل كما في النهار. ثم ينسحب تحت صفارات إنذار سيارات حرسه المدجج بالسلاح.

وأبقى هكذا أقابل شاشة التلفزيون أقفز من قناة إلى أخرى، وأنا لا أرى شيئا مما يتحرك أمامي. عند الساعة العاشرة بالضبط تجيء زينب، هي الأخرى لها مثل سيدها منبه في رأسها، تضع العشاء على الطاولة، تجلس قبالتي وتشرع في الحديث عن كاتبها المفضل باولو كويلهو، تسرد علي آخر أخباره بالتفصيل مع الأسفار والدين الإسلامي وحكاياته مع النساء والسحر، أشياء تقرأها في صحف الإثارة ثم تقطعها وترتب قصاصاتها، تضعها بعناية في جيوب حافظات بلاستيكية ملونة. شيئا فشيئا بدأت أكتشف هواية أخرى لزينب هي لعب الشطرنج التي كانت تلعبها مع لاعب إسباني عن طريق الفاكس والتليفون، حيث أنها ترسل له مرسوما على الورق تحرك قطعها وهو بالمقابل كذلك وحين يكون هناك طارئ يقفز الواحد منهما إلى التليفون. أنا لا أحسن هذه اللعبة ولا تعجبني بل إنها تعصبني لأنها تشبه الحرب، لكن شيئا فشيئا بدأت تشدني وأستعذبها بين متنافسين في قارتين تفصل بينهما مسافة أزيد من أربعة آلاف كيلومتر. وذات مرة جربت ثم غرقت، فوجدتها لعبة صالحة للنساء أكثر مما تنفع الرجال لأنها مؤسسة على الحيلة والمكر والتفكير البديهي الذي لا يغفو ولا ينام. ومن يومها تركت الشاشة والقنوات الإذاعية العربية والأجنبية وبدأت أقابل زينب الساعات والساعات، نظل هكذا صامتين، أشرب الويسكي كأسا

على كأس وأراقب جنودها وأحرس جنودي، كانت منتصرة علي دائما. كنا لا نقوم إلا إذا جعنا أو غلبنا النعاس.

أصبح وجود نيللا في مؤسسة «حفظ الجثث» هو الشيء الوحيد الذي يخفف علي روتين ساعات اليوم الثقيلة وبؤس المحيط وغموضه. بدأت أتعلق بها وأحب عطرها وألوان فساتينها وبنطلونات الجينز المختلفة التفصيل التي تلبسها. أراقب دخولها وخروجها وزوارها أيضا. كنت أسمعها تتحدث في التليفون عن أطفال ونساء ورجال يجيء بهم رجال غامضون في رحلات بحرية أو برية أو جوية تدفع تكاليفها من مؤسستنا: «مؤسسة الرحمة والإيمان لحفظ الجثث» هذا هو اسم المؤسسة كما هو مثبت على الأوراق الرسمية والتي يديرها المانو بطريقة المايسترو.

أطفال ونساء ورجال من جميع الأعمار يجلبون من مدن وقرى وبوادي وصحارى السودان ومصرو اليمن والصومال وإريتيريا وغيرها. كان هناك فريق خاص من الأطباء ومساعدي الأطباء والممرضين والممرضات الذي يتكفل باستقبال هذه المجموعات البشرية والعناية بها،إذ يتم نقلهم من أول ساعة وصولهم المؤسسة إلى جناح الفحص الاستعجالى حيث يتم تحليل دمهم واحدا واحدا وتجرى لهم فحوصات روتينية أخرى، ثم ينقلون إلى جناح خاص ملحق بالجناح المركزي الذي هو جناح بيت حفظ الجثث. يقيمون هناك بعض الوقت من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع دون زيارات، في قطيعة تامة مع العالم.

من أحاديث الأطباء والممرضات المتقطعة والمتقاطعة استطعت أن أفهم بأن هناك عمليات جراحية غريبة تجرى لهؤلاء القادمين.

بدأ سؤال تواجد هؤلاء البشر في هذه المؤسسة يثير حيرتي.

وحدها نيلا برقتها وعطرها وقبلاتها وابتسامتها التي توزعها علي كل لحظة ستكشف لي عن كل شيء.

على كل لم تطل حيرتي، وكنت أعرف أنها لن تطول، هذا اليوم على عادتنا اختلينا نيللا وأنا في بيت حفظ الجثث، وكالمرات السابقة تعرت نيللا كلية ومثلها فعلت، سحبت علبتي بيرة باردة علامة هانكين من أحد برادات الجثث، ناولتني واحدة وفتحت لها الثانية، لم أستطع أن أشرب البيرة إذ شعرت وكأنها جزء من الجثة التي كانت موضوعة معها. كانت نيللا تشرب علبتها وقد فاضت الرغوة على فمها ونزلت قليلا على نهديها. قالت لي بنوع من الجنون:

«– مص لي نهدي، فأنا يثيرني مص الحلمتين أكثر من الولوج».

أخذت الحلمتين ومصمصتهما حتى بدأت نيللا تصرخ عاليا:

«– الآن يمكنك أن تلجني»

كنت تحت تصرفها وقد صعدت من جسدها العاري رائحة بيرة هانكين. مارسنا الجنس بعنف ووحشية لم يسبق لي أن مارسته، حتى أنني وأنا أوشك أن أصل إلى قمة الشبق كنت مستعدا أن آكل نهديها وأخلي سبيلها بدون صدر وكانت هي الأخرى ترغب في ذلك. وتصرخ:

«– مص نهدي، مصهما فتلك متعتي»

فجأة استدارت، انسحبت من تحتي مطفئة نار الرغبة في قائلة:

- أريد أن أخبرك بشيء جاد يا إسحاق.

بدأت تتحدث بهدوء وهي عارية تماما، تناولت علبة بيرة هانكين شرب، نزلت الرغوة صفراء ذهبية من بين شفتيها وسالت ما بين نهديها بطريقة مدهشة ومجننة، وأشتعل في هذه الثلاجة الكبيرة، تصعدني رغبة حيوانية سامية اغتالتها بهذا الحديث العاقل في لحظة الجنون العالي. بيت الجثث الذي نحن فيه على برودته الصقيعية فقد شعرت به يرسل ألهبة نار جحيمية. أنا الآخر فتحت علبة البيرة علامة هانكين وبدأت أشرب وقد نسيت أنها سحبتها من براد بجثة ميت. كنت أتمنى أن تفرغ من حديثها الجاد هذا دفعة واحدة كي نعود إلى شبقنا. لأول مرة أرى بتمعن وشهية جسدها المرمري المثير في هذا العري فيبدو لي شبيها بمنحوتات الآلهة اليونانية.

- عليك يا إسحاق أن تعرف بأننا في هذه المؤسسة، التي أصبحت واحدا من عناصرها، نمارس تجارة الذكاء. وتجارة الذكاء هذه هي أكبر تجارة وأربحها على الإطلاق، أهم من تجارة الذهب والسلاح والمخدرات.

لم يكن يهمني ما كانت تقوله من مثل هذه المقدمات النظرية والأخلاقية السخيفة والكاذبة كلما كنت أنتظره منها هو أن تفرغ ما على لسانها كي نعود إلى ما كنا عليه من شهية الجسد. لقد نسيت تماما بأننا متواجدان بين الجثث، ما كان يهمني هو التهام جسدها الذي تعبق منه رائحة عطر اسمه Ange Démon عطر مثير للرغبة الجنسية.

على حافة جسدها العاري وقبالته بكل فيوضه وغواياته

الشيطانية الرائعة حكت لي ما لم أصدقه ولكني صدقت:

-... فهؤلاء الأطفال والنساء والرجال على اختلاف أعمارهم الذين نجيء بهم من بلدان عربية وإفريقية تحت ستار التبادل التربوي والسياحي والرعاية الصحية والمسابقات الفنية والفكرية والشعرية والذين يسافرون تحت غطاء جمعيات إنسانية مختلقة، جمعيات وهمية بأسماء متعددة: جمعية الأيتام، جمعية الهلال لضحايا الحروب، جمعية محاربة الفقر والمرض، جمعية الحنان المتخصصة في أطفال الشوارع، جمعية أطفال الأمهات العازبات، جمعية أطفال بلا حدود، جمعية أطفال الغد، جمعية السلام، جمعية أطفال الحوار الديني وجمعية أطفال الحوار الحضاري....هؤلاء الأطفال والنساء والرجال يجلبون كما تجلب الحيوانات لغرض تجاري، فهم بمجرد وصولهم إلى مؤسستنا «مؤسسة الرحمة والإيمان لحفظ الجثث» يتعرضون لعمليات جراحية من خلالها يتم بتر بعض أعضائهم كالكلى والكبد والقلب والرئة والعيون وحتى الأعضاء الجنسية، هي أعضاء يتم بيعها في أوروبا وأمريكا وحتى في بعض الدول العربية والاسلامية.

كانت تتكلم بهدوء وثقة وأنا أبرد قطعة قطعة. جمرة رميت في قمة توهجها في سطل ماء، شعرت بجسدي يرتجف وقد أصيب بحمى باردة أو ساخنة، لست أدري.

حين انتهت من حديثها حاولت أن أقاوم برودتي وأعود إلى جسدها لأفرغ الرغبة الحيوانية التي كانت مشتعلة في فلم أجد في أعماقي سوى قطع الثلج ورغبة للقيء ففرغت ما في معدتي بين برادات الجثث. مكسورا ومتوترا لبست أشيائي واندفعت في اتجاه

الباب الخارجي الذي كان مغلقا من الداخل.

في لهجة غريبة وصارمة وقد تغيرت نبرات صوتها الذي كان قبل اليوم صوتا يغرد، قالت لي وهي تتبعني بخطوات سريعة محاولة اللحاق بي:

– هذا سر من أسرار المؤسسة، السر الأكبر، ومسؤوليتك كبيرة في إبقائه في بطنك، وما ينجر عن إفشائه سيكون خطيرا عليك وعلينا جميعا.

قبلتني على فمي وهي تهم بفتح الباب من الداخل محاولة رسم ابتسامة على وجهها الذي تغير ولم يعد ذاك الوجه الملائكي الذي كانه فبل قليل. وأضافت وقد عادت إلى لهجتها الصارمة:

– إذا ما خرج الخبر من أروقة المؤسسة فستكون أنت وراء ذلك وسيكون مآل جسدك مشرحة باردة حيث نحن في حاجة إلى بعض أعضائك، يبدو أنها لا تزال صالحة لتلبية بعض طلبات زبائننا الكثيرين. قالت العبارة الأخيرة بنوع من السخرية.

عدت إلى مكتبي في حين رأيتها تقطع الرواق الموصل إلى مكتب المانو.

أخافني كلامها كثيرا، أربكني، شتتني. أول ما بدر إلى ذهني هو مصارحة المانو بما يحدث في مؤسسته المحترمة. قلت في نفسي هذا المساء سأخبره بما قالته لي نيللا. إنه سليل ثورة المليون ونصف المليون شهيد سيوقف فورا مثل هذه الأعمال الإجرامية وسيتابع قضائيا من هم وراءها.

هذه الليلة وعلى غير العادة لم يغادر المانو البيت فقد فضل أن

نسهر معا، زينب كانت فرحة لقراره هذا وقد أبدت حيوية ونشاطا في تحضير ما يلزم السهرة من أكل وشرب. كانت سعيدة. لم تكن بي رغبة في أي شيء.

في السهرة لم يكن هناك ضيوف كما في ليلة وصولي، وحدها زينب عن بعد شاركتنا بعض اللحظات. استعدنا معا ذكريات بار ألفريدي في دمشق وبعض ذكريات مدينة وهران. كنت أبحث عن فرصة للمبادرة بالحديث عما أخبرتني به نيللا ظهيرة هذا اليوم، فإذا هي تدخل علينا وكأنما سقطت من السماء أو كانت تقرأ ما في رأسي. كانت علامات الشرب الكثير بادية على حركاتها ولسانها الذي بدا خارج سيطرتها أو يكاد.

بدأت تخيفني هذه النيللا. مع ذلك كانت مشهية بلباسها القصير ومشطة شعرها وكذا اللون الأخضر المدهش في عينيها، لون لا يظهر إلا في حالة الشبق والسكر.

حاولت أن أجد تبريرا لتهديداتها لي، قلت، ربما جاء ذلك لأنني لم أنه العملية الجنسية إلى قمتها وهو ما أثار غضبها، فأية امرأة في مثل حالها من حقها أن تتصرف كما تصرفت بل من حقها أكل لحم شريكها حيا وفورا.

سلمت علي، قبلتني على وجهي كعادتها بحرارة وفرح، ثم جلست إلى جواري، وكأنما أرادت أن تخفف علي قليلا صدمة القيلولة.

شعرت أن المانو كان باردا معها أو هكذا أراد أن يوحي إلي، أو ربما هذه لسيت أكثر من لعبة بينهما كي يبردا من صدمتي ومن خوفي أيضا. بدخول نيللا جاءتني رغبة كبيرة إلى الشرب.أريد أن أنسى، أن أعيد صورة نيللا الأولى إلى قلبي ورأسي. بدا لي أبو

بسام وفتيات فندق قرطاجنة من الجزائريات، بدوا لي جميعا في صور الملائكة المجنحة. كانوا دائما في البحث الدائم عن الفرح وما كانوا أبدا يريدون الموت أو الاحتيال على أحد.

حاولت ألا أنزل عيني على نيللا، هي الأخرى كانت تتحاشاني. ثم تكلمت ولسانها يهرب من فمها قليلا، موجهة حديثها إلى المانو:

– غدا تصل مجموعة السودان، يصلون بحرا إلى ميناء اللاذقية ومنها إلى بيروت.

– كم عددهم؟

– ثلاثة.

– عليكم بتحضير اللازم.

– أقترح أن يتكفل بهم إسحاق.

لم أفهم من حديثهما الملغوم والملغز شيئا. لباسها القصير يكشف عن فخذين مرمريين وحين تنبهت إلى أن الذئب استيقظ في، عرضتهما بإغراء باد.

جاءت زينب كلمت المانو بعض كلمات في أذنه، قام على الفور. من مكاني سمعته وهو يتكلم في التليفون يطمئن الذي على الجهة الأخرى من الخط. لم يطل به الحديث، محادثاته مختصرة دائما، عاد إلينا فوجدنا في صمت تام. كنت أشرب العرق وأنظر إلى قدمي تارة وإلى قدمي نيللا الجنسيتين تارة أخرى وإلى بعض موتيفات الستائر المعلقة على الباب والنوافذ.

– نعود إلى وصول الغد، أعتقد أن إسحاق عليه أن يأخذ زمام المبادرة، لقد أضحى واحدا من أهل البيت وناس المؤسسة، وهو

على علم بكل تفاصيل العمل.

– صحيح، أجابها المانو بنوع من التردد وهو يتحاشى النظر إلي.

كنت أريد أن أسألهما عما يتحدثان، لكني إلتزمت الصمت. اكتفيت بأن صببت لنفسي كأسا أخرى، كنت أريد أن أسكر وأن أتقيأ وأذهب كالكلب إلى الفراش، لكن السكرة لم ترد أن تجيء والنوم تخلف أيضا.

– علي أن أنسحب، قالت نيللا وهي تعض على السيجارة بين أسنانها عند طرف فمها الأيمن.

– تصبحين على خير، رد عليها المانو وهبت زينب لتفتح لها الباب. أما أنا فلم أتكلم.

شعرت براحة إذ غادرت المكان، أحسست ببعض الدفء والسكينة في وجودي إلى جانب المانو. شيئا فشيئا، برودة غريبة بدأت تتسلق خلايا دماغي.

أرتجف.

بمجرد خروج نيللا غير المانو مجرى الحديث، حيث بدأ دون مقدمات في سرد قصة وفاة أخيه الأصغر الذي هرب طفلته وخانه مع زوجته: «وجدت جثته في ضيعة بضواحي مدريد وقد افترستها الكلاب». كان يحكي قصة موت أخيه وقد بدت ملامح الارتياح والسرورعلى وجهه الذي أجده الآن متألقا تحت هذا الضوء الخافت قليلا.

نهاية الأخ وبهذه الطريقة المفزعة أزاحت عنه كابوسا ثقيلا. لقد تحرر من شيء ثقيل كان يضغط على رئتيه فيخلق له عسرا في

التنفس.

بدأت أشعر بدوار في رأسي ولم أكن باستطاعتي ملاحقة ما كان يقصه علي المانو. كان يبالغ في موت الهواري حتى أنني شككت في هذا الموت وقلت تلك طريقة أخرى للقتل.

لم أنتبه كيف سلمت نفسي للنعاس فوق الأريكة التي كنت أجلس عليها.

حين أستفقت، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا. كانت زينب جالسة عند رأسي تقرأ أو تعيد قراءة كتاب من كتب باولو كويلهو. شعرت برغبة حادة في التقيء، دخلت الحمام وأفرغت ما في بطني من مشروب البارحة. أخذت حماما خفيفا ثم احتسيت فنجان قهوة والتحقت بالمؤسسة.

في الخارج كان الجو باردا قليلا.

حين وصلت المؤسسة كان الجميع من العملة والإداريين في شبه حالة استنفار. أردت أن أعود من حيث جئت أوأنسحب لأتمشي قليلا في المدينة وأضيع فيها. أني أحب المشي فهو يساعدني على محاربة الأفكار القبيحة والمزعجة. تحية حارس الباب الرئيسي الذي كان يترصد القادمين بيقظة عالية اضطرتني أن أعدل عن العودة أدراجي. قبل أن أجلس جاءت القهوة، دون أن أطلبها، وقبل أن أرفع الفنجان إلى فمي ويصعد أريجها المنعش بالهيل إلى مناخيري دق جرس التليفون الداخلي. قلت في نفسي:إنها هي، إنها تريد أن تسحبني إلى بيت الجثث لنمارس ما لم نكمله البارحة أو أنها تريد أن تعتذر لي عن التهديد الذي صدر منها البارحة.

رفعت السماعة، كان صوت نيللا رقيقا ورخيما وهي تصبحني بالخير وتطلب مني أن أمر إلى مكتبها لأخذ ملف طارئ، لدراسته والبث فيه، ثم أنهت مكالمتها بأن اقترحت علي أن نتغذى معا، لم تترك لي المجال كي أرد بالنفي أو الإيجاب.

شربت قهوتي. شعرت بها مرة وعسيرة على المرور في حلقي الناشف.

ترددت قليلا ثم دخلت عليها في مكتبها، أنيقة كانت، إلا أن ملامحها بدت متعبة والسيجارة كعادتها لا تفارق شفتيهاالمصبوغتين بأحمر –شفاه قرمزي مثير وجنسوي. قامت من على كرسيها حيتني بقبلة على وجهي وجلسنا في الصالون.

لقد غيرت عطرها.

الذئب يستيقظ في ودوخة البارحة تنجلي فترفع حجبا سميكة من على دماغي. أبتسم لها. تقبلني ثانية

باشرتني بقبلة أخرى ضممتها إلي بعنف وجدت جسدها صغيرا ونحيفا، قامت وأغلقت باب المكتب بدورتين من الداخل. ثم مارسنا الجنس فوق الأريكة، كانت نيللا تلهث من تحتي وتصرخ وأنا أضع يدي على فمها: «مص نهدي إن ذلك يثيرني أكثر من الولوج».

حين انتهينا من دقائق الجنون، عدلت من لباسها، مررت أصابعا في شعرها لتسويته، جددت أحمر الشفاه ثم بدأت الكلام عن أمورالشغل التي لا تزال معلقة في الخارج، لم أفهم ما ترمي إليه ولم أرد أن أستفسر ولم أبد أي انزعاج أو اهتمام. أردت أن أكون تحت تصرفها.

لأول مرة أشعربأني أحبها.

قالت لي:

– لنا ضيوف قادمون غدا من السودان، عليك استقبالهم ومتابعة الملف الذي بحوزتهم فهو ملف مهم وأساسي بالنسبة لزبائن من نوع خاص تعول عليهم مؤسستنا كثيرا.

كنت أهز رأسي وأنا أتابع بشهية حركات شفتيها دون ان أفهم ما كانت تشرحه وبدقة.

شعرت بجوع وبرغبة جامحة في تناول «كبة» لبنية وسلاطة وكأس نبيذ جزائري «Cuvée de Mascara ou Cuvée du Président».

رفعت نظرها إلي، تفحصتني وقد أدركت أنني كنت في عالم آخر، صمتت، تململت في مكانها ثم أشعلت سيجارة أخرى من نار رأس تلك التي كادت أن تحترق نهائيا بين شفتيها المثيرتين.

– في الواقع الوفد تقوده امرأة من أم درمان تعمل معنا منذ سبع سنوات، امرأة طبيبة، قادرة وذكية وجميلة أيضا، قالت كلمتها الأخيرة بابتسامة أبانت عن صفين من أسنان مثيرة وثلجية بصفرة عائمة عليها من كثرة التدخين.

رن التليفون فقامت للرد، من جوابها ومن عبارات الترحيب التي أطلقتها، عرفت أنها تكلم السيدة السودانية، ثم بدأت تعتذر لها لأنها مسافرة ولن يكون من حظها اللقاء بها هذه المرة وأخبرتها بأنني أنا السيد إسحاق الذي سيتولى متابعة الملف، وقبل أن تقفل طمأنتها بأن كل الأمور جاهزة: المال والأوراق الطبية والقانونية والأمنية.

قبل أن أغادر مكتبها، أخبرتني نيللا أنها مسافرة في اليوم التالي

لمدة ثلاثة أيام إلى براغ. لا أدري ما علاقة هذه السيدة ببراغ. هذه المدينة المنسية بالنسبة لنا نحن العرب. لم أكن لأصدق بأنها ستسافر إلى براغ. وأنا أشك أساسا حتى في وجود مدينة اسمها براغ.

بدأت الطمأنينة تعود إلى قلبي إذ اعتقدت أن كلما روته لي نيللا البارحة في بيت الجثث هو كلام لا مكان له من الصحة، كلام مبالغ فيه. كانت تريد أن تخيفني كي تبقيني تحت رحمتها ولها هي وحدها. إن أسئلتها واستفساراتها الكثيرة والملغومة عما نقوم به أنا وزينب في ليالينا التي يغيب فيها المانو أكدت لي بأن غيرة بدأت تسكن قلبها.

هي الأخرى تحبني؟؟؟

كان علي أن أدرس هذا الملف المهم على حد تعبيرها وأحاول أن أفهم ما يحويه، لا داعي أن أكسر دماغي فالأوراق كلها موقعة من المدير العام وبعضها من قبل نيللا والمحاسب، ما أقوم به أنا هو متابعة تطبيق ما هو متفق عليه سلفا واستقبال السيدة السودانية، تقديم فنجان قهوة أو كأس شاي، وتسليمها الأوراق والسلام.

وأنتظر عودة نيللا من براغ، لا وجود لمدينة تسمى براغ، كذب في كذب. من يريد أن يسافر عليه الذهاب إلى باريس أو لندن وكفى.

في المساء كنت أرغب أن أحدث المانو في موضوع الملف الذي حملتني مسؤولية متابعته نيللا لكنه وكعادته لم يعد إلا مع آذان الفجر. آنستني قليلا زينب، حاولنا أن نلعب جولة ثانية من

الشطرنج بعد أن غلبتني في الأولى لكني شعرت بقلق ما فانسحبت إلى السرير وانسحبت هي إلى كاتبها المفضل باولو كويلهو. كنت أسمعها تقرأ وتضحك، تقرأ وتبكي، تقرأ وترسل تأوهات.

الفصل الخامس عشر

أعراس الجنائز

حين دخلت المؤسسة مؤسسة «مؤسسة الرحمة والإيمان لحفظ الجثث» هذا الصباح وجدتها وكأنما هي في حالة استنفارقصوى وكأنما الحرب فوق العباد، كنت أحمل الملف بأوراقه كاملة تحت إبطي. البارحة لم أستطع تفحص الملف. غلبني النوم تحت تنهدات وآهات زينب التي يبدو أنها كانت تقرأ رواية «إحدى عشرة دقيقة».

دخلت المكتب جاءني النادل ككل صباح بالقهوة المرة. لا وجه غريب في قاعة الانتظار، لا ذكر ولا أنثى. ربما تكون المرأة السودانية أو الدومانية قد أرجأت زيارتها إلى يوم آخر. أشرب قهوتي وأتصفح الجرائد فلا أجد فيها شيئا يقرأ سوى أخبار الحرب والانقسامات الفلسطينية وصراعات نجوم الغناء العاريات ونار الغيرة الملتهبة من بعضهن البعض. وصفحات إشهار كثيرة عن المطاعم وشركات البترول والسيارات وأخبار النعي أيضا مخلوطة بأخبار التهاني بالخطوبات والولادات والزواج وأعياد الميلاد.

البارحة حين خمدت آهات زينب وهي تمارس العادة السرية بعد أن فقدت كل أمل في الوصول إلي، حلمت بزبيدة. يا ربي لم أنس بعد هذه المخلوقة. رأيتها في المنام وهي مبتسمة في كل غنجها وأنوثتها المتفجرة. رأيتها تركب فرسا جميلة راكضة بها في اتجاه قمة جبل على رأسه شعلة نار كبيرة كشعلة الألمب، كانت تبحث عن مدرسها العراقي. لكنها لم تصل إلى أعلى القمة إذ رمت بها

الفرس أو الحصان أرضا وهنا اختفت زبيدة وامتلأت غابة الجبل بأسراب كبيرة من الغربان والعقبان. فبكيت. واستفقت من نومي وشربت كثيرا من الماء. ولم أستطع أن أعود إلى النوم.

يدق باب المكتب، السكرتيرة التي لبست ثوبا جميلا هذا اليوم بلون أسود من ذاك السواد العجيب. كان لباسها مكشوفا وهي التي اعتادت ارتداء الحجاب مع ألبسة ساترة، أزاحت الحجاب الذي كانت تضعه على شعر رأسها وبدا شعرها مسدولا وجميلا.

غريب أمر السكرتيرة هذا اليوم. ماذا حصل لها؟

قالت السكرتيرة غريبة الأمر في يومها هذا:

– الضيفة وصلت. هل أدخلها؟

أجبتها:

– لتنتظر قليلا. وافتعلت تصفح بعض الملفات. واغتمنت خروج السكريترة التي ملأت مكتبي بعطرها الحاد، فتحت للمرة الألف الملف الذي سأدرسه مع الضيفة الاستثنائية القادمة من السودان أو الدومان.

تركت لي بعض الدقائق ثم أمرت السكرتيرة بإدخالها.

كانت المرأة شقراء وقد توقعتها سمراء كما هن السودانيات والدومانيات أو الصوماليات. استغربت شكلها، حين أدركت دهشتي للون بشرتها وشعرها. بدأت تحكي لي حكاية أجدادها الفلامون البلجيكيين الذين ينزلون من سلالة الأسرة المالكة.

قالت لي إنها ولدت بتمبكتو ثم شرعت في تفصيل الحديث عن هذه المدينة العجيبة التي كانت فيما مضى ممرا إجباريا لكل قوافل

التجارة القادمة من القارات الأربع، بها وفيها كانت تمر طرق التوابل والقهوة والحرير والذهب ونخاسة البيض والسود والمخطوطات. وأن جدها الأول هو مؤسس طريق المخطوطات ويقال إنه كان يملك بين مخطوطاته المخطوطة الرابعة للمصحف الشريف التي خطها عثمان بن عفان وأرسل بها إلى شمال إفريقيا عبر القيروان. شرعت في تفصيل الحديث عن هذه المخطوطة التي دارت الدنيا من الأندلس إلى ملوك بجاية وخصومهم ملوك فاس والقيروان وتلمسان، وأن المخطوطة كانت تحمل في الحروب من قبل الملوك للتبرك أملا في النصر على أعدائهم، ومن كان المنتصر أول ما يقوم به هو وضع اليد على المخطوطة المباركة، وحين ساد الفساد في القصورسقطت المخطوطة ذات يوم بين يدي أحد الباعة المتجولين الذي رحل بها إلى تنبكتو وهناك اشتراها جدي الأول الذي كان أول من اعتنق الإسلام وقد كان قبل ذلك يهوديا جاء هو الآخر تنبوكتو هروبا من غرناطة التي استولى عليها الجيش المسيحي.

أعجبتني حكايتها وأعجبتني أيضا طريقتها في قص حكاية المخطوطة. كنت ساكتا أنتظرها أن تنهي حكايتها إلا أنها واصلت الحديث عن عائلتها التي جاءت السودان بعد أن انهارت تجارة المخطوطات في تنبوكتو، وأنهم أسسوا في أم درمان سوقا كبيرا للنخاسة والإبل والحصان العربي الأصيل، وأنهم فرضوا على كل بيع أو شراء لعبد إلا ويشترى معه حصان أو فرس أو جمل أو ناقة. وكان القادمون إلى هذه السوق يحترمون التقاليد احتراما كبيرا إلى أن وصل الإنجليز المتخلفون فأفسدوا كل شيء وبنوا مدينة مجاورة حديثة قضت على السوق وعلى تجارتنا وعلى علمائنا وعلى آبار

الماء الزلال.

كنت أنتظرها متى تبدأ مباشرة الموضوع الذي جاءت لأجله من الخرطوم إلى بيروت مرورا بإسطنبول. جاء النادل طلبت شايا وأكدت على أن يكون ثقيلا. ودون مقدمات قالت:

– بضاعتنا شحت هذه الأيام، فجمعيات المجتمع المدني المحلية والأجنبية أفسدت علينا عملنا وأصبحت تراقب كل طفل شارع أو مريض عصبي أو امرأة متشردة، هذه المرة لم نتمكن من العثور على هؤلاء الثلاثة إلا بشق الأنفس وبثمن غال. كل شيء ارتفع سعره: البترول والقمح والبطاطا وأيضا سلعتنا زادت بخمسين بالمائة. نحن مضطرون اليوم للدفع لرجال الشرطة وبعض الأطباء وحتى بعض رؤساء الجمعيات لكي نتمكن من وضع اليد على مجنون أو طفل شارع. لكن بضاعتنا نظيفة وصحية ولا غبار عليها والفحوصات الطبية جميعها تؤكد ذلك.

ضاع الكلام مني. بدأت أرتجف وكأنما حمى صقيعية سكنتني. قاومت ضعفي أمامها وقلت لها:

– ما طبيعة بضاعة هذه المرة وما مواصفاتها؟

– بضاعتنا ككل مرة هي المطلوبة عالميا، تتسابق عليها المستشفيات ومراكز البحوث في أوروبا والخليج العربي.

أردت بصمتي وبهزة خفيفة من رأسي أن أوحي لها بأنني الذراع الأيمن للسيد المدير العام في كل هذه العملية التي نعول عليها كثيرا لإنقاذ مستقبل المؤسسة التي أصبحت لها شهرة عالمية.

واصلت بكل ثقة وهي تشرب كأس شايها الثقيل وتدخن سيجارة

محلية الصنع لم أتمكن من معرفة اسمها.

ثم ضحكت ونسيت موضوعها وبدأت تقص علي كيف تعلمت اللغة الفرنسية التي تتكلمها بشكل ممتاز ودون لكنة إفريقية.

قالت لي إنها تعلمت الفرنسية لشيء واحد هو الخوف من جدها الذي قضى ربع قرن وهو يقرأ القرآن ليلا ونهارا دون توقف، وأنه هو الذي منعها منعا باتا أن تتحدث العربية مع كلبها، فكان عليه أن يبعثها إلى مدرسة الرهبان البيض كي تتعلم الفرنسية غير المقدسة كي تخاطب كلبها بحرية، وهكذا تعلمت اللغة الفرنسية في ظرف قياسي، تعلمتها وعلمت كلبها ما يجب عليه أن يفهمه منها.

كانت حزينة لأنها حين تعلمت الفرنسية لم يطل العمر بكلبها طويلا فقد مات بالطاعون فجأة. ولأنه كان على لغة المسيحيين فقد دفن عند بمقبرتهم الصغيرة المنظمة والمليئة بالورود والمغرية للموت والرقاد تحت التراب بين هذه المناظر الرائعة.

نظرت إليها فوجدتها مثيرة بنهدين نافرين. فاقترحت عليها زيارة لبيت حفظ الجثث، كنا نمشي وهي تقص حكايات عن كلبها وتضحك وحدها مع أن حكايتها لا تثير الضحك. كانت تقهقه كطفلة مراهقة وهو ما أثار في رغبة جنسبة عارمة.

دخلنا غرفة الجثث،شعرت بها وكأن برودة المكان استوطنت فجأة جسدها فبدأت تبحث عن دفء، قرأت ذلك في عينيها وفي حركات شفتيها. حين وصلنا المكان الذي فيه تعودت الاختلاء بنيللا، وكأنها اشتمت رائحة الذكورة مدت يديها برفق لتدخلها تحت إبطي، ضغطت عليها فسار الكهرباء بيننا. سحبتها إلي قليلا ثم قبلتها فشعرت برائحة التبغ مقرفة في فمها لكنها كانت مهيجة.

بعض روائح التبغ تثير الرغبة الجنسية هكذا كانت تقول زبيدة، استسلمت لي وكأنما هي متعودة أن تجيء هذا المكان من أجل فعل هذا الذي نفعله الآن. وضعت حقيبة يدها وبعض الأوراق على محمل معطوب العجلات والذي يستعمل في نقل الجثث وسحبت من على جسدها الرقيق تنورتها وقميصها البرتقالي. الآن فقط أنتبه أنها ترتدي لونا برتقاليا رائعا، أو هكذا بدا لي ونحن في مثل هذه الحال من الرعشة العالية؟ لم تتنازل عن سيجارتها بل ظلت محتفظة بها في فمها تعض عليها عضا قاسيا إذ ولجتها بعنف كبير. إلتفتت إلي ثم ابتسمت فبانت أسنانها مصطفة بعناية فائقة. ثم وكأنما نسيت بأن عضوي الجنسي الذي أصبح بداخلها كاملا فأخذت تقص علي حكاية الرئيس جعفر النميري وأندية كرة القدم:

«كان الرئيس محمد جعفر النميري عاشقا لكرة القدم ومن أنصار نادي الهلال وكان يحضر مباراة النهائي بين فريقه هذا وفريق نادي المريخ، ولسوء حظ الرئيس فقد انهزم فريقه فكان عليه أن يمنح الكأس لخصوم ناديه، وهو ما حصل، لكن الجمهور الذي غصت به مدرجات الملعب أخذ يهتف بصوت واحد مهللا باسم اللاعب الذي سجل هدف انتصار المريخ على الهلال مرددين شعارا حساسا أزعج الرئيس النميري:(رئيسكم مين؟ غاغارين. رئيسكم مين؟ غاغارين) وغاغارين هو اسم اللاعب الذي سجل هدف الفوز. وهو ما أثار غضب الرئيس مما دفعه وحفاظا على أمن الدولة الأمر بتعليق مباراات الأندية السودانية جميعها مدة سنتين كاملتين».

أعجبتني حكاية الرئيس النميري واندهشت كيف أنها تستطيع أن

تحكي مثل هذه الحكاية السياسية وتمارس الجنس بطريقة ربانية.

حين انتهينا من خلوتنا وعدنا إلى المكتب قالت لي:

– هذه المرة أحضرت لكم ثلاثة مجانين واحد اشتريناه من مصر والثاني تم اختطافه من مقديشو والثالث من جنوب السودان وكلهم في حالة صحية جيدة وأن أعضاءهم يمكن تصديرها إلى أوروبا أو أمريكا دون خوف من أي مرض.

نظرت إليها وقد شعرت بمعدتي تضغط على حنجرتي فأسرعت الخطو إلى دورة المياه فأفرغت ما في بطني وغسلت وجهي وعدت وقد قررت أن أغادر مكتبي على الفور.

اندلق لسانها بعد أن أخذت سيجارة أخرى حيث بدأت تحكي لي عن كيفية اختطاف أطفال الشوارع والمجانين والنساء المتشردات وترحيلهم عن طريق مهربين متخصصين بعد أن يتم إخراج أوراق ثبوتية مزورة بأسماء وهمية، كانت تبدو سعيدة وهي تقود مثل هذه العملية الناجحة مالا وكانت تريد أن تبين لي بأن جهات أمنية وبوليسية وعسكرية تتعاون معهم في ذلك. وأنه بمجرد إجراء عملية سحب الأعضاء المطلوبة مسبقا من جسد الطفل أو المرأة أو المجنون يتم تلقيح المعني بإبرة الموت الرحيم، ثم يتم إتلاف جثته في بئر الأسيد عالي الدرجة، والإعلان عنه في سجلات المختفين، لدى مخافر الشرطة التي تكون هي التي ساعدتنا على إدخاله إلى البلد.

نظرت إلي وقالت بصوت مسئول وعميق:

– أنبهك على أنك تجلس على كرسي أهم من كرسي رئيس

جمهورية هذا البلد، المستقبل معك ولك، الأموال التي تمطر على هذه المؤسسة من كل الجهات أموال خيالية. كنت أستمع إليها وطنين ضغط يرتفع قليلا قليلا في طبلتي أذني، في الأخير طلبت مني أن أوقع لها على ورقة تسليم المجانين الثلاث، فعلت ذلك دون أن أفهم لماذا فعلت ذلك ولماذا وقعت على ذلك.

كنت أريد أن أهرب من هذا الفضاء ومن هذه اللغة.

وانصرفت بعد أن قبلتني على وجهي ثلاث قبلات تركت من جرائها بعض أثر أحمرالشفاه على خدي قائلة:

– سأعود إلى الخرطوم عن طريق باريس، سأقضي هناك ليلتين، أنا أحب حي الإليزي في النهار والحي اللاتيني في الليل.

وإذ غادرت المكان شعرت بانفراج وبحرية ثم بدأ جسمي يرتجف وقد سكنتني حمى باردة، مما جعلني ألف نفسي في معطفي الشتوي ثم أغادر المكان دون أن أغلق باب مكتبي.

إلى أين؟؟؟

زاد الطنين وارتفع في إذني حتى عدت لا أسمع شيئا من حولي.

الفصل السادس عشر

صلاة الغائب

هذا هو اليوم العاشر لاختفاء إسحاق أو عبد الله بن كرامة ولا أحد يعرف كيف اختفى، لا أحد استطاع أن يحدد ساعة هذا الاختفاء ولا طريقه ولا مكانه.

الألسن اندلقت.

الحكاية الأولى:

عادت نيللا من سفرها بعد غياب دام ثلاثة أيام، كانت حزينة لذلك الاختفاء المفاجئ، لشاب لا عدو له في المدينة سوى سذاجته وحلمه في الانتقام لأبيه. سبحان الله، لأول مرة تكشف نيللا عن قلب رهيف وحساس وتعترف لسكرتيرتها ومعاونيها أنها كانت تحبه، تعشقه وأنها كانت مستعدة للرحيل معه أينما أراد نحو الغرب كما الشرق، لا يهم. وأن ما كان بينهما منذ أول يوم وطأت فيه قدماه المؤسسة، قبل عام ونصف تقريبا، هو حال من السحر المفعم بالعواطف والأحاسيس النارية التي لم تعشها من قبل مع رجل آخر وما أكثرهم.

– إسحاق عسل آخر.

استغرب عمال مؤسسة «مؤسسة الرحمة والإيمان لحفظ الجثث» سوء الحال النفسي والجسدي الذي آلت إليه نيللا منذ أن اختفى إسحاق. لم يكن أحد منهم يتصور أن امرأة مثل نيللا يمكنها أن

تحب وأن تحزن على غياب إنسان مهما كانت عجينته، وهي التي توقع يوميا عشرات ملفات تشريح الأحياء بغرض بتر بعض أعضائهم وهي التي تأمر بحقن بعضهم بإبر الموت الرحيم حين يستنفذ الجسد كاملا وهي التي تفاصل على أسعار الأعضاء البشرية وتمضي على عقود بيعها في الأسواق الدولية والعربية وهي التي تدفع الأموال نقدا بالعملات الأجنبية لكل من رجال الأمن المتورطين ولرجال عصابة الخاطفين الذين يسرقون أطفال الشوارع والنساء المشردات والمجانين والإتيان بهم إلى المؤسسة لبتر أجزاء من أجسادهم المطلوبة في مستشفيات أوروبا وأمريكا، هي التي تقوم بكل هذا وأكثر ها هي ترتدي لباسا أسود وقد أرقها اختفاء إسحاق وأثر فيها كثيرا وجعلها لأول مرة تبكي أمام الجميع. نعم نيللا أو نهلة تبكي، وحين تبكي تطلب من الجميع أن يناديها باسمها الحقيقي: نهلة.

إن حال الكآبة التي آلت إليها نيللا أو نهلة جعل المانو، بعد أن وصلته تقارير عن حزنها وبكائها المستمر على إسحاق، يفكر في تغييرها من على رأس مصلحة «العلاقات والتعاون»:

– هذه مسؤولية الكبار وليس الرومانسيين، الحب مكانه في الأغاني أو في كتب الأشعار والروايات التي تقرأها زينب، أما هنا فلا مكان إلا للعمل وليس غير العمل، المشاعر والأحزان والكآبة والدموع يجب تركها في درج لا يفتح أبدا.

لكن نيللا ولكي لا تغضب المانو بعد أن لفحها شررغضبه على رومانسيتها و«عواطفها التافهة الصبيانية» التي أبدتها أمام الجميع والتي شوهت صورتها الحديدية في عيون كثير من مساعديها، فقد

عملت على ترويج خبر مفاده أن إسحاق سرق مالا كثيرا من الصندوق الذي تركته تحت وصايته أثناء سفرها وأنه هرب إلى دمشق ومنها إلى إيران في إثر امرأة تعرف عليها ذات ليلة في فندق قرطاجنة بساحة المرجة بدمشق حيث أقام مدة أربع سنوات. وتؤكد نيللا أن إسحاق كان يتعلم اللغة الفارسية بالمراسلة وأنه استطاع أن يتقنها في ظرف ثلاثة أسابيع. وأنها سمعته يكلم امرأة من أصبهان في الهاتف، وأنهما كانا يضحكان كالأطفال وهو ما أثار غيرتها وأفقدها أعصابها لأنها أولا وقبل كل شيء لا تحب حزب الله وأنها بدأت تشعر بأحاسيس غريبة تجاه هذا الغبي المغفل.

مهما يكن فلسان المرأة العاشقة يخونها.

تهذي، تقول وتفرغ نيللا قلبها الذي رق وقد ساءت حالتها النفسية كثيرا بعد اختفاء إسحاق:

إنه سافر في إثرفرح الأصبهانية صحبة صديق له اسمه مصطفى عبر تركيا التي دخلاها برا عن طريق باب الهوى أو باب النوى، هكذا ذكرت في كتب أخرى؟؟؟ نزلا لليلة واحدة بمدينة إزمير التي أخافته بغموضها ونفاقها فرحل عنها فورا حين ذكرته بمؤسستنا «مؤسسة الرحمة والإيمان لحفظ الجثث».

الأتراك لا ينتبهون للغريب.

قال لي إسحاق وهويحتضنني في قيلولاتنا التي كنا نقضيها بين برادات الجثث:

«منذ صغري وأنا معجب بهذا المصطفى أتاتورك الذي كان جدي لأبي يعلق صورة له اشتراها من أحد الأسواق الشعبية، صورة

بالأبيض والأسود بإطار لوحي مزوق ومحفوف بكتابة ديوانية لآيات قرآنية كريمة وهو العلماني الكافر كما كان يحلو لجدي لأمي التعليق على هذه الصورة كلما تخطى عتبة الصالون أيام الأعياد الدينية بعد البسملة والحمدلة ثلاث مرات. مثل أمي كنت أعتقد، ونظرا للعناية الكبيرة التي يوليها جدي لهذه الصورة والتي تصل حد التقديس، أنها صورة للرسول عليه الصلاة والسلام أو لأحد الصحابة المبشرين بالجنة. كان جدي لأبي عالما لغويا لا يجلس في مجلس إلا ويستنكر كيف أن النحويين العرب جعلوا من «المفعول به أو فيه» نائبا للفاعل ثم يعطي أمثلة على ذلك كأن يقول: (هذا جنون، كيف يمكن أن يكون المغتال نائبا لمرتكب فعل أقيم عليه هو، كما في الجملة التالية: أغتيل الرجل. فالرجل هنا مات أي أغتيل، فكيف يمكنه أن يكون نائب فاعل؟ هذا هراء وجنون) وكان جدي لأمي وهو الرجل المتزمت يرفض الاستماع إلى مثل هذا الكفر الذي يخرج من فم مسلم يسب اللغة العربية لغة الجنة، يترك المجلس ثم ينسحب للتوضئ وأداء صلاة «الغفران».

قرأت يا نيللا بعض قصص الكاتب عزيز نسين وأحببت سخريته وأسلوبه وحساسيته للطبيعة الانسانية، أعجبني ما كتبه عن الطيور وعن إسطنبول، كنت منبهرا بالأطفال الذين يبيعون الطيور من فصيلة «المقنين» أي «الشحارير» للسياح الأغبياء من الأوروبيين والأمريكيين وكان هؤلاء يستمتعون بالطائر لحظات في يده ثم يطلقونه في السماء والطفل يصرخ في أذن السائح عليك أن تثبت في رأسك حلما ترغب أن يتحقق، قل ذلك في قلبك ثم أطلق وثاق العصفور سيتحقق حلمك بعد واحد وعشرين يوما وليلة. هذا الطائر

المعروف لدي سكان الجزائر–العاصمة ذوي الأصول الأندلسية وحيث تكثر تربيته إذ لا يوجد بيت عاصمي دون غناء «شحرور»، كان يهرب من الجزائر إلى إسطنبول وقد راجت تجارته رواجا كبيرا خلال القرن الماضي حيث أصبحت تنافس تجارة القطن والعسل وخيوط الحريرو البارود.

كان الأطفال الأتراك واليونانيون يتكلمون بالإنجليزية والألمانية والفرنسية كالشعراء. وكان السياح يقفون أمام هؤلاء الصغار كالأغبياء».

لماذا تحكي نيللا هذه القصة للمانو؟ فهي إذا ما كانت تريد إطفاء نار الغيرة المشتعلة في قلبه جراء ما شعر به من عمق العلاقة التي جمعت بينها وبين إسحاق، فإنها وبطريقة حكيها هذه وتفاصيل ما ورد في الحكاية لم تكن إلا لتزيده لوعة وسعيرا.

لسان العاشقة يخونها.

وبالقدر الذي لم تستطع به نيللا إخفاء حبها لإسحاق ما كان بإمكان المانومن جهته أن يستر عن عيون مراقبيه غيرته وجنونه. وهو ما بدل تصرفاته مع زينب كثيرا إذ كان يمارس معها الجنس ثلاث مرات في الليلة، كانت سعيدة لهذا الإفراط في الممارسة لأنه جعلها ولأول مرة منذ عشر سنوات أو أكثر تتخلص قليلا من باولو كويلهو وكتبه التي لا تعطي سوي تنهدات وآهات ودعك عنيف للعضو الجنسي في آخر الليل أو مطلع الفجر.

لسان العاشقة يخون ولو وضعت عليه السلاسل، هاهي نيللا تحكي عن إسحاق وعلى لسانه ما لم تسمعه أذن غير أذنها أو أنها لم تسمعه، سيان؟؟:

«... الخانوم التركية الخمسينية العمر التي تشرف على بيت للإيواء وهو عبارة عن ثلاث غرف صغيرة بملحقاتها مستقلة داخل بيتها العائلي البسيط المكون من طابقين يتم تأجيرها لزوار المدينة من العابرين أو أو السياح المقيمين بعض الوقت، كانت في غاية الفرح حين عرفت بأننا من الجزائر. كلمتنا بفرنسية مكسورة وبنبرة تركية رقيقة قائلة:

– إني أحب الجزائر لشيء أساسي فهم الشعب الوحيد من جميع الشعوب التي شكلت الإمبراطورية العثمانية الذي لا يعتبر وجود الأتراك على أرض الجزائر استعمارا، بل خلافة إسلامية.

علقت على كلامها بنوع من المزح والتردد والانبهار في أنوثتها المتفجرة وابتسامتها المثيرة والمغرية التي تشبه ابتسامة صور نساء الإشهار على معجون الأسنان سينيال:

– لكن الداي حسين هو الذي سلم الجزائر للإستعمار الفرنسي، أليس كذلك؟.

– لكنه صفع القنصل الفرنسي بمروحته، ضربه كما تضرب الذبابة، وهذه أكبر إهانة لفرنسا الاستعمارية حفظتها ذاكرة التاريخ، وأعظم صورة تسجل لتركي ينهزم بانتصار.

أدهشني ذكاؤها وبديهتها وهي تسرد قصة مروحة الداي حسين بلغة فرنسية مخلوطة بتركية أو رومانية، كما كتبها المؤرخون الأتراك».

تقول نيللا وقد ظهر عليها أثر ولعها بإسحاق وأتعبها غيابه الغامض وهي تفصل بكل متعة كذب حكاية السفر إلى أصبهان

هذه التي لا تتوقف عن روايتها للمانو تارة ولنفسها تارة أخرى:

«... لم يكن إسحاق راغبا في الوصول إلى فرح الأصبهانية بقدرما كان يريد الهروب من كل ما يربطه بالموت والموتى. كان يريد أن يذهب بعيدا حتى يصل مكانا لا تشتم منه رائحة الجثث التي أصبحت تسكن عرقه وأنفاسه فلا يجد مخرجا للتخلص منها.

هكذا، هروبا من مدينة لم ير فيها سوى الموت دخل بلاد الفرس عن طريق رحلة برية بواسطة حافلة نقل راقية ومريحة. كان سعيدا وهو يستمع إلى الأغاني التركية الخفيفة والراقصة ولكن وبمجرد تجاوز الحدود التركية والدخول في الأراضي الإيراينية انطلقت الأغاني الفارسية ذات الإيقاع الديني المونوتوني الكربلائي مما جعله يعود إلى أجواء الموت والموتى وهو ما جعله يفكر بالعودة فورا لولا أن صديقه أقنعه بالمواصلة حتى أصبهان.

ثم شاهد على شاشة الحافلة عرض فيلم «الرسالة» لمصطفى العقاد في نسخته الإنجليزية. إنه يرى هذا الفيلم للمرة العاشرة وربما أكثر. كان الطريق طويلا والطبيعة مثيرة والأغاني التي يبثها جهاز المسجل تعيسة ومقرفة.

قالت نيللا على لسان إسحاق ما لم يقله هذا الأخير:

«... ومن المدن مدن تثير الغيرة في قلوب النساء لأنها قادرة على سلب لب الرجال بجمالها. المرأة والمدينة عدوتان، يختصمان على من منهما القادرة على امتلاك قلب الرجل.

لم أكن أتصور أن هناك مدينة في مملكة الله بهذا الجمال حتى دخلت أصبهان إنها بالفعل نصف الدنيا كما يقول عنها أهلها

وزوارها. قلت لمرافقي سنبحث عن بيتها في هذه المدينة الغواية كما يبحث عن الإبرة في كومة القش. ضحك مصطفى وبانت سنته الأمامية الخارجة بفوضى عن بقية أسنان الفك العلوي.

كنت سعيدا أن أستعيد اللغة الفارسية بطلاقة وأتحدث بها دون لكنة أو تردد، جميع الكلمات تجيء لساني دون أن أجهد نفسي أو أتلكأ.

كنت أحدث المارة وأصحاب المقاهي وصاحب الفندق ذي الأصل الفلسطيني بالإيرانية مع أن هذا الأخير كان يرغب في أن أحدثه بالعربية.

تعلمت الفارسية في ثلاثة أسابيع، وفي الأسبوع الرابع بدأت أكتب بها الرسائل لفرح، خلال تلك الفترة قررت ألا أسمع سوى الأغاني الإيرانية التي كنت أتصور أن كلماتها دينية وأيديولوجية فإذا بي أكتشف أغان جريئة في الحب والنساء والخمرة، وأتابع برامج قناة إذاعية سخيفة تتحدث عن الآثاروالدين والأكل والطقس،أخبار السماء من حر أو مطر أو ريح شؤون لا تهمني مطلقا، فأنا قد أخرج من بيتي مرتديا معطفا شتويا في قيض الصيف، فأنتبه فإذا أنا على عكس ما يرتديه العامة، ثم أنسحب إلى مطعم أو بار لأخفي فضيحتي تحت مكيف الهواء، لا أدخل محلا شرب أو أكل إلا إذا انتبهت هل القاعة بها مكيف أو مدفأة، أخرج من شقتي ناسيا بأي فصل يمر العالم، لا يهم، وأمشي»

تؤكد نيللا أنها هاتفت إسحاق ثلاث مرات وهو في أصبهان حتى أنها في المرة الثالثة أثارت غيرة فرح.

علق المانو على كلام نيللا قائلا:

– هذا تخريف وهلوسة، لم أكن أتصور أنك رومانسية إلى هذا الحد؟ مع أن هذا الأخير كان يتمنى لو أن هذه الرواية صحيحة.

تقول نيللا كي تريح المانو من غيرته وعذابه:

«...إنه حين عثر على فرح كما يعثر على الإبرة في كومة التبن. وجدها متزوجة بشاب تم تجنيده، منذ أول ليلة لزواجهما، وتم إرساله إلى الحدود مع العراق. وأن فرح تشتغل أستاذة اللغة الإنجليزية في مدرسة خاصة تابعة لإحدى جمعيات الصداقة الإيرانية البريطانية التي تباركها السلطة في أصفهان، وأن لها طفلا أسمته «حسين». إلا أن إسحاق دعاه باسم «تاكفاريناس» منذ أول نظرة.

استغربت فرح هذا الاسم الذي جاء على لسانه وألصقه هكذا بالصبي ذي العام الواحد.

وحين سألته عن معنى هذا الاسم قال لها: إنه لملك بربري جريء وجبار لم يتنازل عن بلاد الأمازيغ كما تنازل عنها الداي حسين التركي الخائن للفرنسيين الذين كانوا السبب في موت والدي وخيانة أمي.

ولأن فرح لم تكن تحب الترك ولكنها كانت معجبة بعبد الله أوجلان الكردي الذي كانت تشبهه بأحمد بن بلة. فقد تنازلت هي الأخرى عن اسم حسين وبدأت تنادي طفلها بتاكفاريناس».

كان إسحاق يريد أن يكون منتصرا دائما. هو الوحيد الذي هزمني في هذه المؤسسة التي لم تنشأ للبكاء أو النوسطالجيا.

رغم غضب المانو وتهديده المتكرر لها بالطرد وتجريدها من

مسئولية إدارة المصلحة إلا أنها لم تستطع إخفاء حبها لإسحاق الذي مرعلى اختفائه ما يزيد عن ثلاثة أشهر. في لحظات الحنين إليه كانت نيللا تعود إلى مكان خلوتهما في «بيت الجثث» ثم تبكي غيابه وتمارس العملية السرية حتى يرتفع صوتها عاليا في سماوات الشبق بين برادات الموتى، فتلعن غيابه وتسبه وتتمنى له أياما سعيدة مع الإيرانية.

ولكن نيللا كانت تنهي كذبة حكاية إسحاق وفرح الأصبهانية بعبارة فيها غل وغضب تكررها دائما: «ليس هو الأول الذي اختفى في هذه المدينة ولن يكون الأخير، ليذهب إلى الجحيم».

الحكاية الثانية:

تعجبت اليوم إذ جاءتني نيللا لتستعير مني كتاب «إحدى عشرة دقيقة» لباولو كويلهو. قلت في نفسي: أوصل الحال بنيللا الحديدية إلى أن تقرأ كتبا كهذه التي صرفت فيها عشر سنوات فلم أجد فيها سوى طريقا سالك في آخر الليل أو بين الفصل والآخر نحو آهات وتأوهات العادة السرية؟

كم مرة راودت إسحاق حين يغيب المانو طويلا وينساني لكذب باولو كويلهو لكنه كان لا يستجيب وحين تجرأت يوما وطلبت منه وأنا عارية في الحمام أن يمدني بالفوطة بقطع طريق الرغبة علي وقد فهم لعبة الإغواء قائلا: «أنا لا أخون سرير أخ أعطاني بيته وقلبه».

كان نبيلا.

أنا متأكدة أن اختفاءه ما هو إلا تحقيق حلم العودة إلى وهران

التي كان يحبها ويتمنى، كما حكى لي، أن يشتغل بها صراف للعملات الأجنبية في ساحة المدينة الجديدة. لقد تعلم الكثير من أبي بسام الدمشقي. كان في كل مرة يقرر فيها العودة إلى وهران مدينته التي تحرسها «سانتا كروث» و«سيدي عبد القادر» تخونه شجاعته إذ يشعر بتردد في تحقيق غايته من العودة وهي قتل أمه وزوجها الخائن. وبقدرما كانت وهران تناديه بإلحاح كان يمعن في الهروب أكثر وأكثر حتى لا يغرق في عسل الجريمة.

وتروي زينب أن إسحاق قد صارحها بأنه سيغادر مدينة الأموات هذه بعد أن شده حنين جارف إلى زوجة أبيه زبيدة التي كان يريد من خلال علاقته بها الانتقام لأبيه من أمه التي أعطت جسدها الطاهر لذاك القائد الخائن وأن بعودته سيساعدها كي تتزوج مدرسها العراقي الذي خطف عقلها بألوان ملابسه الزاهية.

وتقول زينب التي حزنت كثيرا على ما لحق بإسحاق أنه تركها وحيدة للياليها ورواياتها ولكم رافقها واستمع إليها وهي تقص عليه عشرات المرات قصص كاتبها المفضل باولو كولهو.

ربما لم يكن المانو متأثرا لإختفاء إسحاق بقدرما كان متأثرا وحزينا لما أصاب زينب هي الأخرى من كآبة وعزلة فقاطعت الطعام وقاطعت أيضا قراءة روايات باولو كويلهو التي أصابت عدواها نيللا، كما أصيبت بأرق دام أسبوعين أو أكثر، كانت لا تنام الليل كله مكتفية بشرب كمية كبيرة ومختلفة من المشروبات الكحولية وبدأت تدمن على تعاطي بعض المسكنات العالية التأثير.

كان المانو يقول وهو يأخذ زينب في ذراعيه:

«لم أحزن على أخي الذي فقدته في إسبانيا إثر موت مرعب

مثلما حزنت على اختفاء إسحاق».

كانت زينب تشعر بأن ما يقوله المانو كذب في كذب، لأنه كان يمارس الجنس معها بطريقته المعهودة ويشرب عرقه بذات الطقوس، لا شيء فيه تغير، حتى غيرته على نيللا حين تتحدث عن إسحاق وتكشف عن عواطفها وكآبتها هو كذب فب كذب.

«من قتل إسحاق؟» قالتها زينب متسائلة وحين فاهت بهذه العبارة في حضرة المانو ارتبك هذا الأخير وفقد من جراء ذلك قدرته الجنسية مدة ثلاثة أشهر أو يزيد.

وقالت زينب التي تهيم بروايات باولو كويلهو وتحب ممارسة العادة السرية في ماء البينوار الدافئ وهي تقرأ بعض الفصول أو تعيد قراءتها بأنها نبهت إسحاق مرارا وطلبت منه، بل ترجته، ألا يدخل أنفه فيما لا يعنيه. وتشهد بأن إسحاق كان ذكيا وأن ذكاءه هو الذي جعل منه فضوليا ينبش في كل شيء، وبقدرما كان رومانسيا كان قادرا على أن ينزل لخوض أي حرب من الحروب الخطيرة بما فيها حرب النساء وحرب الشوارع.

وحين تقول زينب بكل عفوية وسذاجة حكيمة: إن من هم من طينة إسحاق لا يموتون بصمت، موتهم ليس نسيانا، إن لموتهم ضجيجا سيصل إن عاجلا أو آجلا إلى آذاننا جميعا، هذا الكلام بقدرما كان يدفع نيللا إلى المضي في قراءة كتب باولو كويلهو كان يثير توترا لدى المانو ويؤرقه فيعود للحديث الهذياني عن زوجته سهى وعن طفلته إيفا.

وكانت في كل مرة تقسم أنها لم تكن لها أية علاقة جسدية أو جنسية معه وأن الحمل النائم في بطنها هو من المانو الذي، من

شدة الفرح، خدعته مقاومته ليلة اختفاء إسحاق وفعلها فيها وأنها لم تمانع.

الحكاية الثالثة:

يروي المانو والذي يفتخر أنه نصب ابن بلده إسحاق على كرسي مرفوع على عرش وجاه ومال كثيرمنذ أم دخل بيروت وأنه دلله دلال الأمراء وأن هذا الأخير، كعادته، غادر المؤسسة يوم اختفائه في وقته الروتيني اليومي وقد نزل إلى وسط بيروت ليشرب قهوته ويتمشى قليلا على كورنيش المدينة أو«شارع جبهة البحر» كما يحلو له أن يسميه والذي يعشقه ويذكره بمثيله بوهران، ومن وسط المدينة أو من هذا الشارع اختفى. ضاع أثره.

لا أحد رآه من بعد ذلك.

يقسم المانو بحليب أمه لالة حليمة أنه لم يدخر جهدا في البحث عنه في كل المخافر والسجون وأنه جند لذلك جميع معارفه من أهل الحل والربط في المدينة، من الأصدقاء وحتى من الخصوم وأن كل هذا الجهد والبحث لم يوصل إلى نتيجة تذكر، والأمل لا يزال قائما للعثور عليه ذات يوم.

وروى أحدهم بأن إسحاق ومباشرة بعد أن غادرت السودانية الشقراء مكتب إسحاق طلب هذا الأخير مقابلة المانو الذي استقبله بعد تردد وقد تبادلا حديثا عاليا وحوارا متوترا وصراخا مما جعل المانو يحسم المقابلة طالبا ثلاثة من عناصر أمنه الخاص الذين اقتادوه إلى جهة مجهولة.

وقال الذين شاهدوه خارجا من مكتب المانو تحت عنف رجال

الأمن إنه كان يتحدث لوحده، مع نفسه وقد تصبب عرقا، كان يصرخ في باحة المؤسسة الاستشفائية وهم يجرجرونه طالبا أن يلحقوه بالمجانين أو أن يعيدوه إلى حضن زبيدة.

وقيل إنه بالفعل ألحق بهم وقد تم تشريح جثته حيث اقتطع منها بعض ما هو صالح للبيع: القلب والعينان والكبد والكليتان والأذنان والعضو التناسلي، هذه الأعضاء المقتطعة من جسد إسحاق كانت عليها طلبات ملحة ومثبة قادمة من أوروبا ومن بعض مستشفيات دول الخليج.

وحده المانو، ربما، كان يملك حقيقة اختفاء إسحاق أو عبد الله بن كرامة.

في اليوم الثاني لاحتفاء إسحاق أشرف المانو بنفسه على تنصيب موظف جديد مكان إسحاق.

الموظف هذا رجل ستيني بحركات عسكرية مظبوطة ودقيقة ونظرات حادة لا تخطئ أحدا، لا تفارقه سجادة الصلاة أبدا فهو لا يمكنه تخطي وقت الصلاة ولو كان في اجتماع أو في سيارة، «وقت الصلاة هو وقت الصلاة» «كل شيء يؤجل إلا الصلاة فهي في وقتها»، إذ بمجرد أن تعلن ساعته الصينية في معصمه وقت الصلاة برفع الآذان المسجل بصوت لإمام المسجد الحرام يترك ما بيده ويمد زربيته أمامه، ينسحب من الإجتماع مهما كان الاجتماع ثم يأخذ له مكانا في ركن قاعة الاجتماع أو أو ينزل من السيارة في ركن من الشارع ثم يؤدي واجب السماء.

علقت نيللا ذات مرة بطريقتها الساخرة: أهذا السيد دائما على وضوء وطهارة أو أنه من فصيلة الملائكة لا يأكل ولا يشرب ولا

ينكح؟

حكاية خارج الحكاية:

.. وقال نادل المقهى حيث تعود إسحاق الجلوس يوميا، بعد مغادرة عمله، إنه لم ير الشاب الوهراني ذاك اليوم.

وقالت زبيدة: ضاع مني اللسان وها أنا أنتظر عند ظل الحكاية التي لا تكذب علينا.

الجزائر العاصمة- وهران – نورماديا

2009